دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الدكتور جمال المحاسب

علم الاجتماع الريفي

سلسلة علم الاجتماع
١

BOBST LIBRARY
3 1142 02841 3873

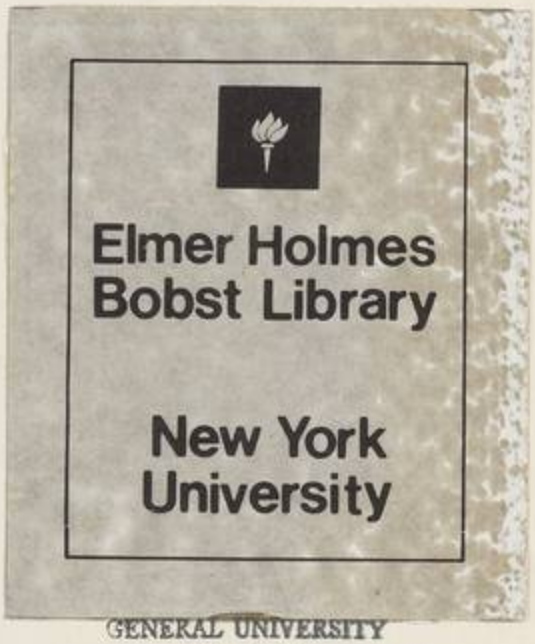

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

al-Muḥāsib, Jamāl
'Ilm al-ijtimā' al-rifī

الدكتور جمال المحاسب

عِلْمُ الاِجْتِماعِ الرِّيفيّ

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

سلسلة علم الاجتماع
١

N.Y.U. LIBRARIES

Near East
HN
743
.5
.M8
c.1

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

مواد علم الاجتماع الريفي

أ ــ علم الاجتماع الريفي :

١ ــ موضوعه وطرائقه

٢ ــ خصائص الحياة الريفية

٣ ــ الحياة البدوية والحياة القروية

ب ــ الوسط الطبيعي للحياة الريفية :

١ ــ تأثير العوامل الايكولوجية على حياة السكان إجمالاً وعلى الريف خاصة

٢ ــ نماذج من المناطق الريفية في سورية والشرق الأدنى

٣ ــ نماذج من المناطق الريفية في القارات الخمس إجمالاً

ج ــ العوامل الحيوية والاقتصادية :

١ ــ الملكية الزراعية . أنواعها . تطورها . مستوى المعيشة في الريف .

٢ ــ سكان الريف. فئاتهم. توزيعهم. الولادات والوفيات. الامراض إجمالاً

٣ ــ الهجرة من الريف إلى المدينة ومن المدينة إلى الريف

٤ ــ تطور سكان الريف . تطور القرى

د ــ العوامل الاجتماعية والنفسية :

١ ــ الطبقات الاجتماعية في الريف . الصراع الاجتماعي . التنافس

٢ ــ التآلف . التضامن . التعاون الريفي

٣ ــ الأسرة الريفية . المراسيم وحفلات الزواج

٤ ــ العادات والتقاليد والمعتقدات في الريف (الفولكلور)

٥ ــ المدرسة الريفية وخصائص التعليم الريفي

هـ ــ نتائج وتطبيقات حول اصلاح الريف وانعاش القوى :

المشكلة الصحية ، المشكلة الاقتصادية ، المشكلة العائلية والتربوية ، الخ ...

واجبات الحكومة ، واجبات الاهالي والجمعيات التعاونية

مقدمة

يتألف الكتاب من المحاضرات التي ألقيتها على طلاب السنة الثالثة الذين يهيئون شهادة علم الاجتماع في كلية التربية بالجامعة السورية. والمحاضرات في مجموعها تؤلف فكرة موجزة عن علم الاجتماع الريفي الذي هو فرع جديد من فروع علم الاجتماع العام . وقد قررنا تدريسه في الجامعة السورية لأول مرة في تاريخ الجامعة عام ١٩٥٤ — ١٩٥٥ . وكان من نصيبي أن أفتتح هذا التدريس في عامه الاول . فهذه المحاضرات إذن هي الاولى من نوعها تلقى في الجامعة السورية ، لذلك يعوزها الكمال في كثير من النواحي ، ورجائي أن تتكامل شيئاً فشيئاً ويصبح الكتاب في الطبعات القادمة أقرب إلى الكمال المتوخى . على أنها مهما تكاملت سوف تبقى إلى زمن بعيد متصفة بالطابع المحلي ، وذلك لسببين : ١) أن علم الاجتماع وهو العلم الذي وصفه أوغست كونت بكثرة التعقيد وقلة العمومية أي بكثرة التضمن وقلة الشمول لن يأتي قبل مضي زمن كافٍ ، بأمثلة كلية كالرياضيات التي تنطبق أحوالها في كل زمان ومكان ، وهو مهما تجرد عن الاحوال الخاصة يحتاج إلى الرجوع إليها في سبيل الايضاح على الأقل . وهذا اللجوء إلى الاحوال الخاصة يكون أكثر لزوماً في فرع جديد من فروع علم الاجتماع ألا وهو علم الاجتماع الريفي الذي يكاد يكون محلياً قبل كل شيء ، وهو لأنه حديث يبدأ حتماً بمرحلة الوصف والتصنيف ، ثم بعد جهود جبارة في البحث

والاستقصاء يبلغ مرحلة الاستقراء وأخيراً بعد جهود مماثلة يبلغ المرحلة الثالثة التي هي مرحلة الاستنتاج . ٢) إن الامثلة المحلية لا بد منها في تدريس خاص بكلية خاصة ككلية التربية . وقد أصبح مبدأ الانتقال من الخاص إلى العام من البديهيات التربوية التي يذكرنا بها المربون في كل المناسبات ، لذلك راعيت هذا المبدأ في بحوث الكتاب وأملي أن تكون الطبعة الثانية منه حاوية على أمثلة محلية أخرى متنوعة من الشرق والغرب (بما فيه أوربا وأمريكا) ومن العالمين القديم والحديث . ومرادي أن يقارن القارئ بين أحوال خاصة عديدة حتى ينتهي إلى كليات علمية مجردة ، وهكذا يتم الانتقال الطبيعي بالتدريج من علم الاجتماع المحلي إلى علم الاجتماع المقارن إلى علم الاجتماع الكلي .

والبرنامج الذي قررته في التدريس ، كما هو مبين في الصفحتين السابقتين، أوسع بكثير من الكتاب المطبوع لأنه يرمي إلى فسح المجال للطالب حتى يطالع الكتب الاجنبية التي أخص بالذكر منها الامريكية . فقد عني العلماء الامريكيون بعلم الاجتماع الريفي منذ نصف قرن حين توسعت المدن في بلادهم توسعاً عجيباً وتطورت الجماعات بشكل سريع من الحياة الريفية إلى الحياة الحضرية الى الحياة المدنية المعقدة ذات المدن الكبيرة كواشنطون ونيويورك وشيكاغو . والشرق اليوم يمر في الادوار ذاتها التي مرت بها أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر . فهذه دمشق وبيروت وحلب تتسع اتساعاً محسوساً في كل عام ويزداد سكانها يومياً ولن يمضي نصف قرن حتى تظهر أرقام الاحصاءات بالملايين عوضاً عن الآلاف وقد أضحى تاريخياً ذلك العهد الذي كنا نتكلم فيه عن عمان كقرية كبيرة وعن المملكة الاردنية كأمارة الأمير عبد الله . فالحياة الريفية أمست موضوعاً طريفاً للدراسة العلمية وأدوات العيش فيها تعتبر اليوم من الاشياء المتحفية التي ينبغي أن يعنى العلماء بمعرفتها أولاً كأشياء طريفة تثير حب الاطلاع لابتعاد الانظار عنها ،

ثانياً كأشياء مفيدة لربط الحاضر بالماضي وتعليل المستقبل بكليها . وما أجدر العلماء العرب بالتخصص في دراسة أحوالهم الريفية ؛ وإني إن كنت أقدم هذه الدراسات الصغيرة فانما أقدمها كبادرة خير للجيل الناشئ الذي سوف يتبعها بدراسات أوسع وأعمق . وقديماً قال العرب في أمثالهم : « أول الغيث قطر » .

دمشق يوليو ١٩٥٥

جمال المحاسب

البحث الاول

أين يقع علم الاجتماع في مجموعة العلوم ؟

أين يقع علم الاجتماع الريفي في علم الاجتماع ؟

للاجابة على السؤال الاول يكفي أن نتذكر تصنيف أوغوست كونت للعلوم . إذ رتب هذا الفيلسوف العلوم الاساسية بالترتيب الآتي :

الرياضيات ، الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، علم الحياة ، علم الاجتماع .

وليس من موضوعنا أن نناقش هذا التصنيف في جميع تفاصيله بل نقول انه قابل للتعديل ويكون تعديله بالشكل الآتي :

الرياضيات، الميكانيك، الفيزيكمياء ، علم الحياة ، علم الاجتماع، علم النفس .

وقد ارتكز أوغوست كونت في تصنيفه على مبادئ تعرفونها أهمها المبدأ المضاعف الذي يسميه **مبدأ التعقيد المتزايد والبساطة المتناقصة** . ان هذا المبدأ المضاعف فسّره أوغوست كونت تفسيراً عاماً اجمالياً لذلك يمكن ان نزيد على

هذا البحث مستقى من كتاب :

J. Mouhasseb : Essai sur la classification des sciences p. 168

تفسيره بعض المعادلات الرمزية .

فاذا نظرنا الى موضوع العلم نظرة سكونيـة Statique أي من حيث هو « شيء » ينتج معنا ان موضوع الرياضيات هو الشيء الأبسط فيزيد عليه موضوع الميكانيك شيئـاً آخر ثم يزيد عليه موضوع الفيزيكمياء شيئاً آخر وهكذا كما في المعادلات الآتية :

موضوع الرياضيات = ش

موضوع الميكانيك = ش + شَ

موضوع الفيزيكمياء = ش + شَ + شً وهلم جرا .

واذا نظرنا الى موضوع العلم نظرة حركية Dynamique أي من حيث هو « **حادثة** » ينتج معنا المعادلات الآتية :

موضوع الرياضيات = ح

موضوع الميـكانيك = ح + حَ

موضوع الفيزيكمياء = ح + حَ + حً وهلم جرا .

ومن السهل أن نفهم هذه المعادلات اذا تصورنا الحادثة الرياضية أولاً كحركة رياضية. مثلاً تغير كمية الزاوية في المثلث بتغير الضلع المقابل. فاذا ربطنا حركتين من هـذا النوع بعلاقة ثابتة ينتج معنا قانون رياضي . مثلاً نقول ان تساوي الزاويتين في مثلث حادثة ثانيـة مرتبطة مباشرة بتساوي الساقين كحادثة أولى . فيكون القانون الرياضي هذا الارتباط الثابت . واذا انتقلنا الآن الى موضوع الميكانيك نرى في الحركة الميكانيكية عنصراً جديداً هو فكرة القوة التي تضاف الى فكرة الكميـة الرياضية . ثم اذا انتقلنا الى الفيزيكمياء نزيد عنصراً آخر هو

حوادث المادة فيزيائياً وكيميائياً وهكذا حتى نصل الى موضوع علم الاجتماع الذي يحوي عناصر متنوعة في مواضيع العلوم السابقة . مثلاً حادثة الثورة أو حادثة الحرب تتضمن عناصر رياضية أولاً (كجداول وتصميمات يرسمها المهندسون) ثم عناصر ميكانيكية وفيزيكميائية (الاسلحة وتوابعها) ثم عناصر بيولوجية (مؤونة الجيش) ثم عناصر اجتماعية (مجموعة الافراد وتفاعلهم اجتماعياً) .

فموضوع علم الاجتماع يتصف بالتعقيد وهذا سبب من أسباب تأخر نموه كعلم وضعي وتأخر استقلاله عن الفلسفة هو وعلم النفس . ومن المعلوم أن العلوم السابقة استقلت عن الفلسفة في أوقات مختلفة وكان استقلالها من حيث التاريخ الزمني متناسباً مع درجة البساطة في موضوعها . لقد استقلت الرياضيات مع أقليدس (نحو ٣٠٠ ق.م) والميكانيك مع أرخميدس (القرن الثالث ق.م) . واستقلت الفيزياء مع غاليله (١٥٦٤ — ١٦٤٢) والكيمياء مع لافوازييه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) وأخيراً علم الحياة مع لامارك وكلود برنار (في القرن التاسع عشر) أما علم الاجتماع وعلم النفس ففي وقتنا هذا على مرأى منا ولا تزال قضية استقلالهما قيد البحث والمعالجة .

اننا فضلا عن تعديلنا تصنيف أوغوست كونت كما ذكرنا نلفت النظر الى اضافة علم جديد ينبغي ان نعلن استقلاله قبل استقلال علم الاجتماع هو علم « الايكولوجيا Ecologie » الذي نضعه بين علم الحياة وعلم الاجتماع . ونقصد بعلم الايكولوجيا كما يعرفه العلماء المعاصرون بأنه العلم الذي يدرس آثار البيئة الخارجية في الفرد والجماعة وآثار هذه في البيئة . غير أننا نعرفه تعريفاً واسعاً وننظر اليه من حيث معناه الاشتقاقي . فكلمة Oikia اليونانية تدل على البيت

من حيث هو (بيت وعائلة) ومن حيث أن العلاقات بين المحيط والداخل هي علاقات اقتصادية . فنضيف الى هذا العلم كل الدراسات الاقتصادية التي يدرسها علم الاقتصاد دراسة موضوعية . فالحوادث الايكولوجية في الواقع تدور حول البيت فهي من البيت والى البيت. أما ما يبقى من الدراسات الاقتصادية التي ندرسها دراسة ذاتية فهذه تبقى في نطاق علم الاجتماع الذي يحتفظ بناحية ذاتية ما دام يدرس المجتمع في تأسيساته المعنوية .

واذا رمزنا الى الموضوع الرياضي بنقطة هندسية ثم الى الموضوع الميكانيكي بنقطة يدور حولها سهم ، ثم رسمنا الموضوع الفيزيكيائي كما يرسمه الفيزيكيائيون بشكل دائرة ذات مركز تحيطه دوائر صغرى ، ثم رسمنا الموضوع البيولوجي بشكل خلية معقدة أكثر من الدائرة السابقة ، فاننا نرسم الموضوع الايكولوجي وهو بيت عائلة بشكل دائرة معقدة أكثر من الخلية . وذلك تبعاً للترتيب الذي ذكرناه في النظرة السكونية لموضوع العلم .

أما وجهة نظرنا في جعل علم النفس يتلو علم الاجتماع ويأتي بعده لا قبله ، فذلك مرتكز على مبدأ نسميه **مبدأ الزمن المتزايد** . فاذا كانت النقطة الهندسية التي رمزنا بها للموضوع الرياضي تمثل فكرة المكان بدون زمان فان الموضوع الميكانيكي يبدأ بادخال فكرة الزمان مع مفهوم الحركة . ثم تزداد أهمية عنصر الزمان كلما نزلنا في سلم العلوم من الأعلى الى الأسفل . مثلاً في الفيزيكياء يصبح الزمن شرطاً من شروط الحادثة . وفي علم الحياة شرطاً ضرورياً أساسياً إذ نجد ثمرة من الثمرات لا تنضج إلا في وقت معين وبعد مضي وقت معين . وفي علم الاجتماع كذلك نجد كل تأسيسة اجتماعية لها زمانها . وفي علم النفس يكفي أن نقول ان الحادثة النفسية لا تمر في المكان بل في الزمان . فكأن موضوع العلم

اجمالاً ينحصر بين المكان المطلق والزمان المطلق . ينتج مما سبق أن علم الاجتماع يمكن أن يكون آخر العلوم في القائمة على أن يتلوه علم النفس الذي سوف يتكامل شيئاً فشيئاً مع تكامل البشرية .

بقي علينا أن نجيب على السؤال الثاني : أين يقع علم الاجتماع الريفي في علم الاجتماع ؟ إن مبدأ التعقيد المتزايد يفيدنا أيضاً في ترتيب أقسام كل علم ترتيباً موضوعياً لأن كل علم في الواقع ينال أقسامه الثانوية من وجود العلوم السابقة وبتعبير آخر أن كل علم ينقسم مبدئياً الى أجزاء عددها يساوي العلوم المتقدمة عليه . مثلاً علم الحياة ينقسم الى : ١) علم الحياة الرياضي . ٢) علم الحياة الميكانيكي . ٣) علم الحياة الفيزيكيائي . فاذا قررنا هذه الاقسام الخارجية نضيف حينئذ الاقسام الداخلية وهي بالنسبة لعلم الحياة : علم التشريح ، وعلم الفيزيولوجيا .

فبالنسبة لعلم الاجتماع يكون الترتيب الموضوعي لأجزائه كما يلي : ١) علم الاجتماع الرياضي . ٢) علم الاجتماع الميكانيكي . ٣) علم الاجتماع الفيزيكيائي . ٤) علم الاجتماع البيولوجي . الخ . . . ثم نضيف إلى هذه الاقسام الاقسام الداخلية .

غير أن الاقسام الداخلية لا تخضع الى قاعدة موحدة كالاقسام الخارجية فكل عالم له تصنيفه في هذا الصدد . وقبل تعداد بعض هذه التصانيف يمكن أن نفهم معنى الاقسام الخارجية بالامثلة :

فعلم الاجتماع الرياضي هو العلم الذي يدرس العلاقات الرياضية في الحوادث الاجتماعية ويسمى عادة بالاحصاء الاجتماعي . أما علم الاجتماع الميكانيكي فهو الذي يدرس المجتمع من ناحيتين : **أولاً** : من ناحية سكونية حيث نوازن بين حادثتين اجتماعيتين إحداهما رد فعل للأخرى . **ثانياً** : من ناحية حركية حيث نعتبر

كل حادثة اجتماعية نتيجة لما قبلها ونربط آخر حركة بالحركات الاولى بالترتيب التتابعي . أما علم الاجتماع الفيزيكميائي فهو الذي يدرس اختلاط الحوادث الفيزيكميائية بالحوادث الاجتماعية كالكهرباء مثلاً في المدن وانتشارها في القرى . أما علم الاجتماع البيولوجي فهو الذي يدرس الحوادث الحيوية في الجماعات كالوراثة وأثر العروق ونوع الغذاء في مستقبل الجماعة وما شابه ذلك . فكل قسم يتناول إذن موضوعاً له نوعيته ، ولكن بالنسبة للحوادث الاجتماعية .

قلنا إن الاقسام الخارجية لا يختلف العلماء في تعدادها لأنها موضوعية نسبياً . أما الاقسام الداخلية فهي التي يختلف العلماء في تعدادها .

فهناك من يقسم علم الاجتماع إلى قسمين : ١) علم الاجتماع السوي . ٢) علم الاجتماع المرضي . ثم يضاف إلى هذين القسمين قسم ثالث : ٣) الاصلاح الاجتماعي كعلم تطبيقي .

وهناك من يقسم علم الاجتماع بالنسبة إلى التأسيسات المشهورة فينتج منها الاقسام الآتية : ١) علم الاجتماع الاخلاقي . ٢) علم الاجتماع القانوني أو التشريعي . ٣) علم الاجتماع الاقتصادي . ٤) علم الاجتماع السياسي . ٥) علم الاجتماع التربوي . الخ ...

غير أن أفضل التقسيمات هي التي تراعي التزايد في الكمية بحيث نعتبر الفرد أولاً كنقطة مركزية نحيطه بدائرة صغرى هي الأسرة ثم بدائرة أكبر هي المدرسة أو المهنة ثم بدائرة أكبر هي القرية أو المدينة ثم بدائرة أكبر هي الوطن ثم بدائرة أكبر هي البشرية جمعاء . فبقدر ما يوجد من دوائر يوجد فروع لعلم الاجتماع نذكر منها ما يلي : ١) علم الاجتماع الفردي . ٢) علم الاجتماع العائلي . ٣) علم الاجتماع المدرسي والتربوي . ٤) علم الاجتماع المسلكي والاقتصادي . ٥) علم الاجتماع الريفي . ٦) علم الاجتماع المدني . ٧) علم الاجتماع الوطني

والسياسي. ٨) علم الاجتماع الدولي والأممي.

ويمتاز هـذا التصنيف بالمرونة بحيث يمكن ادخال دوائر كثيرة بين الدوائر المرسومة وذلك تبعاً للأوضاع الاجتماعية التي نلاحظها . وإذا كانت هذه الدوائر قابلة للتغيير فما ذلك إلا لأن الجماعات نفسها قابلة للتطور والتداخل . فمجموع هذه الدوائر إنما هو تابع متحول لمجموع الجماعات . وهكذا يجوز ادخال دائرة القرية بين دائرتي الأسرة والمدينة فنعتبر علم الاجتماع الريفي قسماً داخلياً يقع بين علم الاجتماع العائلي وعلم الاجتماع المدني .

البحث الثاني

علم الاجتماع الريفي : طرائقه ومفاهيمه

Rural sociolgy : Methods and concepts

علم الاجتماع الريفي هو علم وصفي وتحليلي للحياة الريفية بما فيهـــا من تأسيسات Institutions وجماعات Groups . هو فرع من علم الاجتماع العام كسائر الفروع الأخرى التي نذكر منهـــا علم الاجتماع الحضري (Urban sociolgy) . واذا قلنا انه فرع من علم الاجتماع العام فلا نقصد من ذلك أنه مجرد « تطبيقات اجتماعية » كتحسين الحياة الريفية وإصلاحها . ان علم الاجتماع الريفي Rural sociolgy « كعلم » هو دراسة المجتمع الريفي بالطرائق العلمية المتبعة في علم الاجتماع العام ، وهذه الدراسة شيء يختلف عن التطبيقات العملية التي تنتج عن علم مايدرس المجتمع الريفي ليفيده .

على أنه لايفهم من ذلك عدم اهتمام العالم الاجتماعي بتحسين الحياة الريفية ، بل يراد أن يكون عالم الاجتماع وضعيا حين يدرس المجتمع . فهو يبحث عن الحوادث الخاصة بالمجتمع الريفي ويسعى في ربطها بعلاقات علمية ويصف بأكبر

هذا البحث مستقى من الكتب التالية :

L . Nelson : Rural sociology , N . Y . 1948

S . C . Dodd : Social relation in the Middle East , Beirut, 1946

حسن سعفان : اسس علم الاجتماع . القاهرة ١٩٥٣

دقة ممكنة سلوك أهل الريف في محيطهم الريفي والعوامل التي تسبب هذا السلوك.

والعالم الاجتماعي كعضو في المجتمع، لابد وأن يهتم في الاصلاح الاجتماعي وفي التطبيقات التي قد تنتج عن تحرياته العلمية. لذلك ينبغي أن نشير الى ضرورة التقيد بالطريقة العلمية أثناء البحث العلمي، وبعد ذلك يتاح للعالم أن يمارس تأثيراته كمواطن حين يكون خارج الدائرة العلمية.

علاقته بالعلوم الاجتماعية الأخرى :

هنالك علوم اجتماعية أخرى يعرفها كل طالب. مثلاً علم الاقتصاد Economics الذي يدرس العلاقات الناتجة عن فاعلية الانسان حين يملك أملاكا أو يقدم خدمات ويبادلها أو يوزعها بشكل نقود. هناك أيضاً علم السياسة Poptical science الذي يدرس أشكال الحكومة ووظائفها. هناك أيضاً علم الانسان Anthropology الذي أثار انتباهنا أولاً إلى دراسة الانسان القديم ثم إلى دراسة الانسان الابتدائي المعاصر، هناك ايضاً التاريخ History الذي يدرس الماضي البشري ويصف الوقائع الاجتماعية ومشكلاتها. كل هذه المواضيع تبين جهود الفكر البشري في فهم « **العلاقات الاجتماعية** ». وكلها تدل على وجهات النظر المختلفة فيما تحويه قليلا أو كثيراً من دراسة المجتمع وبما تختص به من طرائق وتعابير علمية Terminology.

على الرغم من تقسيمات علم الاجتماع وتقسيم تقسيماته. فهنالك وحدة أساسية في موضوعه ووحدة متكاملة في طريقته ووجهة نظره. فالاخصائيون المختلفون في علم الاجتماع سواء الاقتصاديون أو علماء السياسة أو علماء النفس والاجتماع أو المؤرخون، لايقف أحدهم الا ازاء ناحية واحدة من هذه الوحدة التي هي « **الحادثة الاجتماعية** ». فتبادل النظر واشتراك الافكار يساعدنا شيئاً فشيئاً على شرح طبيعة الانسان وطبيعة المجتمع. لذلك كان على علم الاجتماع الريفي أن يقدم

إلى العلم العام دراسة جزء من هذه الوحدة .فهو بدراسته للمجتمع الريفي يمكن أن ينضم الى العلوم الاجتماعيـة الأخرى مستوحياً من الطريقة العامة طريقتـه الخاصة ومن التعابير المشتركة تعابيره الفرعية التي تساعد بقدر المستطاع على وصف المجتمع الريفي وفهمه .

العلم والطريقة العلمية :

يمكن اعتبار كل علم اعتبارين : أولاً كمجموعة من الحقائق اليقينية ، ثانياً كطريقة للدراسة . فالطريقة هي الصفة الجوهرية في العلم لأنها هي التي تحـدد قيمة النتائج ، واليقين انما يحصل اذا كانت سلسلة العمليات الفكرية من تحليل واستدلال يقودها ذكاء حاد مع شك منهجي لايقبل النتائج إلا بعـد تمحيص . مثل هذه العمليات لاتجري إلا إذا تمتع العالم بصفات وأوضاع خاصة. ينبغي مثلا ان يكون صبوراً دؤوباً على متاعب العمل وينبغي أن « **يجابه الواقع مباشرة** » ويتخلى عن أهوائه وغاياته الى غير ذلك من الفضائل العلمية التي يتحلى بها علماء الاجتماع ولا بد منهـا .

وفي علم الاجتماع الريفي إذا كانت القوانين ليست عامـــة كما هي في العلوم الفيزيائية وكانت وسائل الملاحظة والاحصاء غير كافية للتعميم الواسع ، فانه مـع ذلك يوجد مجال لبعض التعميم في السلوك البشري الذي يمكن ملاحظته بدقة . كما أن الاعتقاد بنظام الطبيعة يفسح المجال لجهود جميع العلماء في هذا الميدان .

الملاحظة الدقيقة كصفة جوهرية للعلم :

الملاحظة الدقيقة شرط أساسي لنمو العلم . وهي ذات علاقة بأعضاء الحس والادراك في الانسان . ولكن هذه الاعضاء لاترينا إلاالصفات الكيفية للحادثة. إذ نستطيع أن نقول هذا الشيء حار أو بارد ، وهذا الصوت حاد أو منخفض .

نستطيع أن نقول فقط إن هذا الشيء حار جداً أو بارد جداً ، فالحواس بحاجة إذن إلى دلائل قياسية . نقول إن الطاولة طويلة ولكن بفضل اليرد نقيسها بدقة ، وبفضل المقاييس تتقدم الملاحظة العلمية . والعلوم الاجتماعية إنما تقدمت حين أتيح لها القياس الكمي ، وقياس الذكاء في علم النفس مثال صالح عن هذا التقدم كما أن الاحصاءات الاجتماعية صبغت علم الاجتماع بصبغة كمية .

الوصف الكيفي كأداة علمية :

إذا كان الوصف الكمي قد سبب تقدماً في بعض الدراسات الاجتماعية ، فان الحياة الاجتماعية ماتزال في أكثر نواحيها غير قابلة للقياس ولعلها سوف تظل كذلك . إذ كيف نقيس شدة الايمان الديني وكيف نقيس التعلق العائلي بين أعضاء الاسرة أو العاطفة المحلية بين الجيران في قرية ما ؟ ان الملاحظة الكيفية لابد منها في علم الاجتماع وسوف تبقى أداة ضرورية على الرغم من عدم دقتها .

وطريقة هذه الملاحظة هي على الأغلب « **التحليل الكيفي** » . اذ الباحث يفحص سلوك القرويين أثناء الحرب مثلا ، أو يدرس تاريخ حياة الفرد بتحليل مذكراته وآثاره ، كما أنه يدرس تأسيسة ما بتتبع نموها منذ البدء حتى آخر مراحلها مستخدماً في ذلك المستندات التاريخية وأخبار الرواة ومنابع أخرى ، فالوصف الكيفي يلعب دوره هنا وكلا الوصفين الكيفي والكمي يكامل أحدهما الآخر .

المفاهيم والاصطلاحات كأدوات للتحليل :

المفاهيم الاجتماعية تأخذ معناها من الحادثة نفسها . وبعض أنواع السلوك الاجتماعي معبر عنه في بعض الألفاظ بحيث يكفي اللفظ على الدلالة التامة . مثلا نستعمل في علم الاجتماع كلمة « **جماعة أولية** » Primary group وجماعة ثانوية

Secondary group وتأسيسة Institution وترعرع اجتماعي Social process وصراع Conflict وتكيف Accomodation وتمثل Assimilation وغير ذلك . فاذا درس أحدنا جماعة ما ، يتاح له أن يقول فيما إذا كانت أولية أو ثانوية ، أو فيما إذا كان ثمت صراع وما هي طبيعته وشدته أو فيما إذا كان ثمت علاقات بين الجماعة وأخرى وكيف يترعرع تكيفها أو تمثلها .

فهذه الاصطلاحات تصبح لغة علمية بين الباحثين وبفضلها يسهل التفاهم المشترك وانتقال الأفكار . وهكذا بعد أن يتفق الباحثون على تعريف الجماعة الأولية فلن يحتاج أحدهم إلى وصفها في كل مرة وتحليل سلوك أفرادها للتعبير عما يقصد ، كما أنه يطمئن على أن الذين يطالعون تحرياته يفهمون الاصطلاح . مع ذلك ينبغي أن لا يغرب عن الذهن أن علما حديثا كعلم الاجتماع لا يخلو من اصطلاحات قد لا تجمع الآراء على فهمها بمعنى واحد فضلا عن أن كثيراً منها مأخوذ في الأصل من اللغة المستعملة لدى العامة ، فكلمة حضارة أو ثقافة Culture يستعملها علماء الاجتماع ولكن بمعنى يختلف عن مدلولها لدى رجل الشارع .

بعض المفاهيم العلمية :

من قبيل الأمثلة الاولى عن الاصطلاحات الاجتماعية سوف نعنى بتحديد بعضها ككلمة مجتمع Society وثقافة Culture وحضارة Civilization وريفي Rural ومدني Urban . ومع ان المفاهيم تختلف باختلاف المدارس نظريا فنحن واجدون اتفاقاً تزداد نسبته أثناء الاستعمال عملياً . على ان الطالب في هذا العلم الحديث ينبغي ان لا يستغرب وجود الاختلافات حول المعاني الدقيقة . فعلم الاجتماع لا يزال ناشئاً غير ناضج إذا قارناه بالعلوم الناضجة كالفيزياء والفلك والبيولوجيا .

١ ـ مامعنى مجتمع Society ؟ يدل هذا اللفظ على جماعة من الناس ذات تفاعل متبادل ، وبدون التفاعل المذكور لايكون ثمت مجتمع . ولهـــذا اللفظ معنى واسع يدل على المجموع البشري لذلك ينبغي ان نعلم حين نستعمله هـل في معناه الواسع أم في معناه الضيق .

٢ ـ معنى الثقافة Culture : قد نجد هذا اللفظ لدى علماء الاجتماع مرادفاً لمعنى مجتمع . وقد استعمله علماء الانتروبولوجيا بمدلوله الواسع في كلا الناحيتـين المادية والروحية . أما العالم Wallis (١) فقد عرّف الثقافة بقوله : « **الاشياء الاصطناعية والتأسيسات ونمط الحيـــاة والتفكير التي لا تخص فرداً بل التي تميز جماعة ما** » . وكلمة ثقافة أو حضارة ككلمة مجتمع لها استعمالان واسع وضيق . غير أن الميل يتجه على الاكثر نحو الاستعمال الضيق فيقال ثقافة القوم الفلاني وثقافة المنطقة الفلانية . وقد كثر هذا الاستعمال في السنين الاخـيرة في كتب علم الاجتماع . فاذن من السهـــل تمييز كلمتي (**مجتمع**) و (**ثقافة**) إذا استعملناهما بالمعنى الضيق . وإذا قلنا المجتمع الريفي والثقافة الريفية فنقصد بالأول جماعة خاصة من أهل الريف وبالثانية ثقافة أهل الريف التي تميزهم عن سواهم .

ويمكن تعريف الثقافة أيضاً بقولنا إنها الاسلوب المعيشي والفكري الذي تسير على نمطه جماعة من الجماعات . ويرتب Wissler(٢) العناصر التي تتألف منها الثقافة على النحو التالي . **أولا** : اللغة وتشمل طريقة التخاطب والاشارات والرموز التي تستخدم في نقل الافكار والأعمـــال من شخص إلى آخر . **ثانياً** : العنـاصر المادية وتشتمل على العادات في المـأكل والمشرب وطرائق النقل والادوات والملابس والأسلحة وأنواع المهن . **ثالثاً** : الفن ويشمل

---

(1) Wallis : Culture and Progress , p . 9 .

(2) Wissler : Man and Culture in America , N . Y . 1922

الرسم والنقش والنحت والموسيقا وغيرها . **رابعاً** : الخرافات والاساطير والمعارف العلمية . **خامساً** : الطقوس الدينية وتشمل أشكال التدين والعبادة ومعالجة المرض وطقوس الموتى . **سادساً** : الأسرة والتأسيسات الاجتماعية وتشمل أشكال الزواج وطرق تعيين ذوي القربى والميراث واتجاه الآداب الاجتماعية والألعاب والتسلية وغيرها .

فلكل جماعة إذن ثقافة معينة ، والتفرقة التي نجدها في اللغة العادية بين شعوب مثقفة Kulturvolker وشعوب غير مثقفة Naturvolker ليست إلا تفرقة معيارية ، بعيدة كل البعد عن المجال العلمي والتعبيرات العلمية الصحيحة ولا فرق إجمالا بين الثقافة والحضارة Civilization غير أن بعض علماء الاجتماع يقصرون كلمة ثقافة على مايسود المجتمع من آراء ومعتقدات ، وكلمة حضارة على مايسوده من تطور مادي في مجال الصناعة والتجارة والزراعة . ونخص بالذكر من هؤلاء A . Weber و Keyserling في ألمانيا . وبعضهم يطلق لفظة ثقافة على كل مايتصل بالناحيتين الفكرية والمادية على حين أن الحضارة في نظرهم تقتصر فقط على الناحية المادية وبتعبير آخر ان الثقافة أوسع من الحضارة لأنها تشملها فكل حضارة هي ثقافة إذن . ونخص بالذكر من هؤلاء Odum و Mac Iver ان هذه التفرقة لاتقوم على اساس متين لأن ثمت تبادلاً مشتركا بين العناصر المادية والعناصر الروحية التي تسود جماعة من الجماعات ، فطرق المعيشة ووسائل الانتقال والنظم الاقتصادية ... تتأثر عادة بما يسود الجماعة من آراء ومعتقدات ، وهذه بدورها تتأثر بما يحدث من تطور في العناصر المادية السائدة . يضاف إلى ذلك أن ثمت تشاركا وتضامناً بين مختلف هذه العناصر ، مما يصعب معه احياناً التفرقة بين ماهو روحي وما هو مادي . فالثقافة والحضارة إذن مرادفان علميان .

٣ ـ الجمع والجماعة Aggregate , Group : أنى وجد الانسان فانه يعيش

في « جمع » منظم من بني جنسه . فلم يعثر علماء الانسان في بحثهم عن رجل عاش وحده . غير أن الجمع Aggregate الذي يعيش فيه الانسان قد يكون كبيراً أو صغيراً ، فقد يكون أسرة وقد يكون أمة بأسرها ، وقد يشغل الجمع مساحة كبيرة من الأرض وقد يشغل حيزاً ضئيلا . كما أنه يتخذ أشكالاً مختلفة ، فركاب سيارة ما ، وطلبة الكلية ، والأسرة والمتجمهرون حول حادث ، والجيش وأمة كالأمة العربية ... كل هذه تكون جموعا ، مما يدعونا الى تحليل بعضها وتعريفه .

فالجماعه Group في اصطلاح علماء الاجتماع هي جمع من الناس بين أفراده تفاعل وتأثير مشترك ، ويقوم هؤلاء الأفراد بأعمال مشتركة منظمة ، للوصول الى أهداف خاصة ، بوسائل محدودة . فالجماعة مثلا تختلف عن الجمهرة Crowd وهي جمع من الناس تجمعوا حول حادث مثلا أو في مظاهرة أو بعد الخروج من مسرح وتمتاز الجمهرة عن الجماعة بأن الاتصال « الشخصي » بين أفرادها أتم وأكمل منه في حالة الجماعة التي قد لا يوجد بينها وبين أفرادها الا اتصال روحي ومعنوي . ثم ان هذا الاتصال الشخصي يزيد من قوة تأثير الجمهرة على أفرادها ولكن الجمهرة أيضاً تتسم بأنها موقتة ، والتفاعل بين أفرادها موقت وليست له صفة الاستمرار الموجود بين أفراد الجماعة .

والجماعة تتميز عن الفئة الاجتماعية Social category . والفئة الاجتماعية هي جمع من الناس يمتاز أفراده بصفة معينة ، تجعل الباحث ينظر اليهم نظرة خاصة وهذه الصفة تؤدي إلى تفرقة هذا الجمع عن غيره من الجموع الأخرى التي يعيش وسطها . فالمرضى المصدورون مثلاً ، وأرباب المعاشات المتقاعدون والأيتام والارامل . . . كل هؤلاء يمثلون فئات اجتماعية . والفئة بهذا الوصف تختلف عن الجماعة في أنه لا يوجد بين أفرادها التفاعل ، والتأثير المشترك الذي يوجد بين أفراد الجماعة .

ولكن ما الفرق بين الجماعة والمجتمع والمجموعة Community ؟ هنا نجد اضطراباً في استخدام التعبيرات ، فكثير من المؤلفين الامريكيين والفرنسيين يستخدمون Group و Society و Community ، في معنى واحد ، وبعضهم يفرق بين هذه التعبيرات تفرقة مشوشة ، مبلبلة . ولكن كلمة (**مجتمع**) تطلق غالباً (**كالجماعة**) على جمع من الناس ، يتفاعل أفراده ويتعاونون على تحقيق أهداف خاصة ، بوسائل محدودة . ويلاحظ الى جانب ذلك — وهذا ما يفرق المجتمع عن الجماعة — أن المجتمع يشمل أكبر عدد من الأفراد في بقعة معينة ، لهم نمط ثقافي معين Cultural pattern ، ويتصرفون وفق شبكة من النظم التي يخضعون لها ، للوصول الى حل مشاكل حيوية بالنسبة لهم ولاستمرار بقائهم .

أما المجموعة Community فهي تستخدم كمرادفة للمجتمع ، وخاصة للمجتمع المحلي كقرية معينة أو مدينة وأحياناً تطلق على أمة أو طائفة معينة أو اقليم . واجمالاً هي « **جماعة من الناس يعيشون متجاورين في منطقة جغرافية ولهم مراكز مشتركة لنشاطهم ومصالحهم ، ويعملون معاً في انجاز المشروعات الضرورية لحياتهم** » . على أن علماء الاجتماع يفرقون بين Community و Communality التي تختلف عن الاولى في « **ان الاشخاص الذين تتألف منهم الجماعة ليسوا متجاورين جغرافياً** » فليس هناك جوار جغرافي Neighbourhood . لذلك يجوز تسمية الاولى (**مجموعة جغرافية أو مكانية**) والثانية (**مجموعة معنوية**) لأن العامل النفسي هو الرباط الاساسي . ومن أمثلة المجموعة المعنوية بعض الجماعات المتخلخلة التي تعيش في الصحراء أو في المراعي ، وكذلك المجموعة الدينية كمجموعة طائفة معينة مبعثرة في أنحاء الأرض . فهؤلاء ليسوا متجاورين جغرافياً ولكن يربطهم رباط واحد ومصالح مشتركة إذ أنهم يدينون بفلسفة دينية واحدة ولهم اعتقاد واحد .

ومن الامثلة المشهورة عن المجموعة Community المجموعة الريفية Rural C. والمجموعة المدنية Urban C. ولكل منهاخواص معينة ، كما تسودها روح خاصة ، ويختص بدراستها فرعان خاصان هما علم الاجتماع الريفي أو المدري وعلم الاجتماع المدني أو الحضري . فالمجموعة الريفية تختلف عن المدينة مثلاً من ناحية البنية أي المساكن ونظام السكنى ونسب المواليد والوفيات والحالة الصحية بوجه عام والناحية الثقافية والاقتصادية ، بل وتختلف في النواحي النفسية والأخلاقية إذ للريفيين روح تختلف عن المدنيين ، وتختلف مشاكل المدينة عن مشاكل القرية اختلافاً بينا .

لاشك قد يصعب تحديد معنى الريفي حين نتساءل أين ينتهي الريفي ليبدأ الحضري . هل هناك حدود فاصلة واضحة بين الريفي والمدني ؟ هل تشمل المجموعة الريفية أناساً غير الفلاحين وهل المزارعون كلهم ريفيون ؟ هذه أسئلة لا يجاب عليها قبل أن ندرس في بحث قادم « **خصائص الحياة الريفية** » . مع ذلك يمكن الاشارة الى بعض الصفات الهامة إذا لاحظنا في المجموعة الريفية أن كل فرد يعرف الآخرين ونسبة هذه المعرفة تنقص كلما انتقلنا من الريفي الى الحضري . وقد أراد بعض الباحثين في أمريكا أن يحدد الصفة الريفية بصفات كمية مثلاً بـ (٢٫٥٠٠) نسمة وآخرون بـ (١٠٫٠٠٠) نسمة . ان هذا التحديد لا يتصف بالجبرية لأن بعض المجموعات التي أقل من هذا العدد أو ذاك قد تتصف بصفات حضرية كالقرى الواقعة في مراكز المواصلات أو المصايف المشهورة . كما أن بعض المجموعات التي أكثر من هذا العدد قد تبقى ريفية رغم كثرة سكانها . فهناك صفات أخرى جديرة بالاعتبار وان كانت غير كمية ، وتضاف عادة الى هذه الصفة الكمية كالتفات الأهالي بعضهم الى بعض ومتانة الارتباط والاشتراك العاطفي واكثرية الفلاحين وبساطة العيش الطبيعي كالاكتفاء بصيد السمك

(في بعض السواحل النائية) أو محاصيل الغابة (في بعض المناطق المنعزلة) مما سوف ندرسه في بحوث قادمة .

وان كانت الارقام في مثل هذه الدراسة لها فائدة فما ذلك الا على سبيل التصور الكمي وبفضله يتاح لنا تمثيل المجموعات تمثيلاً نسبياً في الجدول الآتي :

١ ــ مجموعة بيتية Household (مثل عائلة منفردة في مزرعة) = ١٠ نسمة = $١٠^{١}$

٢ ــ مجموعة متنقلة Nomadic (مثل مخيم بدوي) = ١٠٠ = $١٠^{٢}$

٣ ــ مجموعة ريفية Rural (مثل قرية) = ١٠٠٠ = $١٠^{٣}$

٤ ــ بلدة صغيرة Town = ١٠٫٠٠٠ = $١٠^{٤}$

٥ ــ مدينة عادية City = ١٠٠٫٠٠٠ = $١٠^{٥}$

٦ ــ متروبوليس Metropolise = ١٠٠٠٫٠٠٠ = $١٠^{٦}$

٧ ــ دولة صغيرة Small,2d class Power = ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ = $١٠^{٧}$

٨ ــ دولة كبيرة Large 1st class Power = ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ = $١٠^{٨}$

٩ ــ قارة Continental (كآسيا) = ١٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ = $١٠^{٩}$

١٠ ــ العالم World (القارات كلها) = ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ = $١٠^{١٠}$

ان هذا التصنيف يحوي أرقاماً صحيحة خالية من الكسور وذلك تسهيلا لحفظها وتصورها . ومن السهل أن نلاحظ أن الحد الادني لكل مجموعة يمكن أن يضرب بـ (٢٫٥) فيصبح البيت مؤلفاً من فردين والعالم مؤلفاً من بليونين . وهو ما يقارب الوضع الحاضر . على أن الاوضاع المثالية التي نتصورها بدون حروب وبدون كوارث يمكن أن تحقق هذه الارقام كحدود طبيعية وسطى .

وإذا أتيح للبشرية التفاهم التام فيمكن حينئذ أن نضرب هذه الأرقام بـ (٢) كحد أعلى لكل مجموعة ولا يمكن ذلك الا إذا تعاونت المجموعات البشرية على استثمار الكرة الارضية استثماراً كلياً في سبيل تهيئة الرزق للجميع . ان هـذا التصنيف وان كان خيالياً فهو يرتكز على مبادىء منطقية : **أولاً** : مبدأ التزايد الكمي . **ثانياً** : مبدأ التعقيد الكيفي . ونقصد بالتعقيد الكيفي أن كل مجموعـة تتصف بتأسيسات خاصة ثم ان المجموعة اللاحقة تزيد على المجموعة السابقة بتأسيسات جديدة قد لا توجد في السابقة .

تصنيف الجماعات Groups

كثرت التصانيف في البحوث الاجتماعية ولكل عالم تصنيف خاص نكتفي بذكر ما يهمنا منها :

١ — جماعة أولية Primary وجماعة ثانوية Secondary : في الاولى يتأثر الافراد بعضهم ببعض شخصياً ووجهاً لوجه كالاسرة والفرقة الرياضية . أما في الثانية فالتأثير لا يكون وجهاً لوجه بل هو غير مبـاشر وغير شخصي ، ومن ثم فهو ضعيف نسبياً . وهذا التقسيم هام وان كان بعض العلماء لا يعتبرونه ذا أهمية بسبب أن التأثير الذي يحدث وجهاً لوجه في الاسرة يبدو أحياناً أقل قوة من التأثير غير المباشر . فالتأثير الذي يحدث مثلا بين أعضاء طبقة اجتماعية كنقابـة عمال أو أعضاء شركة مساهمة ، أو أعضاء اتحـاد أصحاب العمل أعظم بكثير من ذلك التأثير الذي يحدث بين أفراد أسرة أوعشيرة أو قبيلة واحدة . ومع ذلك فان لهذا التقسيم أهميته ، ذلك لأن التأثير غير المباشر يفوق المباشر فقط في المجتمعات المزدحمة والمعقدة التي وصلت فيها الثقافة والتأسيسات الى درجات معينة من التطور . أما في المجتمعات غير المزدحمة والعادية فالتقسيم صحيح وله أهمية من حيث اعتبار القرية

جماعة أولية .

٢ ــ جماعة طوعية Voluntary وجماعة تلقائية غير طوعية Involontary فالاولى تمثل جماعات كرة القدم مثلا والنوادي والهيئات العلمية حيث ينتمي اليها برغبته وارادته . والثانية تمثل الاسرة والقرية التي يولد فيها الفرد ، والطبقة المهنية Caste التي ينتمي اليها الانسان (في بعض المجتمعات) بحكم مولده . ونجد في كل مجتمع جماعات طوعية كالهيئات الخيريه أو السياسية أو الاقتصادية أو جماعات الأخوة والصداقة . لذلك يبدو هذا التقسيم هاماً ولا سيما إذا عرفنا أن هذه الجماعات الطوعية تلعب دورها في الحياة السياسية والاقتصادية وخصوصاً في المجتمع الصناعي الحديث ، حتى أن بعض الأمم الصناعية الكبرى قد أطلق عليها اسم « أمة الواصلين » Joiner أي الذين يصلون ما بين بعضهم بعضا . وتبدو أهمية هذا التقسيم أيضاً إذا درسنا ما لهذه الجماعات الطوعية من أثر في ظاهرة التمدين Urbanism أي تمصير القرى وتطوير الحياة الريفية نحو الحياة المدنية .

٣ ــ تنقسم الجماعات من حيث موقفها بعضها من بعض ومن المجتمع اجمالاً :

فهناك جماعات ذات نزعة اجتماعية Pro-social وهناك جماعات ضد النزعة الاجتماعية Anti-social تماماً ، كما أن هناك جماعات تميل أو تدّعي النزعة الاجتماعية Pseudo-social وأخيراً هناك جماعات لا من هؤلاء ولا من هؤلاء فهي غير اجتماعية Unsocial . فالجماعات ذات النزعة الاجتماعية هي تلك التي تشترك في بناء المجتمع وتعمل على رفاهيته وموقفها دائماً ايجابي انشائي .والجماعات ضد النزعة الاجتماعية هي التي تعمل ضد راحة المجتمع كجماعة اللصوص ومحترفي النشل والقتل . أما التي تدعي النزعة الاجتماعية فهي تشترك مع المجتمع فقط لكي تستفيد من هذه المشاركة واكثرها يكون عالة على المجتمع أو متطفلة على غيرها

من الجماعات الاخرى . وأخيراً الجماعات غـــير الاجتماعية هي التي تعيش منفصلة كالنوادي الخاصة أو منعزلة وحيدة كالقرى النائية أو الواحات . وتبدو أهميـة هذا التقسيم في دراسة الاعداد الاجتماعي Socialization إذ يقاس تأصل هذه العملية بقدر ما تشترك الجماعات المختلفة في بناء المجتمع بنصيب ايجابي وبقدر مـا تتعاون الجماعات المختلفة على تطويره .

٤ — تنقسم الجماعات كما درسها دور كهايم الى جماعات بسيطة Simples وجماعات مركبة Composées : فالاولى هي التي لا يمكن لاحداها أن تنقسم الى أجزاء أقل منها ولا يلاحظ فيها علامات تدل على أنها مركبة . فالمدينة مثلاهي جماعة مركبة لأنها قبل وصولها الى شكلها النهائي كانت عبارة عن عدة قرى وكفور ضمت الى بعضها بعضا . والقرى والكفور هي أيضاً جماعات مركبة لأنها في الأصل كانت عبارة عن عدة قبائل تجمع بعضها مع بعض . ونحن إذا بحثنا في تاريخ المجتمع لا نجد تلك الجماعة البسيطة التي لا تنقسم الى أبسط منهـا ، ولكن دور كهايم أطلق على هذه الجماعة الوهمية اسم الـ Horde أو المعشر وهو بمثابة النقطة الهندسية في علم الهندسة إذ لا وجود لها عملياً ولكنها مع ذلك لازمـــة الافتراض لتسهيل البحث العلمي . فهذا المعشر Horde لازم الافتراض لكي يكون نقطة بدء ، لانشاء سلم اجتماعي تتدرج فيه الجماعات من بسيطة الى معقدة الى أكثر تعقيداً . على أن علماء آخرين أمثال Mauss أثبتوا وجود مثل هـذه الجماعة في بعض فصول السنة عند الاسكيمو وخصوصاً في ألسكا وغرنيلاند بل أثبتوا أيضاً وجودها في مناطق متعددة . وهكذا فالمجتمع المركب يتدرج من المعشر Horde إلى العشيرة Clan ثم إلى ما هو أعقد Phratrie ثم إلى ما هو أعقد من ذلك كالقبيلة والقرية والمدينة .

البحث الثالث

خصائص الحياة الريفية اجمالا

يسهل البحث في الصفات المميزة للحياة الريفية إذا قارناها مع صفات الحياة المدنية . وتبدو بعض الصفات واضحة لكل إنسان . فثقافة أهل المدن تختلف عن ثقافة أهل الريف . والمدن أكبر إجمالاً من القرى وأكثر تعقيداً في البنية بينما القرى هي أصغر وأبسط بنياناً . أما العلاقات الشخصية في المدن فضعيفة بينما هي أقوى في القرى حيث يلتفت الناس بعضهم إلى بعض ويفتح كل صدره للآخر باهتمام .

هذا وقبل ذكر المفارقات لا بد أن نعترف بالمشابهات وهي كثيرة أيضاً في كل أمة وكل دولة. فالدين مثلاً في أمة معينة قد يكون واحداً في المدينة والقرية وإن يكن أهل القرى أكثر تديناً في الدين نفسه. وقد ينقسم الدين إلى طوائف معينة ولكن الطوائف تبقى موزعة في المدن والقرى وكذلك الاحزاب السياسية . ومن حيث النظم الحقوقية بالنسبة للدولة المعاصرة فالمدينة والقرية تجاه القانون سواء . ومن الناحية العلمية نجد العلماء ينبتون في القرى كما ينبتون

هذا البحث مستقى من الكتاب التالي :

Lowry Nelson : Rural sociology, N.Y. 1948

مع اضافة أمثلة محلية من الواقع الشرقي .

في المدن ولا سيما إذا كان النظام الديموقراطي سائداً . وفي هذه الحال يضطر العلماء الكبار إلى ترك القرى لممارسة عملهم في جامعات المدن أو دوائرها الكبرى ولكن هذا لا يمنعهم من بقاء الاتصال في بلدتهم الصغرى المحبوبة على الأقل عاطفياً . وهناك نوع من الاخلاق الوطنية يشترك فيها أيضاً أهل القرى والمدن على السواء كما أن ثمت أخلاقاً قومية كالكرم عندالعرب والتمسك ببعض العادات القديمة يشترك فيها الأهلان وإن تكن نسبة التمسك في المدينة أقل في بعض الاحايين ، وذلك لأسباب اقتصادية. فالكرم مثلاً يبقى في القرى أكثر انتشاراً لسهولة تطبيقه (كما في القرى الناعمة) أو لضرورة تطبيقه (كما في القرى النائية). وبجملة واحدة نقول إن كثيراً من التأسيسات الاجتماعية كالدين والسياسة والتشريع والتربية والاخلاق تشترك فيها القرية والمدينة . فما هي إذن المفارقات بين كلتيهما ؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغي تعداد العوامل الكثيرة التي فرقت بين المجتمعين . وإذا عدنا إلى العامل التاريخي نجد أن أصل المجتمعين واحد . فالطريق الاولى التي سلكها كل من القرية والمدينة هي واحدة ولكن الانحراف حصل بعد مسافة معينة حيث ظهرت المدينة متجهة نحو جهة والقرية نحو أخرى. وبتعبير آخر إن المدينة أصلها قرية ولكنها تطورت بعد مرحلة ما من نموها تطوراً أسرع وأكبر من تطور القرية بينما بقيت القرية محتفظة ببعض خصائصها مع تطور بسيط من نوع آخر ومن طبيعة أخرى . وإذا شبهنا تيار الحياة الريفية في نهر يجري من أعالي الجبال فنقول إن مياه هذا النهر يتغير لونها حين يجتاز مسافة معينة ويدخل في أراضي معينة حيث ترفده فروع جديدة بمياه أخرى .

في البدء كان كل شيء ريفياً وقد بقيت أمريكا الشمالية حتى عام ١٩٠٠ ريفية تقريباً . وبعد هذا التاريخ تغير لون الحياة تغيراً محسوساً . والشرق الأدنى يمر في المرحلة نفسها التي مرت بها أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر

فهذه دمشق تتسع إتساعاً سريعاً وتنقلب الى مدينة صناعية في جهتها الشرقية ، وربما في المستقبل في جهات أخرى . وهذه حلب تتسابق مع دمشق والمستقبل لحمص وادلب واللاذقية . وما أدرانا لعل دير الزور بعد عشرين سنة تصبح مركزاً للزراعة الواسعة المنظمة فتكون سبباً للصناعة الزراعية الكبرى بعد ربع قرن !

وإذا رجعنا إلى تاريخ انكلترا نري الثورة الصناعية قد غيرت وجه المدن والقرى معاً . فاختراع الآلة البخارية (عام ١٧٦٦) وظهور الصناعة الميكانيكية (عام ١٧٨٧) أحدثا توسعاً في المدينة وبالمقابل ضموراً في القرية . وقد نزح العمال نحو المدينة من القرى وشكلوا طبقة اجتماعية وتوسعت المدينة من أجل استيعابهم ونشأ عن هذا التوسع قوانين جديدة احتاج اليها أهل المدن دون أن يلمس ضرورتها أهل القرى . فالتغير في الثقافة إنما هو جواب للحاجات الجديدة التي تنشأ من تغير طبيعة الجماعة . وبقيت القرية ذات سعة ورفاهية بينما ضاقت المدن بسكانها وصارت كل مدينة تخترق المسافات يميناً وشمالاً في سبيل البناء . وكم شجرة خضراء كانت نضرة فنبت مكانها البناء بلونه الرمادي الاصطناعي ثم تراكم بعضه فوق بعض متزايداً ليحوي أكبر كثافة من السكان يخرجون صباحاً إلى معاملهم زرافات وجماعات فتضيق بهم وسائل النقل ويكثر الحشد والزحام وينتج عن ذلك ما ينتج من مسائل ومشاكل .

ولكي نعلم أي ميزة بقيت للريف علينا أن ندرس ظاهرتين فيه : العمل ثم كثافة السكان . أما العمل فهو الزراعة قبل كل شيء أما كثافة السكان فهي إلى القلة أقرب ما دامت القرية تحتفظ بالصفات الريفية وإلا فزيادة السكان مقرونة بالتطور نحو الحياة المدنية .

العمل الزراعي

مهما تعددت أنواع العمل في الريف ، فالزراعة تبقى هي المهنة السائدة التي تحبو الريف صفاته الاساسية . والزراعة إنما هي العملية التي تتضمن مبدئياً انبات النبات في سبيل استهلاكه من قبل الانسان كغذاء أو استخدام أليافه كثياب ، وبالمعنى الواسع تتضمن أيضاً اكثار نسل الحيوان للاستفادة من لحمه ولبنه طعاماً وصوفه وجلده كساء . وإذا اعتبرنا في الشرق الادني العربي ٧٠ ٪ من الناس يعيشون حياة ريفية فـ ٦٠ ٪ منهم يزرعون ويتعاطون الفلاحة بمعناها الواسع أي استثمار الارض مع استثمار الحيوان، و ١٠ ٪ بدو رحل يستثمرون الحيوان فقط.

محيط الفلاح أثناء عمله :

يعمل الفلاح في الهواء الطلق خلافاً للعاملين في المدن الذين يشتغلون في جو محصور بعيد عن الشروط الطبيعية . والفلاح مع أسرته الريفية يعيشون في حلقة مغلقة Close association ولكنها وثيقة الصلة بالارض التي يعيشون من محصولها والكائنات الحية التي يستفيدون من نتاجها . ومع أن الفلاح يمارس حياة قاسية في شغله اليومي جسمياً فانه بالمقابل يتمتع بميزة العمل الزراعي فيتعرض إلى أشعة الشمس ويستنشق الهواء النقي ويحتفظ بنسبة كافية من الصحة الجيدة . وبرنامج العمل الزراعي إنما يتحدد سنوياً بتتابع فصول السنة . ففي فصل من الفصول (أواخر الخريف مثلاً) يعنى الفلاح بحراثة الارض وبذر البذور أو تطعيم الشجر ، وفي فصل آخر (أواخر الشتاء وأثناء الربيع) يعنى في صغار الحيوان الذي يتناسل أو بيوضه للحصول على أفراخه ، كما يعنى بادخار منتوج الحليب من جبن ولبن مجفف . وفي فصل آخر (أواخر الربيع وأثناء الصيف)

يعنى بالحصاد وادخار البذور من الحبوب للعام القادم كما أنه يجفف الفواكه والخضار أو يعصرها ليصنع من عصيرها معجوناً قابلاً للحفظ طوال العام. ولعل أهم موسم يجلب الانتباه في سورية والشرق الادنى إنما هو موسم الحصاد الذي يستنفد في وقت قصير أكبر مجهود من الأسرة الريفية . فترى الفلاح وامرأته وجميع الاولاد ذكوراً وأناثاً يساهمون معاً في هذه العملية التي ينبغي أن تنتهي في وقت قصير محدود . فلا عجب إذا ترك أولاد المدرسة دراستهم أثناء هذا الموسم لمؤازرة آبائهم أو أسيادهم ، بل ينبغي أن يحوي برنامج المدرسة الريفية عطلة رسمية في هذا الموسم خلافاً لبرنامج المدرسة المدنية . وإذا كان هم الفلاح الشرقي يرتكز حول الحصول على الحبوب التي تؤلف الشيء الاساسي من غذائه فان الفلاح الاوربي ـ الامريكي يعنى بناحية أخرى يعتبرها مساوية للأولى في الاهمية (إن لم تكن أكثر أهمية منها) وهي المثابرة يومياً على نظافة الحيوان وتربيته على أحسن الطرق التي تكفل الانتاج الصحي ، فجهاد الفلاح الشرقي يمكن أن يوصف بأنه دوري أو موسمي Periodical بينما جهاد الفلاح الاوربي ـ الامريكي إنما هو جهاد يومي Quotidian .

معرفة الفلاح ومهارته :

كثيراً ما نزهد بثقافة الفلاح ومكتسباته الفكرية إذا اكتفينا بالنظرة السطحية ، مع أن التحليل الكافي ينبغي أن يغير هذه النظرة في الفلاح لنعتبره متمتعاً بمعلومات يجهلها أهل المدن . فلكل فئة من المجتمع ثقافتها الخاصة والفلاح المجرب يمتاز بثقافة لها قيمتها .

١ — فهو أولاً يفهم خصائص أرضه . وكثيراً ما برهن تجاه الاختصاصيين في الايام الاخيرة أنه يفهم أموراً علمية لا يفهمها الفنيون إلا بشكل نظري أبتر .

فالأرض الواحدة تختلف خصوبتها من مسافة قصيرة إلى أخرى ، ومقدار السماد ينبغي أن لا يكون خاضعاً لقاعدة مطلقة كما تذكرها الجداول الرياضية . هذه أمور يعرفها الفلاح بعد حراثة الارض مدة طويلة منذ طفولته حتى شيخوخته كل عام . فكأنه يعرف طباع الارض كما يعرف طباع حيواناته . وإذا زرعها في عام ما نوعاً معيناً من المزروعات فهو يعرف أي نوع آخر تصلح زراعته بعد النوع الاول . وإذا درس في المدرسة بعض المعلومات الفيزيكيائية والجيولوجية فهو يستفيد منها استفادة صحيحة إذا ترك لنفسه مجال اتمام المعلومات بالتجربة الشخصية أو الخبرة الجماعية . وهذه الخبرة نلمس آثارها في الامثال العامية التي يذكرها الفلاحون في مناسبات عديدة سواء في تعاقب فصول السنة أو في تعاقب مراحل العمل الزراعي .

٢ — والفلاح ثانياً يفهم خصائص الطبيعة . فأنواع الرياح من حيث شدتها واتجاهها وأنواع الامطار من حيث غزارتها وميعادها ، وآثار الشمس والقمر والليل والنهار كل ذلك معلوم لديه من حيث تأثيره على النبات والحيوان والانسان وبشكل أدق في إقليمه الخاص ومنطقته التي يعيش فيها .

٣ — والفلاح ثالثاً يفهم طباع الحيوان . فقد يحدثك عن الحصان فتشعر بأنه عالم نفساني بطباع الخيل ، ويحدثك بمثل ذلك عن البقر والجمل والخروف والدجاج . لا شك أن الفلاح العربي المعاصر تنقصه معلومات كثيرة عن أنواع الحيوانات الموجودة في أوربا وأمريكا غير أن اطلاعه عليها مدة قليلة يكفي لاتمام معلوماته . وقد بدأ بعض المزارعين الاغنياء يجلبون أنواعاً جديدة من البقر والدجاج فتعلم فلاحوهم بسرعة كيفية استثمارها . ولهذه الغاية توجد الآن جمعيات أجنبية مثلاً (جمعية أمريكية في قرية النشابية) غايتها تعليم الفلاحين الاصول الحديثة لتربية الدجاج والحيوانات اللبونة ، وقد نجحت عملياً وهي في

طريق النجاح أيضاً . وسوف تكثر أمثال هذه الجمعيات في المستقبل القريب فيصبح بعضها أهلياً أو محلياً وبعضها حكومياً أو جامعياً قوامه المثقفون من الفلاحين .

٤ — والفلاح رابعاً يعرف أمراض النبات والحيوان . لا شك أن الفلاح الشرقي قد لا يعلل تماماً أسباب المرض لأنه لا يزال بعيداً عن المرحلة الوضعية Positive في تفكيره ، ولكنه مع ذلك من الناحيه العملية يتقن بعض العلاجات الطبية الطبيعية . وسوف يستفيد من العلوم المعاصرة حين تنتشر المدارس الزراعية والمؤسسات الريفية . ويمتاز الفلاح في أوربا وأمريكا بأنه طبيب ماهر ، نباتي من جهة وبيطري من جهة أخرى . وقد أصبح لديه استخدام الابرة والتلقيح شيئاً مألوفاً يعالج فيه كل يوم دجاجه وخرافه وثيرانه .

٥ — والفلاح خامساً يعرف بعض الآلات الزراعية . فان كان عربياً يستخدم المحراث والمنجل ويجري تصليح الادوات المعدنية من لحم بالنار أو تجليخ بالفولاذ . وإن كان غربياً فهو رجل ميكانيكي تمتد ثقافته إلى إصلاح المحركات الصغيرة والاحتفاظ بها أكبر مدة ممكنه . كما أنه يدرك حوادث التيار الكهربائي والقدرة الكهربائية فيستثمرها على أحسن وجه .

٦ — وأخيراً يعرف الفلاح إدارة المسكن والعائلة . فهو رجل اقتصادي ، يدخر ما ينبغي ادخاره ويصرف ما يجوز صرفه . وإذا قدرنا مجموع الوارد السنوي لفلاح متوسط بالليرات السورية أو الدولارات فاننا نرى أن المجموع أقل من الوارد السنوي لموظف متوسط في المدينة ، مع ذلك نجد الفلاح أكثر اطمئناناً في حياته السنوية وأبعد عن القلق بالنسبة لأهل المدن. أولاً لأن مستوى المعيشة في القرية أدنى منه في المدينة وأرخص نفقة مع كون الحاجات أقل عدداً. ثانياً لأن الفلاح يختص بنوع من التربية العاطفية ينقلها إلى أولاده فيوفر عليهم

كثيراً من الاحزان ، ورغم أنهم يصبحون مسؤولين (فقد يتزوجون باكراً وينجبون أولاداً) مع ذلك يبقون بفضل إدارته وإشرافه عليهم أقرب إلى الارتياح والطمأنينه من شباب المدن العزب ، يستثنى من ذلك حالات فقر الأب . فقد يمرض أو تموت حيواناته لأسباب قاهرة أو قد يبالغ في اكثار التناسل (وفي الشرق قد يتزوج أكثر من واحدة من النساء) فيضيق الرزق بأولاده ويصبحون بضاعة تصدير نحو المدن ويزيدون بذلك أزمتها . وبما أنهم يتحملون المشاق أكثر من أهل المدن فانهم يقبلون في بادئ الأمر أجوراً زهيدة ويعملون في المهن الشاقة .

الزراعة عملية عائلية :

تمتاز الأسرة الريفية بالتعاون الجماعي في سبيل الرزق الجماعي . والأب والأم والاولاد يعملون كلهم معاً وأحياناً بدون تفريق في أنواع العمل بل أحياناً يجتمع الجد والحفيد كالند للند وراء المحراث أو أمام المجرفة . لا شك أن هناك توزيعاً طبيعياً في الاعمال اليومية ، فالنساء يطبخن ويغسلن ، والرجال يشترون ويبيعون. والرجال ينقلون الاثقال ويقودون المصاعب ليتركوا إلى النساء الاشراف على الاطفال وترتيب الاثاث . غير أن هذا التقسيم في العمل لا يمنع الاشتراك الجماعي في العمل الزراعي في كل موسم . وبهذا الاشتراك الاقتصادي يظهر التضامن العائلي في أجمل صوره بالريف .

وتمتاز الاسرة الريفية أيضاً بأن مسكنها يقع في الارض الزراعية نفسها أو ليس بعيداً عنها . نعم لا تخلو كل مدينة من مزارعين أغنياء يعيشون في المدن ولا يزورون القرى إلا لماماً ، ولكن الظاهرة العادية الطبيعية هي أن يعيش الفلاح إما في أرضه أو في القرية القريبة من أرضه. وهنا يبدو الفرق كبيراً بين الفلاحين

والعمال ولا سيما الذين يعملون في المدن الصناعيـــة الكبرى . فهؤلاء العمال يسكن بعضهم المدينـة ولكن أكثرهم يلجأ إلى المناطق المجاورة ابتغاء الحياة الرخيصة مسكناً ومطعماً . وقد تقع بعض المناطق المجاورة على بعـد كيلومترات كثيرة من مركز المدينة ، لذلك إذا وقف أحدنا قبيل الساعة الثامنة صباحاً في محطة من محطات هذه المدن يلاحظ نزول الركاب من القطـار بكميات وافرة يخرجون من أبواب المحطة ليدخلوا المدينة ويتوزعوا على حوانيتها ومتاجرها ومصانعها ، وفي مساء اليوم تبـدو الظاهرة معكوسة إذ يتوافد العمال ليركبوا القطار خارجين إلى الضواحي .

وتمتاز الأسرة الريفية أخيراً بتجانس الجوار . فالريف يسكنه الريفيون والريفيون في المنطقة الواحدة هم عائلات متشابهة في الحياة اليومية والعمل اليومي. يخرجون صباحاً من مساكنهم البسيطة وينتشرون في الحقول لا فرق بين أحدهم والآخر، كلهم في أيام واحدة يحصدون وكلهم في أيام أخرى يحرثون أو يبذرون. ومن المشاهد البديعـة في القرى الاوربية الشمالية خروج الريفيين أيام الصحو (وهي أيام قليلة العدد) إلى البراري في موسم الحصاد وتعـاونهم رجالاً ونساء كباراً وصغاراً في إنهـاء هذه العملية قبل نزول المطر . وهـذه صورة أخرى جميلة من صور التضامن العائلي في الريف ، بل التضامن القروي والمحلي في دائرة أوسع .

العمل غير الزراعي

إذا كان العمل الزراعي في الريف يؤلف القسم الاساسي من الحياة الريفية فهناك بعض الاعمـال غير الزراعية التي تكمله من جهة أو التي تساعد الفلاح على نقل مجهوده إلى أماكن أخرى للاستفادة من محصوله فيبيع ويشتري ويؤمن

حاجاته الاخرى من ثياب ومأوى وكماليات .

١ ــ ففي الريف أولاً توجد بعض المصانع الصغيرة . فكل قرية لا تخلو من حداد أو نجار وظيفته اصلاح الآلات الصغيرة . وقد يكون النجار نفسه حداداً أو بالعكس ، بل قد يكرس الصانع الواحد نفسه لاكثر من قرية واحدة . فاما أن ينتقل هو بحسب طلبات الزبائن أو تأتيه الزبائن من قرى مجاورة .

٢ ــ وفي الريف ثانياً توجد بعض المتاجر الصغيرة . وفضلاً عن أن كل قرية تحوي حانوتاً على الأقل لبيع الملبوسات (كالأقمشة والأحذية البسيطة) أو اللوازم المعدنية وشبه المعدنية (كالمسامير والزجاجيات) أو المصنوعات الزراعية (كالسكر وعلب الكونسروة) فان بعض القرى تمتاز بوجود تاجر كبير أو أكثر لشراء الحبوب والمواشي من الريف واعطاء الفلاحين بدلاً عنها مالاً أو بضاعة يجلبها من المدينة ، فكأنه حلقة وصل بين أهل الريف وأهل المدن . والقرية الامريكية بمعنى Village تمتاز بأنها مخزن تبادل لنوعين من المحاصيل : محصول الريف من جهة ومحصول المدن من جهة أخرى . وهي أشبه بمدينة صغيرة من مدننا الشرقية ، لذلك يسهل التمييز بين كلة قرية Village وكلة ريف Country . ففي أمثال هذه القرى توجد مراكز للبريد ومدارس كافية وملاهي صغيرة ومستشفى مع بعض الاختصاصات الضرورية . وكل واحدة منها تحوي شركة أو أكثر من الشركات المحلية التي تجمع محصولاً معيناً أو محاصيل من أنواع مختلفة لتبيعها بشكل تعاوني Association of Villager and Farmer كما أن كل واحدة تحوي ممثلين لشركات كبيرة وفروعاً لبنوك ومصارف مختلفة .

٣ ــ وفي الريف ثالثاً بعض المهن الصغيرة . وهي لا تخضع طبعاً لمبدأ تقسيم العمل . فقد يكون الطبيب نفسه صيدلياً وقد يمارس الحلاق مهناً أخرى غير مهنة الحلاقة . وفضلاً عن أن معلم القرية يمارس التدريس في أكثر من صف

واحد ، مثلاً في مدرسة ذات أربعة أو خمسة صفوف معاً، فهو أيضاً يقوم بوظائف اجتماعية أخرى كتمثيل القرية تجاه المراجع الادارية العليا ، وفي أوربا يقوم أحياناً بما يقوم به مختار القرية في بلادنا . ينتج عن ذلك أن أبناء الفلاحين في الريف الصغير يتحملون عناء الذهاب والاياب في سبيل الدراسة في القرى أو المدن المجاورة ذات الاختصاص الكافي ، كما أن المريض في هذا الريف يتحمل قطع المسافات في سبيل العلاج . وتقليلاً لهذه المتاعب تلجأ الدول الراشدة إلى مؤازرة أهل الريف مؤازرة خاصة سواء من حيث تخصيص الكراسي المجانية لأبنائهم في مدارس المدن أو من حيث تسهيل العلاجات لهم بالارساليات الدورية المنظمة ، ثم تهيئ لهم أيضاً مكتبات جوالة ووسائل تعليمية أخرى كالأفلام والمتاحف الصغيرة تنقلها إلى الريف لتنقل معها أنواع المعارف المفيدة في كل مناسبة ويتمتع بفائدتها الصغار والكبار بآن واحد .

السكان والحراك الاجتماعي

كل مجتمع سواء كان ريفياً أو مدنياً يحوي على فئات Categories . ولهذه الفئات نوعان من الترتيب : ١ — الترتيب الشاقولي vertical ٢ — الترتيب الأفقي horizontal . فالترتيب الشاقولي ينظر إلى الفئات نظرة كمية أو نظرة كيفية ولكن قابلة للقياس التقريبي (مثلاً ترتيب المتعلمين بحسب الشهادات أو مقاييس الذكاء) .

فاذا رتبنا السكان بحسب السن ينتج معنا ثلاث فئات معروفة هي : فئة الاطفال وفئة الشباب وفئة الشيوخ . لذلك نستطيع أن نتصور الترتيب الشاقولي على شكل أعمدة متزايدة الارتفاع . ومن أمثلة الترتيب الشاقولي ترتيب فئات العمل إذا رسمنا إلى جانب العاجزين ، العاملين ورمزنا لنشاط العامل برموز كمية . وكذلك ترتيب فئات الحرف إذا رمزنا للدخل المالي لصاحب الحرفة بأرقام

وخطوط بيانية .

أما الترتيب الأفقي وهو الذي يهمنا في هـذا البحث فينظر إلى الفئات نظرة كيفية أو نظرة كمية ولكن قابلة لمزجها مع القيم المعنوية . أمثلة هـذا الترتيب : الطبقات الاجتماعية Social classes أو Strata التي نتصورهـا كالطبقات الجيولوجية . فهناك طبقات عليا وهناك طبقات متوسطة وأخيراً طبقات سفلى . وهـذا الترتيب يسمى التوضع الاجتماعي Social stratification أمثلته القديمة نظـام الحرف castes الذي عرفته الهند ومصر القديمة وفارس واليونان . فالمجتمع مقسم إلى طبقات مهنية لا يسمح للفرد في إحداها العلو فوقهـا ، فابن الفلاح يبقى فلاحـاً وابن الحداد يبقى حداداً . وإلى جانب هـذه الاعتبارات الاقتصادية اعتبارات دينيـة بمعنى أن الآلهة فرضت هـذا التقسيم وعلى الجميع احترامه كما أن الزواج يتم أفقياً بين أفراد الطبقة الواحدة . وفي القرون الوسطى كان نظام الاقطاع Feudalism مشابهاً لنظام الحرف في الهند . مثلاً كان يقضي أن يكون لكل حرفة كهنوت خاص ورجال دين ومعابد خاصة بها دون غيرها . أما في نظام الاقطاع فنجد مذهباً دينياً واحداً وثقافة وكنيسة واحدة . وبينما نجد في نظـام الحرف أن الطبقات السفلى « نجسة » غير نقية impure نجد في نظام الاقطاع أن نظام الطبقات السفلى « مقيدة » غير حرة unfree بمعنى أن الوضع القانوني حل محل الوضع الديني . وهكذا تمتع الاقطاعيون بامتيازات كثيرة باسم القانون أيضاً . وفي القرون الحديثة اختلف نظـام الطبقات عن النظامين السابقين إذ أن جميع الافراد في المجتمع الحديث متساوون أمام القـانون في الحقوق والواجبات ولو أن تطبيق هذا المبدأ لم يتم إلا ببطء . والطبقة الاجتماعية إنمـا هي فئة اجتماعية مفتوحة وتسمى طبقـة مفتوحة Open class وليس ما يمنع أحـد الافراد إذا تغيرت شروطه الاقتصادية أن

يخرج من طبقته ليدخل في طبقة أخرى . لذلك يتصف المجتمع الحديث بصفة الحراك Social mobility وبفضلها يتاح للفلاح أن يتمصر والمدني أن يتريف . فالفلاح قد يتعلم في الجامعة ويضطر بحكم تزايد علمه أن يستقر في المدينة إذا امتهن مهنة فكرية (محامي أو استاذ جامعة) . والمدني قد يجمع رأس مال ويشتري أرضاً واسعة في الريف فينتقل اليه ابتغاء الثروة فيصبح بعد مضي زمن هو وأولاده من أهل الريف . إن هذه الهجرة مع تغيير مكانة الفرد نعتبرها حركة شاقولية أما لو كانت الهجرة من مكان إلى آخر ابتغاء العمل في المهنة نفسها فهي حركة أفقية. مثال ذلك هجرة العامل من مدينة كثيرة العمال إلى أخرى قليلة العمال ابتغاء العمل فيها ، أو هجرة الفلاح من بلاد ذات أراضٍ جديبة إلى أخرى ذات أراضٍ خصيبة ابتغاء الزراعة فيها .

رغم مرونة القانون والمفاهيم الاخلاقية الحديثة فان الريف الشرقي لا يزال بطيئاً في عملية الحراك الاجتماعي. وإذا قسناه بما يجري منذ خمسين سنة في امريكا فهو يكاد يعتبر جامداً . وليس المقصد من ذلك أن نمدح حركة الانتقال من القرية الى المدينة بل العكس هو الذي نتوخاه . واننا نتوقعه بشكل خاص في سورية لأن طلائع الهجرة من المدينة إلى القرية تبشر باحتمال تزايدها . وذلك بمناسبة زراعة القطن وإنتباه المدنيين إلى أهمية زراعة الحبوب زراعة واسعة في البادية والجزيرة . ومثل هذا الانتقال سوف يخفف أزمة المدن السورية ويساعد على إزالة المفاهيم الخاطئة في قيمة الفلاح. إن الحاضر وإن كان جامداً لكن المستقبل يبشر بهجوم منظم نحو الريف يتزايد مع تزايد ورود الآلات الزراعية من الخارج وانتشار الكهرباء والماء في الداخل .

وإذا كانت هذه الحروف الثلاث (R E A) رمزت في الماضي إلى إدارة الكهرباء في الريف الامريكي Rural Electrification Administration

فان الحروف (إ ك ر) سوف ترمز إلى (إدارة كهرباء الريف) فى البلاد العربية . والاحصاءات الاخيرة تدل على توسيع ادارات الكهرباء في المدن السورية وانتشار الادارات المحلية في القرى مما يساعد على تكاثر السكان في الريف ورقي ادارات الكهرباء في المدن السورية وانتشار الادارات المحلية في القرى مما يساعد على تكاثر السكان في الريف ورقي وسائل الحياة والراحة . يضاف إلى ذلك تغير مفاهيم القيم لدى أهل المدن واحترام العمل الزراعي والتفكير في التعاون الجماعي الريفي . إن ارتفاع تكاليف الحياة High cost of living الناتج عن ارتفاع مستوى المعيشة standard of living أدى إلى تحديد النسل في البلاد ذات المدن الكبرى . وبتعبير آخر أدى إلى انخفاض نسبة الزواج من جهة وانخفاض معدل المواليد من جهة أخرى . وقد انخفض معدل المواليد في بعض الدول الغربية إلى درجة أنه أصبح في زمن من الازمان أقل من معدل الوفيات (مثلاً في فرنسا عام ١٩٤٩ أصبحت النسبة في الألف للمواليد ١٤ وللوفيات ١٥ أي فقدان فرد من كل ألف سنوياً دون تعويض) . وكثيراً ما يرافق انخفاض نسبة المواليد ارتفاع نسبة الطلاق (مثلاً في مدينة نيويورك عام ١٩٤٧ كانت نسبة الطلاق إلى الزوج ٥٠ في المائة) . ويعلل العالم Odum هذا الانحلال الاجتماعي بسبب عدم وجود الخطط المانعة . فلا بد في كل عصر من وضع خطط اجتماعية Social planning وتشريعات اجتماعية Social legislation لتنظيم العلاقات بين الافراد وإيجاد توازن بين الناحية المادية للحضارة (وهي الرغبة في التمتع بمستوى اقتصادي مرتفع) والناحية الروحية (وهي التعاون الانسانى والمحافظة على الروابط الاجتماعية) . ويذكر العالم Ward أن واضعي الخطط الاجتماعية Social planners يجب أن يكونوا اجتماعيين من ذوي الالمام بميادين العلوم الأخرى. وهو لا يعتقد بمبدأ الاقتصاديين الاحرار Social economists

الذين يؤمنون بنظرية التطور وبقاء الأقوى . فمبدأ التنافس الحر وإن كان يفسح المجال لتكافؤ الفرص الذي من مظاهره الملكية الزراعية الصغيرة والملكيات الأخرى المحدودة ، غير أنه من جهة أخرى يفسح المجال لبعض الافراد نحو ملكيات واسعة أي استغلال طبقة معينة من المجتمع لطبقة أخرى . لذلك ينبغي الحد من تطبيق هـــذا المبدأ لايجاد مجتمع أقل صراعاً . وهنا تفيدنا الخطط الاصلاحية Socirl reform التي تساعد على تضييق الهوة بين الطبقات وإيجاد امكانيات انتقال من إحداها للأخرى Possible social mobility في سبيل التوازن والانسجام . وما يقال عن الطبقات بالنسبة للمجتمع الواحد ،يقال عن المجتمعات بالنسبة للبشرية كلها : حرية في الحراك الاجتماعي مع تطبيق المبادئ الانسانية .

بعض الخصائص النفسية الاجتماعية

ذكرنا في البحث الثاني أن الريف يعتبر جماعة أولية Primary إذا اعتبرنا المدينة جماعة ثانوية Secondary . فمن السهل إذن أن ننسب إلى الريف الصفة الأساسية التي وصف بها العالم كولي Cooley الجماعة الأولية. وهي خير كاشف علمي للجماعة الريفية وتتلخص بالجملة الآتيـة : « **الحياة المشتركة وجهاً لوجه** » (Face-to-face relations) . فأهل الريف يقابل بعضهم بعضاً كل يوم ويجري تماس شديد بين أحدهم والآخر ويتبادلون الاعارة والاستعارة سواء في أدوات البيت أو آلات الزراعة . وهم يشتركون معاً في الأفراح والأحزان والسراء والضراء ، إلى غير ذلك من الصفات التي تتضح لنا بمقارنتها مع الصفات المدنية في الجدول التالي :

	ريف أو مزرعة Country or Farm	قرية أو مدينة صغيرة Village-town	مدينة كبيرة City
نوع العمل :	زراعي ومتجانس	غير زراعي ومتنوع	ليس زراعياً وكثير التنوع
محيط العمل :	الهواء الطلق	أقل طلاقة	محصور
أثر الفصول :	مهم جداً	أقل أهمية	ليس له أهمية كبرى
مهارة الانسان :	عامة ومتنوعة	أقل عمومية	أكثر اختصاصاً وتعمقاً
عمل الاسرة :	مشترك ومتشابه	أقل اشتراكاً	غير مشترك وأكثر تنوعاً
مساحة الجماعة :	صغيرة	متوسطة	كبيرة
علاقات الجماعة :	قليلة لكنها شخصية وشديدة	معتدلة وأقل شخصية	كثيرة وغير شخصية
التأسيسات :	قليلة وبسيطة	أكثر تعقيداً	كثيرة العدد والتعقد
الرقابة الاجتماعية :	قوة العادات والتقاليد	القانون مع التقاليد	قوة القانون والتشريع
صفات الافراد :	متجانسون في كل شيء اللباس والطعام والتفكير	أقل تجانساً	لا تجانس بل تفاوت ملحوظ

وقد سمى العالم Odum صفات المجتمع البدائي Folk-culture أي ثقافة القوم . ومعنى ذلك ان هذه الصفات هي نتاج سكان المنطقة أنفسهم بدون التأثيرات الخارجية الناتجة عن مجتمعات أخرى . فالمجتمع البدائي منعزل ولا يستفيد من تفاعل المواصلات. وبالمقابل فقد سمى صفات المجتمع المتحضر State civilization أي حالة الحضارة . وهذه الحالة إنما هي نتيجة تبادل الثقافات Acculturation وانتشار الثقافة من مركز إلى آخر Diffusion .

أما العالم الألماني Tonnies فقد اشتهر بكلمتيه الألمانيتين Gemeinschaft كاسم للمجتمع البدائي و Gesellschaft كاسم للمجتمع المتحضر .

ومن العبارات المألوفة في علم الاجتماع الريفي كلمة Folk-lore وهي تدل على مجموعة العادات والتقاليد والاعتقادات والاشعار والاقوال التي يتصف بها قوم

معين أو قبيلة ابتدائيـة معينة . فنقول مثلاً فولكلور الاسكاندينافيين وفولكلور اليونان القدماء .

وبالامكان تمييز بعض العبارات الأخرى في هذا الصدد . مثلاً كلمة Mores تدل على التقاليد التي اقتنع الناس بفائدتها بعد التجارب الطويلة كاطاعة الوالدين واحترامها وتحية الشيوخ والقيام لاستقبالهم حين يحضرون المجالس . وبعض هذه التقاليد لا يزول أبداً وبعضهـا يتطور ويأخذ شكلاً أبسط أو أعقد . مثلاً قـد يزول تقبيل يد الشيوخ وينقلب إلى مجرد مصافحـة مع تطور الزمن على أن يبقى الاحترام الداخلي نفسه .

أما كلمة Folkways فتدل على العادات التي تكتسبها الجماعة على مر الزمن استجابة لحاجات معينة . وقد تمسي هـذه العادات مع تطور الزمن غير معقولة Non-rational كعويل النساء وراء الجنازات أو غير منطقية Non-logical كغلاء المهور في عقود الزواج .

أما كلمة Technicways فتدل على العادات (والموضات) التي تنتشر بمناسبة الصناعات الجديدة . مثلاً تهـافت الاولاد على شراء اللعب في كل عيد وارتيـاد النساء للسينما في كل اسبوع وتسابق الاغنياء على شراء أحدث السيارات أو أغلى الادوات الكهربائية . ومن هـذا النوع تفاخر الشباب بلعب الميسر أو تعاطيهم الخمر مع التظاهر بمهارة الرقص الحديث .

والجدير بالذكر أن Folkways توجد بنسبة كبيرة في المجتمعات البدائية و Technisways توجد بنسبة كبيرة في المجتمعات الحضرية أما التقاليد Mores فتوجد بنسبة كافيـة في المجتمعات التي تتوازن في حضارتها الناحيتان الروحية والمـادية .

البحث الرابع [1]

العوامل الايكولوجية في تكون القرى والمدن

هناك خمسة عوامل ايكولوجية تؤثر في حياة الانسان باستمرار وتطبعه بطابع معين . وهي الأرض ، الماء ، الهواء ، الحرارة ، الأحياء (بما فيها من نبات وحيوان) .

تأثير الأرض :

يمكن البحث في تأثير الارض على البشر من ناحيتين : ١) الناحية التوبوغرافية . ٢) الناحية الفيزيكيائية .

١ ـ فمن الناحية التوبوغرافية ننظر إلى مساحة الأرض ، هل هي كبيرة أم صغيرة ، هل هي واسعة أم ضيقة ؟ . ثم ننظر إلى شكلها الخارجي أي مرتفعاتها ومنخفضاتها . والخارطة التوبوغرافية تبين هذه المرتفعات والمنخفضات بخطوط اصطلاحية . فاذا كانت الخطوط متقاربة يكون الانحدار شديداً وإذا كانت

---

(١) هذا البحث مستقى من الكتب التالية :

صلاح العبد : مبادىء علم الاجتماع ، القاهرة ١٩٥٣ .

العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي ، بيروت ، دار الكتاب ١٩٤٧ .

Dodd : Social relation in the Middle East . Beirut 1946

مع اضافة أمثلة من الواقع الشرقي .

متباعدة فيكون الانحدار بطيئاً متدرجاً . فكثرة الخطوط المتقاربة في الخارطة تدل على البلاد الجبلية أما قلتها فتدل على البلاد السهلية .

والتأثير التوبوغرافي على الانسان يظهر في تحديد عـــدد السكان . إذ كلما صغرت مساحة الأرض (وتساوت الشروط الاخرى) قل عدد السكان . وكذلك كلما زادت زاوية الميل (الانحدار) قل عدد السكان . فعدد السكان يتناسب طرداً مع المساحة وعكساً مع الانحدار . لذلك نجد أن أكبر مدن العالم هي الموانيء البحرية وقليلون هم الذين يعيشون فوق الارتفاع (٣٠٠٠) متر ، والقانون الايكولوجي ينص على أن كل ما في المرتفعات العالية عبارة عن قرى صغيرة حتماً كما أن السهول والحياض تحوي على المدن الكبيرة ؛ وعنها ينتج التخصص في المهن والتنوع في الثقافة والتعقيد في تأسيسات الحياة الاجتماعية . وقديماً كانت مراكز الحضارة في الصين والهند ومصر وفينيقيا واليونـان وروما عبارة عن مدن سهليـة ذات أنهار أو شاطئية ذات سهول ممتدة .

وبالمقابل يؤثر الانسان أيضاً في الأرض بعد تأثره منها ، فمثلا حين يتكاثف في المدن الكبيرة ويتوصل إلى التخصص وإستخدام الآلات ، فانه بفضل هـذه الآلات يغزو المناطق الجبلية العاليه أو المناطق الصحراوية البعيدة . يقلع الصخور ويمهد الجبال (كما في اوربا الوسطى) أو يجفف المستنقعات ويبني السدود (كما في هولاندا) أو يزرع الصحارى ويمد القنوات (كما في العراق وسورية) . لذلك يجوز أن نتصور هجرة المدنيين إلى القرى بشكل أسهم تسير من المدن الى الجهات الجبلية وخصوصاً في بعض الظروف الى الجهات الصحرائية . وتطبيقـــاً لهذا المبدأ نتصور الجزيرة السورية في المستقبل القريب أو البعيد يغزوها البشر مع آلاتهم الميكانيكية متجهين من المدن الغربية نحو الشرق (انظر الشكل رقم ١ في آخر صفحة من هذا البحث) . ونأمل ان تبدأ مصلحة الاحصاء في

الجمهورية السورية منذ الآن بضبط أرقام هذه الحركات في كل سنة ليتاح لنا دراستها بخطوط بيانية عاما بعد عام.

٢ - ومن الناحية الفيزيايكيميائية ننظر الى وصف الأرض الفيزيائي ثم الى تركيبها الكيميائي أي الى بنيتها الداخلية. وبما أن وصفها الفيزيائي من لون وصلابة ناتج عن تركيبها الكيميائي فالدراسة الأساسية في هـذا الموضوع هي دراسة محتويات الأرض. ومن السهل أن نقسم هذه المحتويات الى قسمين: ١) تربة سطح الأرض وعليها تتوقف الزراعة. ٢) تربة بطن الأرض أي المعادن وعليها تتوقف الصناعة.

تؤثر تربة سطح الأرض على النباتات بتحديد نوع الحاصلات الزراعية وكميتها وكيفيتها، ففي التربة الرملية تنمو بعض النباتات وفي التربة الطينية تنمو نباتات أخرى. وتمتاز التربة الرسوبية بانتاج اكبر كمية من الحاصلات الزراعية وأجودها كما هي الحال في ترسبات نهر النيل بمصر. أما المناطق الصخرية أو الحجرية فهي أعطل انواع الاراضي ويضطر الانسان فيها إلى مضاعفة جهوده للحصول على معاشه وقد لايحصل إلا على شيء ضئيل. فالزراعة إذن تابعة لطبيعة التربة وهي بدورها تؤثر على الحيوان والانسان. وتأثيرها على الانسان يتجلى في نوع طعامه وملبسه ونمط حياته. فهو يـأكل مايزرع ويلبس ما تجود بـه أرضه من الألياف التي ينسجها بشكل كساء، كالقنب أو الكتان. أما تأثير الانسان على التربة فيكون بالسيطرة على حدودها أو حرثهـا أو نقلها من مكان إلى آخر. يبني الانسان الحفافي والسدود ليمنع الامطار من جرف التربة السطحية، ويغرس الغابات أو يزرع أنواعاً خاصة من الحشائش والشجيرات ليمنع الرياح من نسف التربة الرملية. إن حرج الصنوبر في بيروت مثال صالح لهذه الحدود التي تقي

جنائن بيروت شر الرياح والرمال وخطر الامطار والسيول . وقد غرسه حاكم صالح منذ قرن تقريباً كجدار يحيط بسهل بيروت ويحفظه حفظاً مستمراً ، وبفضله انقلبت رمال بيروت الى جنان ملأى بالصنوبر والموز والبرتقال . واذا كانت التربة محاطة بحدود طبيعية ومصونة من اطرافها القريبة أو البعيدة فالانسان يعنى فقط بحراثتها أو نقلها إلى الاماكن التي تحتاج اليها ، كما يصلح نوعها باضافة الأسمدة الكيميائية أو البيولوجية . وهو يزرع الأرض بالتناوب وفي كل سنة يجني حاصلا يختلف عن حاصل السنة السابقة ، وبذلك تبقى في الأرض المواد اللازمة للزراعة القادمة . وقد تعلم الانسان في الأيام الأخيرة زراعة النبات في محلول ملحي بدون تراب . وربما توسعت ضروب هذه الزراعة اللاترابية في المستقبل بالنسبة للمدن الكبرى . وفي نية المفكرين أن يصنعوا أحواضاً مائية خاصة يزرعون فيها النباتات التي تنمو بزمن قصير ، فيكررون زراعتها مرات عديدة في السنة الواحدة بشروط اصطناعية يستخدمون فيها نور الكهرباء وحرارتها مع الاسمدة الكيميائية .

تؤثر المعادن على الانسان من جهة أخرى ، ونقصد بالمعادن هنا معناها الواسع أي جميع المحصولات الحاوية على المعادن أو التي يستخرجها الانسان من المناجم . فتدخل في زمرتها إذن الاحجار والاملاح كما تدخل في زمرتها الفحوم والزيوت فالمناطق الحجرية تجهز الانسان بحجارة البناء كما في لبنان خلافاً للمناطق السهلية التي تجهزه بالطين كما في العراق فيضطر الانسان إلى شوي الطين بشكل آجر (قرميد) . والمناطق الغنية بالمناجم تجهز الانسان بالفحوم والزيوت التي يستخرج منها النار والنور والكهرباء ، وهي أساس صناعته الحديثة ، إذ يكفي قليل منها لانتاج عدد من البضائع لاينتجه آلاف من العبيد قديماً لو عملوا طوال حياتهم . ومن المعادن ماهو مشهور في ايامنا هذه كالحديد والفولاذ اللذين منها

يتألف الهيكل العظمي لكل المصانع المعاصرة . والنحاس الذي يكسو كثيراً من الآلات كالجلد من الجسم البشري . والالومنيوم الذي منه يتألف بنيان آلات الطائرة والذي بدأ يزاحم الفولاذ من حيث الاهمية. وفي الشرق اشتهر البترول كما اشتهرت الأمـــلاح الذائبة في البحر الميت . وإذا اجتمع الحديد والفحم الحجري في منطقة ما جعلها حتما صناعية فيؤثران على الانسان تأثيرهما المعروف في المدن الصناعية الكبرى . أما تأثير الانسان على المواد المعدنية فيكون بالسيطرة على مقالعها ومناجمها . يحفر المقالع في الصخور لاستخراج الاحجـــار واستعمالها في البناء والطرقات ، كما يحفر المناجم لاستخراج الوقود واستعمالها في المصانع والقطارات ، ومن هذه وتلك يستخرج المعادن والاملاح لاستعمالها هنا وهناك . والمعادن قابلة للانصهار لذلك يعطيها الانسان اشكالاً عديدة بحسب وظائفها وسهولة استخدامها . أما الزيوت فيجرها بالانابيب إلى مسافات بعيدة ومن ثم بالبواخر والسيارات إلى مسافات أبعد ليتم استثمارها في المدن الصناعية . والمدينة الصناعية تنال نموها الحقيقي بتحالف عاملين يتبادلان التـــأثير : ١) غزارة المعادن في منطقتها . ٢) تقدمها التكنولوجي . ونقصد بالتكنولوجيا Technology ذلك العلم التطبيقي الذي يكتشف الطرق الجديدة لاستثمار الموارد المعدنية واختراع الآلات إجمالاً . ولما كان هذان العاملان هزيلين في البلاد الشرقية فان مستقبل هـــذه البلاد يتوجه نحو الزراعة قبل كل شيء ، ولا يتوجه نحو الصناعة الحقيقيـة إلا بعد تكاثر السكان . وإذا رجعنا إلى تاريخ أمريكا نجد شبيه ذلك . فقد بدأ الانسان بعملية اكتشاف الاراضي الزراعية والسيطرة عليهـا شيئاً فشيئاً مع تقدم الصناعة قليلا قليلا . ولما قاربت عملية الاكتشاف من الانتهاء توجه الانسان إلى أعماق الارض وأخذ ينبش الآبار والمناجم رغم صعوبة العملية الجـديدة . ومـع توسع المدن الكـبرى

توسعت عملية الاستثمار المعدني أقصى ما يمكن .

تأثير الماء :

الماء عامل أساسي يؤثر على الانسان ويغير نمط حياته تبعاً للكيفية والكمية اللتين تحيطانه منه. والماء يوجد بثلاث حالات في الطبيعة : ١) حالة الصلابة كالجليد والثلج . ٢) حالة السيولة كالمطر والأنهار والبحيرات والبحار . ٣) حالة الغاز كالبخار والغيوم والضباب والرطوبة الهوائية .

ويقاس توزع الماء على سطح الأرض في حالة الصلابة بمساحة الجليد أو عمقه أو بمقدار ما يسقط من الثلج مقاساً بالسنتمتر ارتفاعا . ويقاس هذا التوزع في حالة السيولة بمساحة البحيرات والبحار وعمقها ، وبحجم المياه الجارية في الدقيقة وبجمع حجوم المياه المخزونة في الاحواض والخزانات وبمقدار ما يسقط من الامطار سنويا مقاساً بالسنتمتر ارتفاعاً . فمعدل هطول الامطار في بيروت هو (٩٠) سم بينما هو في الصحراء (٥) سم فقط كحد أدنى. وقد يبلغ الحد الأعلى (١٠٠٠) سم في الاماكن التي يغرس فيها الشاي كبورما مثلا . أما في الحالة الغازية فيقاس توزع البخار بالحجم أو الضغط مقاساً بالكيلوغرام على السنتمتر المربع . وتقدر الغيوم بالنسبة المئوية لأيام السنة التي تتلبد فيها السماء . وتقاس الرطوبة « **بالرطوبة النسبية** » وهي النسبة المئوية للحد الأعلى من بخار الماء الموجود في الهواء في أحوال الحرارة العادية . وتقوم المراصد الفلكية بهذه القياسات وترفع فيها تقريراً يوميا . فمعدل الرطوبه الكثيرة يتراوح في بيروت بين ٧٢ ٪ في شهر نيسان و ٦٠ ٪ في شهر تشرين الاول . وجدير بالذكر ان الرطوبة الكثيرة تؤثر على جسم الانسان ومزاجه . تجعل الجسم لزجا كما تجعل النفس شاعرة بعدم الارتياح. وزيادة الرطوبة تزعج الانسان اكثر مما تزعجه

زيادة الحرارة .

أما تأثير الماء على الانسان فيكون بالنسبة للكيفية اولا . إذ لا يوجد الانسان في الاراضي المغطاة بالجليد . وان وجد فقليل جداً وبحالة اجتماعية بدائية كالاسكيمو . ولا مجال هنا لحفر المناجم أو الزراعة . ويكون التأثير بالنسبة للكمية ثانياً . إذ لا يوجد الانسان في الصحارى الجافة وان وجد فقليل جداً وبحالة اجتماعية بدائية . وقد يكشف بعض الآبار المعدنية فتنقلب منطقة الآبار الى أماكن مأهولة بالسكان ولكن بشكل محدود ويبقى حظ الزراعة ضئيلا ما دامت المياه ضئيلة . فالاماكن الغنية بالسكان إنما هي المناطق الزراعية التي تجري فيها المياه وتنزل فوقها الامطار . وكمية المياه هي التي تقرر كمية البشر . وبتعبير آخر ان أغنى الاراضي الزراعية هي التي يكون نصيبها اوفر من كمية المياه وبالنتيجة يكون حظها أكبر من توزع السكان . ثم إن أعظم مدن العالم هي الموانىء البحرية التي تتساقط حولها المياه من مكان مرتفع إلى مكان منخفض وينتج عنها قدرة ميكانيكية تحرك الآلات وتولد الكهرباء .

يؤثر الماء على الانسان أيضاً من جهة أخرى وذلك باعتباره وسيلة من وسائل النقل كأنه سكة حديدية او طريق من الطرق البرية . الا تمخر البواخر عباب البحر وتجري القوارب في الانهار؟ إن هذا الاتصال المائي هو الذي ربط الفلسفة في الماضي بين جنوبي أوربا (اليونان) وشمالي أفريقية (مدرسة الاسكندرية) أما الانسان فيؤثر على الماء بالسيطرة على مجاريه وتوجيهها بالنسبة لمنفعته . كما أنه يفتح المجاري الجديدة والقنوات لوصل المجاري بعضها مع بعض. وهو يستخدم الانابيب المعدنية وشبه المعدنية لنقل الماء الى القرى والمدن كما يخزن المياه الغزيرة في الخزانات لتوزيعها في الاراضي الزراعية . وأخيراً يحفر الآبار العميقة.

يستفيد الانسان من المياه يومياً . يغليها ليطبخ طعامه ويدفىء مساكنه

ويغسل جسمه وملابسه . يولد البخار ليعقم الأشياء أو يحرك الآلات . وللمحافظة على نفسه ضد الماء يشيد الملاجىء والسقوف لتقيه من المطر ويصنع المظلات الشتوية والملابس الصقيلة . كما أنه يصنع المزالج للسفر فوق المياه الجامدة او المجارف لرفع الثلج من الطرق السالكة .

تأثير الهواء :

أول فائدة للهواء هي طبعاً التنفس . فالانسان يعيش داخل الهواء كما تعيش الأسماك داخل الماء ، ولو لا الهواء الذي يتنفسه الانسان لمات بأقل من خمسة دقائق .

يختلف توزع الهواء على الأرض سواء من حيث الكثافة أو الحركة أو النقاوة . فالكثافة تختلف بنسبة عكسية مع الارتفاع ، اذهي على ساحل البحر أكثف منها على قمة الجبل . والكثافة تتغير أيضاً قبل حدوث العاصفة وتنذر بحدوث الطقس الرديء ، كما أن حركة الهواء تتغير من نسيم عليل الى رياح الى عواصف وأعصار . وتقاس هذه جميعها بآلات خاصة تسجل الكيلو مترات التي يقطعها الهواء في الساعة مع بيان تغير الاتجاهات ؛ أما نقاوة الهواء فتقاس بتحليل الغازات التي توجد فيه تحليلا كيميائياً أو بالترشيح الفيزيائي الذي يلتقط الغبار وذرات الفحم ، أو بالزرع البيولوجي الذي يدل على وجود الجراثيم في زجاجة مملوءة بالهواء وفيها بعض الطعام المعقم . ومن السهل أن نلاحظ أن النقاوة في القرى ولا سيما الجبلية هي أكثر منها في المدن إلا في المدن الساحلية فنقاوتها في الامكنة المتطرقة تعادل نقاوة الارياف. وتقل النقاوة إجمالاً في القرى والمدن على السواء أثناء هبوب الرياح التي تحمل الرمال والغبار من الصحراء وتنقل الدخان والجراثيم من المعامل والاماكن المكتظة بالسكان .

يؤثر الهواء على الانسان علاوة على تجهيزه بالاوكسجين ، بترطيب الجو أثناء التبخر الناتج عن حركته فينظم برودة البشرة من جسم الانسان . وهو الذي يحرك الغيوم وبسبب توزع الامطار كما ينقل اللقاح من نبات إلى آخر فيسبب تكاثر الثمار. ويستفيد الانسان من حركته بالسيطرة عليها وحصرها في فراشات خاصة ، وعن ذلك نتج اختراع الطيارات والطواحين الهوائية والآلات الصناعيـــة التي تحركها الرياح لتخرج الماء من الارض أو تولد الكهرباء. وتمتاز بعض البلاد بهذه المظاهر بشكل خاص كهولاندا . وفي سورية يمكن استثمار الرياح في أماكن عديدة ولا سيما في الدهليز الممتد من طرابلس الى سهول حمص .

تأثير الحرارة :

يختلف توزع الحرارة على الارض فهي تزداد بالنسبة لقربها من خط الاستواء كما انها تزداد في الامكنة المنخفضة وتقل في الامكنة المرتفعة . ولما كانت الأرض تدور يومياً وتنحرف سنوياً فان إتجاه أشعة الشمس إليها يتغير ويتبدل فيسبب ارتفاع الحرارة في النهار وأيام الصيف وانخفاضها في الليل وأيام الشتاء .

تؤثر الحرارة على الانسان تأثيراً شديداً سواء في حياته البيولوجية أو صفاته النفسية ، فهي تكفل له الحياة أولاً وتجهزه بالقدرة على الحركة . ويحتفظ جسم الانسان بحرارة داخلية دائمة مقدارها ٣٧ درجة ان ارتفعت أو انخفضت أكثر من خمس درجات سببت له الموت . ولقد ثبت بالتجربة ان الحرارة المتبدلة يوماً عن يوم وفصلاً عن فصل تنشط الانسان . فمدينة نيويورك مثلا بطقسها المتبدل أفعل في نشاط الانسان من طقس ثابت كطقس مصر . وحرارة الشمس هي السبب الاساسي في التبخر وحدوث الامطار وتوزيع المياه كما انها سبب الرياح ونمو النباتات والحيوانات. ولا يستطيع الانسان أن يعيش الا موقتاً في مناطق باردة كالمناطق

المتجمدة وفوق الثلوج على الجبال. كما أن أنواع الحاصلات وأنواع الحيوانات تختلف باختلاف الحرارة السنوية . ونور الشمس فضلاً عن ذلك هو النور الذي يسمح للانسان أن يرى ويسير في أعماله النهارية كما أنه هو الذي ينشط بعض التفاعلات الحيوية في النبات كالتمثيل الكلوروفيلي .

أما تأثير الانسان على الحرارة فيظهر في السيطرة عليها وحصرها في غرف محدودة في الشتاء . وهو يغلق النوافذ حين يشعل المدافئ . وهو يستفيد من الشمس يفتح نوافذ البيوت نحو نورها ، وبفضل معلوماته الفيزيكيائية يتفنن في صنع المنابع الحرارية واستثمارها في جميع نواحي الحياة العملية والفنية . وقديماً هو الذى اخترع الموقد وهو اليوم يخترع البرادات التي يبردها بالحرارة نفسها (حرارة البترول مثلاً) وربما استثمر في المستقبل حرارة الشمس لتبريد الصحراء حين اللزوم أو تسخينها بحسب الاحوال ليلاً أو نهاراً .

تأثير الاحياء :

ان العوامل الايكولوجية الثلاثة (الماء والهواء والحرارة) تؤثر بدورها على توزيع الاحياء في الارض . فالحياة مثلا لا توجد الا في نطاق ضيق من الحرارة يتراوح بين الصفر والمائة درجة . وبعض الحيوانات كالغوريلا لا يعيش الا في الغابات الحارة بينما لا يعيش الدب القطبي إلا وسط الثلج والجليد . وينبت الصبير في الصحراء الجافة بينما يحتاج الموز إلى المياه الغزيرة . أما الحنطة فتنمو في حالة متوسطة بين هذين الطرفين . ومن الحيوان ما يعيش في شروط عادية كالكلب الذي يعتبر حيواناً أليفاً للانسان يعيش معه في القارات كلها . ولم تكن الخيول موجودة في أمريكا حين اكتشفها كولومبس ، ولا في استراليا أيضاً حتى أن استراليا كانت تجهل القطط والمواشي من البقر والغنم ، غير ان الانسان أخذ

ينقل هذه الاجناس اليها كما أخذ ينقل أجناس النبات من بلاد إلى أخرى ليزيد تنوعها وتوزعها . ينبغي أن نضيف إذن إلى العوامل السابقة التي تؤثر في توزيع الأحياء ، عاملي النقل والزراعة اللذين هما من صنع الانسان نفسه .

تؤثر الاحياء على الانسان : فهي تزوده بالطعام والكساء وشتى المواد كالجلد والوبر وألياف النبات . ومن الحيوانات ما هو أليف مفيد كالبقر والدجاج ومنها ماهو شرس ضار كالذئب والجراد والبعوض والجراثيم الفتاكة . ولقد كان الانسان الابتدائي ضعيف السيطرة على الحيوان والنبات . لكنه لم يلبث أن تعلم كيف يدجن الحيوانات ويستفيد من لحمها وبيضها وكيف يزرع النباتات فيستفيد من خشبها وثمرها . ولعل أهم ما يسجله الانسان الحديث من ضروب السيطرة على النبات هو : أولاً : تركيب الاطعمة كيميائياً من المواد غير العضوية . فالسكر مثلاً يمكن صنعه من ثاني أوكسيد الفحم والماء ونور الشمس . وإذا كانت تكاليفه لا تزال باهظة فان المستقبل سوف يذلل صعوبة غلائه . ثانياً : زراعة النبات في الماء . وهذا يتم بتحليل الاملاح التي يحتاج اليها النبات في الماء . وتنمو النباتات بهذه الطريقة نمواً سريعاً إذ الحنطة تنمو بعشرة أيام بحيث يمكن إجتناء ٣٦ موسماً من حوض واحد في السنة الواحدة . كما أنه يمكن جمع النباتات مزدحمة في حوض واحد ما دامت كمية الغذاء كافية لها بحيث يجوز غرس ما يحتاج إلى هكتار أرضاً في حوض صغير . أما أنواع الثمار الحاصلة من هذه الاحواض فيفوق النوع العادي وهذه الطريقة تخول العائلة أن تحصل على معظم مواد طعامها في داخل بيتها ، وبذلك تقل الحاجة إلى الارض الزراعية ويزداد سكان المدن حتى عشر أضعاف ما هو الآن . وقد تتحول المزارع عندئذ إلى معامل يشتغل عمالها في أعداد المحاليل الزراعية وجمع الثمار وشحنها . بيد أن تحقيق هذه الطريقة لا يزال صعباً وتكاليفها أغلى بكثير من تكاليف الزراعة العادية ولن

تتحقق إلا بالحصول على الاملاح بثمن رخيص جداً كما في البحر الميت . لذلك يمكن أن يصبح هذا البحر مركزاً مزدحماً بالسكان كما أصبحت الاماكن الغنية بالفحم والحديد . وسوف يحدث هـذا الازدحام انقلاباً اجتماعياً أهم من الانقلاب الذي أحدثه الازدحام حول الفحم والحديد .

تطور القرى والمدن

مرت الجماعات البشرية بمراحل أثنـاء تطورها ولا تزال بعض الجماعات الابتدائية متوقفة في الاولى أو الثانية من هذه المراحل وهي :

١ — مرحلة الصيد Hunting stage :

وهي أولى المراحل وفيها يعيش أفراد الجماعة على الصيد . يرحلون من مكان إلى آخر Nomads بحثـاً عن موارد الرزق . ويلاحظ أن صيادي السمك أقل تنقلاً من صيادي الحيوان البري نظراً لقربهم من المياه ، وعدم نفاد أسماك المنطقة بسرعة . لذلك يستوطن بعضهم القرى الثابتة ويشيدون فيها منازلهم حول زعيم القبيلة بحيث يكون أقربهم إلى بيت الزعيم أقواهم من حيث المركز الاجتماعي . كما أن كبار السن يحاطون بعائلات الشباب الأشداء حتى يحمي القوي الضعيف (أنظر الشكل رقم ٢ في آخر البحث) .

إن سلوك الفرد في هذه المرحلة يكون فطرياً على الأغلب وغريزياً بالاضافة إلى التجارب التي تنتقل من جيل إلى آخر ، ينقلها الابنـاء عن الآباء : كطريقة الصيد أو تربية الاطفـال . ويتراوح عدد أفراد المجموعة في هذه المرحلة بين عشرة أو مائة يعيشون معاً في صعيد واحد . ونظراً لقلة الحيوانات البرية تنتشر الجماعة بين المجموعة البرية وتزداد بالنتيجة نسبة الوفيات عندهم .

٢ – مرحلة الرعي Pastoral stage :

يعيش الافراد في هذه المرحلة على الحيوانات التي تعيش في المراعي الطبيعية: ينتفعون بألبانها ولحومها وجلودها وأصوافها . وهم يختلفون بين رحل Nomads وقليلي التنقل نصف رحل Semi nomads .

٣ – مرحلة الزراعة Agrigultural stage :

ويعيش الافراد فيها على الزراعة بمختلف أنواعها : يحرثون الارض ويبذرون البذور ويجنون المحاصيل والثمار ويقومون بعمليات البيع والشراء والتبادل .

تقسم المرحلة الزراعية بدورها إلى ثلاث مراحل :

١ – **المرحلة البدائية** Primitive village : وأول هذا النوع من القرى تكون منذ خمسة آلاف سنة في مصر وألمانيا وفرنسا وسويسرا. وامتازت الجماعة فيها بصفتين : ١) درجة قرابة عالية High dsgree of kinship . ٢) ملكية عائلية للأرض Family ownership of land . أي أن ملكية الارض الزراعية كانت مشاعة بين أفراد العائلة جميعاً وكان الاستيطان يسوده المحبة والوئام لصلات القربى التي تربط بين أفراد القرية .

٢ – **القرية الوسيطة** Medieval village أي قرية القرون الوسطى وعهود الاقطاع . وقد شاع هـــذا النوع بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولم يكن للقرابة إلا أثر ضئيل لأن الارض كلها مملوكة لفرد واحد هو الملك أو اللورد أو الشريف لذلك كانت القرية ذات طبقات : ١) الشريف Sherrif وهو المسؤول عن إدارة القرية وله أكبر نصيب من إيراد الارض . ٢) الجنود Serfs وهم حماة الأمن والنظام ويأخذون نصيبهم من دخل الارض. ٣) الفلاحون

Cotters وهم عمال الزراعة الذين يفلحون الارض ويأخذون أقل نصيب من ريعها . وبيوتهم منتشرة في الاماكن المتطرفة من القرية يتوسطها بيت الشريف تحيطه بيوت الجنود (أنظر الشكل رقم ٣ من آخر البحث) .

٣ – **القرية الحديثة** Modern village وقد زال منها النظام الاقطاعي لأن الملكية الزراعية تتوزع على سكانهـــا المشتغلين بالزراعة . ويسودها الترتيب الايكولوجي بوضوح إذ نجد مثلاً أن مزارع الخضر والفواكه قريبة من مسكن الفلاح وهي أقرب إلى المسكن من مزارع المحاصيل الاخرى . وبتعبير آخر نجد المسكن قريباً من مزارع الخضر والفواكه محاطاً بهـا بينما المزارع الاخرى تتباعد بمقدار ما تحوي من زراعـة واسعة تجهز الانسان بالمؤونة أو الحبوب .

٤ – **مرحلة الصناعة** Industrial stahe أدى ازدهار الصناعة في مناطق الفحم والحـديد إلى انقلاب اجتماعي إذ حمل الكثير من عمـال الزراعة على الهجرة من القرية إلى المدينة لممارسة النشاط الصناعي ، فتضخمت المدن الصغيرة واتسعت مساحاتها وتعددت وسائل النقل والتجارة وتنوعت الاعمال وتخصصت . وقد ساعد هذه الهجرة عاملان أساسيان أحدهما ان نسبة الولادة في المدينة أقل منها في الريف . ثانياً ان الصناعة نفسها جهزت الانسان بوسائل المواصلات بحيث أصبح يتاح لملايين النـاس الحصول على قوتهم اليومي وحاجاتهم الحيوية وهم في مدينة كبيرة .

إن المدن عندما تغص بالسكان يتغير شكلها في أربع نواحي غالباً : ١) تتسع دائرتهـا المحيطية فتبنى البيوت في الحدائق المتطرفة والحقول الممتدة في ضواحي المدينـة . ٢) يتهدم مركز المدينة ثم يعـاد بناؤه في مناطق مستديرة متتابعة مبتدئة في المركز . وتتبدل بيوت السكن القديمة بالمخازن والابنية التجارية .

٣) يبقى بين هـذه الابنية المركزية والمنطقة الخارجية منطقة متوسطة خلالية تسمى « منطقة الانحلال » تجتمع فيها بيوت السكن البالية دون ما اصلاح فـلا يرغبها الساكنون فتؤجر بأثمان بخسة للطبقات الفقيرة . ٤) تنمو المدن عمودياً أي في الفضاء من جهة وتحت الارض من جهة أخرى .

ومما يؤثر في نمو المدينة مركزهـا الجغرافي ونشاطها الثقافي والاقتصادي وتعـدد طرق المواصلات . وفيما يلي نشرح أهم ما يحدث فيها من تطورات : ١) التجمع Concentration وهو تجمع أفراد يشتركون في أوجـه نشاط مختلفة في مكان ما حيث يجدون فرصاً للعمل وميادين للرزق . ٢) التمركز Centralization وهو تجمع الافراد حول نقط معينة بالمدينة حول نشاط معين فهنا مركز لصناعة النسيج مثلاً ، وهناك مركز لصناعة النحاس وما شابه ذلك . ٣) الانفراز Segregation وهو يشبه التمركز من حيث تجمع الافراد إلا أن ظاهرة التشابه والتجانس أوضح هنـا ، إذ يضطر العمال مثلاً أن يسكنوا معاً ليؤلفوا حي العمال في مكان مستقل في المدينة ، وكذلك حي الطبقة الارستقراطية . ٤) الهجوم Agression ويظهر خصوصاً أثنـاء هجرة طبقة معينة إلى جزء من المدينـة أو انشاء مؤسسة هامة كالجامعة أو المدينة الجامعية ، حينئذ تبدو آثار هذا الهجوم بشكل محسوس في زيادة النشاط في الجزء الجديد . ٥) التعاقب Succession وهو تغلب معـالم الطبقة الجديدة واستمرارها بعـد اختفاء معالم الطبقة القديمة شيئاً فشيئاً في مكان معين من المدينة .

ومن قبل المثال عن التطورات المذكورة يمكن ملاحظة ما يجري في دمشق حاليـاً ، أو يمكن ذكر ما جرى في شيكاغو منذ أواخر القرن الماضي (أنظر الشكل رقم ٤) : ١) وسط المدينـة وهو عبارة عن الحي التجـاري Busıness section وتوجد به المحـال التجارية والمصالح الحكومية وبعض

الفنادق الضخمة . ٢) منطقة التحول Zone of transition وهي منطقة اتساع الحي التجاري ، حيث تتبدل المساكن بمحال تجارية . ٣) حي العمال Zon of workingman لاقترابه من منطقة نشاطهم . ٤) حي الطبقة المتوسطة Zone of middle class وفيه بعض الفنادق أيضاً والبنايات الواسعة التي تحوي عدداً كبيراً من العائلات الصغيرة . ٥) حي الطبقة الارستقراطية Zone of upper class ويقع في النواحي المتطرفة .

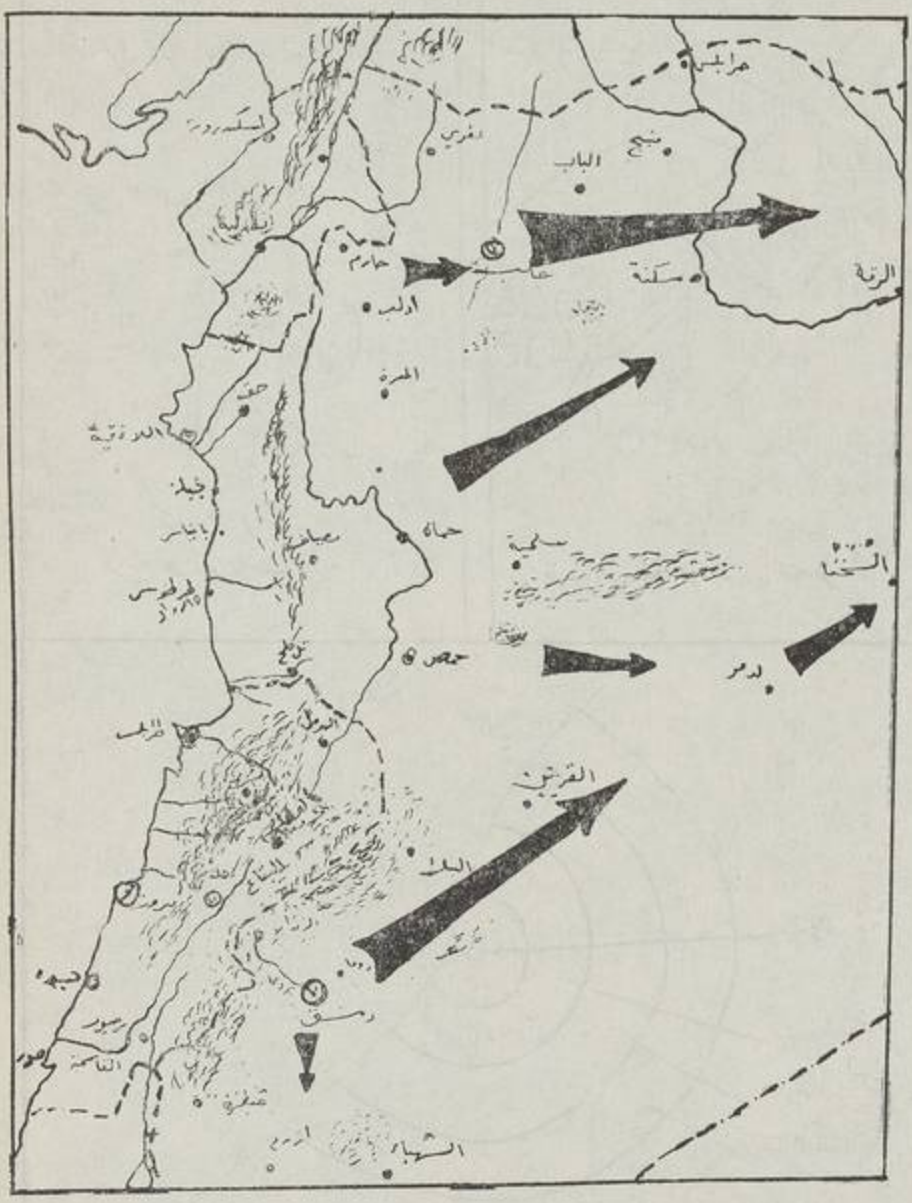

شكل رقم (١)

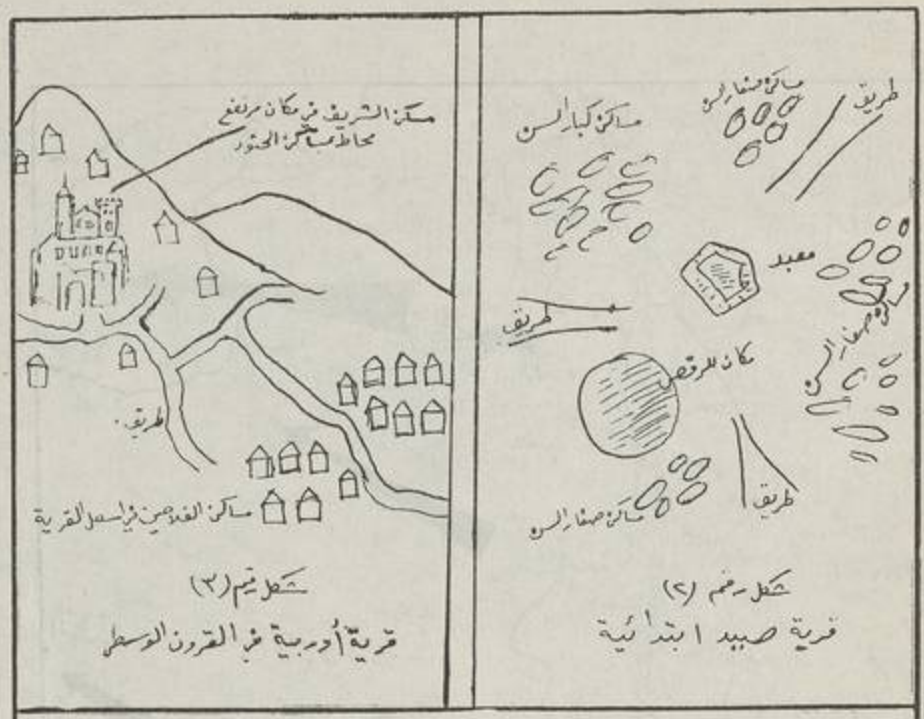

شكل رقم (٢)
قرية صيد ابتدائية

شكل رقم (٣)
قرية أوربية في القرون الوسطى

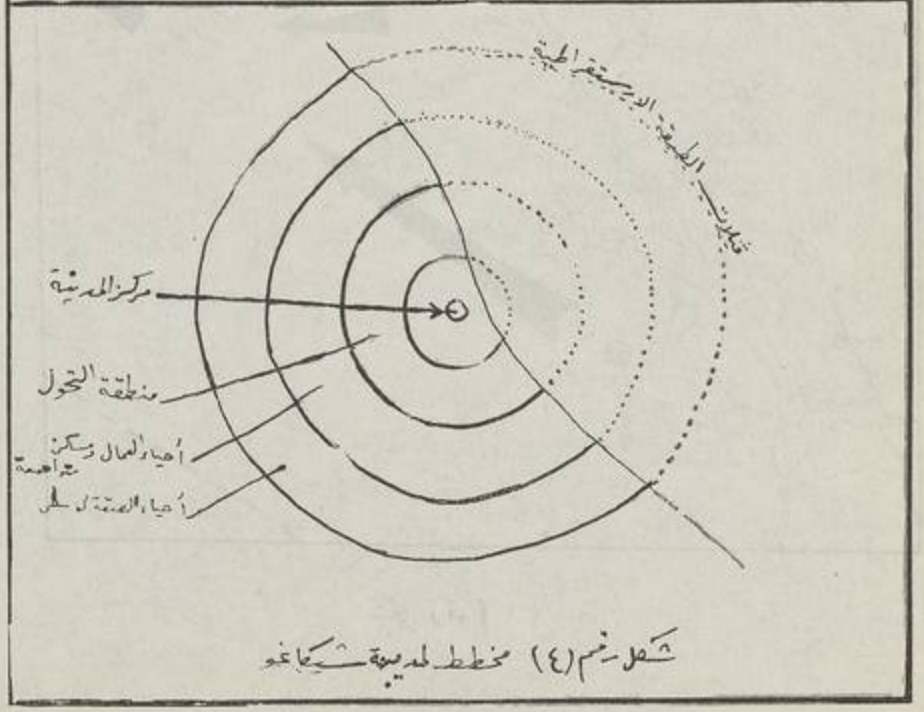

شكل رقم (٤) مخطط لمدينة شيكاغو

البحث الخامس [1]

الريف السوري (القسم الأول)

نموذج من الأرياف السهلية الصحراوية (بادية الشام)

بادية الشام في شرقها صحراء قليلة العمران إلا في بعض الاماكن التي تسقيها الانهار والقنوات كالحسكة ودير الزور وتدمر والقريتين . وضعها التوبوغرافي أقرب إلى الاستواء إلا في بعض الأكمات والوعرات . مناخها جاف الهواء قليل المطر تتوهج فوق ترابها الاحمر الاصفر وقدات الشمس الحارة في الصيف وتهب على جوانبها نوافح البرد القارس في الشتاء ، إلا إذا هطلت الامطار وكانت غزيرة فتغدو البادية أريضة بهيجة ويكثر فيها الكلأ وتجود المراعي (وبعضها جميل زكي الرائحة كالعرار والشيح والقيصوم) . وعلى أثر ذلك تنتشر قطعان الأباعر والاغنام ويسعد ساكنو البيوت المنسوجة من الشعر والتي تخفق الارياح فيها فيحبها البدو حباً خالصاً ويمنحونها من عواطفهم الشيء الكثير .

---

(١) هذا البحث مستقى من الكتب التالية :

- احمد وصفي زكريا : عشائر الشام ، دار اليقظة العربية . دمشق ١٩٤٧
- حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ، عام ١٩٤٩
- العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي . دار الكتاب بيروت ١٩٤٧

والبدو هم ساكنو هـذه البيوت . قال اللغويون : تبدى = نزل البادية وتعلق بالبداوة وربي الابل أو الغنم أو كليهما وارتاد الكلأ ومساقط الغيث . وهؤلاء هم أهل وبر لا أهل حضر ولا أهل مدر .

والبداوة حالة من حالات الاجتماع معروفة في الصحـارى كما هي معروفة في الصحراء العربيـة . وهي ذات وظيفة اقتصادية لأن جماعة البدو يستفيدون من المراعي الواسعـة ويفيدون . فهم يمسحون المساحات الواسعة من العشب الاخضر ليقلبوها بفضل مواشيهم إلى لبن أبيض أو جبن جامد فينقلون إلى أهل الحضر . وهـذه مرحلة من مراحل تغذية الانسان تشبه تحول التراب إلى ثمـار بفضل الشجر وانتقال الثمار إلى الانسان. والبدو يحبون التجول في البادية رغم وحشتها، فيمسحونها لاطعام الابل والغنم التي هي سبب رزقهم ومركز عنايتهم .

ويبلغ البدو في براري الجمهورية السورية نحو (٣٠٠،٠٠٠) نسمة . وهم صانعو السمون وعندهم منبع الاصواف واللحوم التي يستهلكها السوريون في مدن دمشق وحمص وحمـاه وحلب ودير الزور وسواها . وإذا كان التجار من سكان هذه المدن يشاركون عدداً كبيراً من البدو في هـذه الموارد فقسم كبير أيضاً من موارد الدولة يدفعها البدو كضرائب ورسوم عن الاغنـام والابل . فالدولة السورية مدينة لهم وبالمقابل عليها واجب التفكير بمـا تستطيع أن تسديه إليهم من خدمات اجتماعية .

أقسام البدو :

يقسم البـدو في بادية الشـام حسب عراقتهم في البداوة وأطوارها إلى ثلاثة أقسام :

١–القسم الاول: العشائر الجمالة (وهم البدو الاقحاح الاصليون) أو أهل الابل ذوو النجعة البعيدة يقطنون في نجعتهم ٥٠٠–٦٠٠ كيلومتر ويصلون حتى منطقة الوديان داخل الحدود العراقية أو منطقة الخيرات داخل الحدود الاردنية والسعودية. دأبهم الترحال أو التشريق والتغريب بين قفار البادية والبراري ارتياداً للغدران وانتجاعاً لمنابت الكلأ . ويتخذون الخيل لركوبهم والابل لنقل أثقالهم والمقايضة في مبايعاتهم ومهر زوجاتهم . وهم أشد البدو بأساً وأكثرهم تحملاً للمشاق وشظف العيش . ولا يغشون قرى المعمورة ومدنها إلا نادراً وللضرورة في سني المحل والظمأ المسابلة أي للامتهار وشراء حاجاتهم وبيع أصوافهم وأوبارهم والذكور من إبلهم وخيلهم . والمشهور منهم في بلادنا قبيلتان كبيرتان : قبيلة عنزة في براري الشامية وقبيلة شمر في براري الجزيرة وما يتبعها من العشائر العديدة .

٢–القسم الثاني: العشائر الغنامة (وهم الشوايا عربان الديرة) أو أهل الغنم. وهؤلاء ينجعون في الشتاء ولكن إلى مسافات قريبة محدودة في براري الشامية والجزيرة ولا يزيدون عن ٢٠٠ – ٣٠٠ كيلومتر مراعاة لمقدرة الغنم ولقرب الآبار والمناهل الصالحة لورودها . وهم نصف بدو أو نصف رحل وعندهم حل وارتحال وطعن وضرب . لكنهم فريقان فريق لا يرتزق إلا بالضرع أي يرعى الماشية فقط . وفريق ثانٍ يضم إلى الضرع امتلاك الضياع والارضين باستثمارها بالحرس والزرع. والماشية التي يقتنمونها إما أن تكون لهم وحدهم ، وإما أن تكون لأهل المدن السورية في دير الزور وحلب وحماه وحمص ودمشق وسواها يشاركونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها وسمونها التي تدر عليهم في سني الخير ثروة طائلة . والمشهور منهم في بلادنا الموالي والحديديون والفواعرة والنعيم وطي والجبور

والأبو شعبان وغيرهم من العشائر في الشامية والجزيرة .

٣ – القسم الثالث : العشائر المتحضرة والمستقرة (وهم الاعراب الفلاحون = الفلاليح) وقد أصبحوا أهل حضر ومدر وتركوا البادية والبداوة وآووا إلى حمى الدولة . وبعد أن كانت بيوتهم من الشعر أصبحت من الطين والحجر وعكفوا على الحرث والزرع أكثر من تربية المواشي وصاروا أهل قرى . وهم في بلادنا منتشرون في الاقضية وكثير منهم من تعددت أسماؤهم وصغرت أنسابهم وأحسابهم .

تختلف البلاد العربية من حيث نسبة العشائر البدوية . فالمملكة العربية السعودية تعد في الطليعة يعقبها العراق واليمن فشرق الاردن وسورية وفلسطين أما من حيث نسبة الارض الزراعية المهجورة فالعراق تأتي أولاً ثم سورية لأن المملكة العربية السعودية أرضها مجدبة قاحلة . لذلك كانت مصر أكثر استغلالاً من الجميع . وبالامكان جعل العراق وسورية بنسبة كافية استغلالية إذا تنظمت أمور الري بفتح قنوات من دجلة والفرات وإحياء الأنهر المندرسة القديمة كالنهروان والاسحاقي والثرثار وحربة التي كانت تسقي أراضي العراق في العهد العباسي . حينئذ تتسع الاراضي لملايين من البشر وتقسم على أساس الملكية الصغيرة وتتألف القرى المتحضرة التي تقضي على نظام المشيخة . إن اقطاع البدوي الارض يجري بشروط منها تسديد ديونه للبنك الزراعي ودفعه الضريبة المستحقة وانصياعه للخدمة العسكرية ولزوم إشادة أبنية مستقرة له ولعائلته وفق انموذج موضوع من قبل الدولة. وبالامكان أن نبدأ مع البدوي بالطرق الزراعية الابتدائية ثم نتدوج (عن طريق الجمعيات التعاونية) إلى الطرق الميكانيكية .

كان البدو حتى قبيل ٢٠ – ٢٥ سنة يعتمدون على الغزو والسلب والنهب ، ويعتبرون هذه الطرق طبيعية للارتزاق بعد رعي الابل والغنم . إلا أن قوى

البادية في سورية والعراق من راكبي الهجن إلى راكبي المصفحات قضوا على هذه التعديات إلى حد بعيد ومن أجل ذلك أصبح البدوي في حاجة إلى التطور والانصراف إلى الزراعة لايجاد مورد من العيش جديد ثابت . وهنا يبدأ التحضر شيئاً فشيئاً .

الصفات البيولوجية والاسكولوجية :

البدو ذو أجسام نحيفة رجالاً ونساء . وقد تكون ضخمة وقد تكون رشيقة ومنها المتوسط أيضاً . لون البشرة أسمر وأقرب إلى السواد . جباه عريضة بارزة أو عادية . عيون سوداء بصاصة وأسارير مقطبة يحيطها شعر أسود مضفر على الغالب . أما وجوه الرجال فهي على كونها أسيلة تنتهي بذقون مدورة وتحمل لحى مستدقة الطرف . وقلما توشم كوجوه النساء ، بل إن بعض العشائر يعتبرون وشم الرجل عاراً . وينتشر الوشم إجمالاً بين نساء العشائر العراقية إذ يكون رمزاً (١) للعشيرة تعرف به (مثلاً في عشيرة العبودة من لواء المنتفك في العراق يكون وشم المرأة بقعة صغيرة على خدها الايمن ...) .

والبدويات سافرات بالطبع يتجولن في المخيمات والبراري كالرجال . وطبيعة الحياة البدوية تقتضي التلاقي المستمر بين الجنسين سواء في حلهم أو في ترحالهم . ومن نتائجه التعارف والتحاب الذي ينتهي بزواج ، مع العلم أنه محاط بسياج قوي من الصون والعفاف والخوف . وألا تعرض الرجل أو المرأة إلى القتل . وأحياناً

---

(١) الوشم غير الوسم الذي توسم به الحيوانات والبضائع . ويعتبر الوسم رمزاً ايضاً له فائدته العملية . فقد يسم البدوي فرسه وابله والبضائع التي يحملها الجمل . فاذا مات الجمل او حدث للبضائع حادث فانها تبقى معروفة بالوسم الذي له شكل هندسي معين بحسب القبيلة او بطونها وفخوذها . وتوسم عصا الجمل بحرق رأس العصا بالوسم المعين كما توسم الصخور في الصحراء بنقش الوسم عليها كاشارة للآبار التابعة للقبيلة او كحدود لديار القبيلة .

تحصل هوشات يشترك فيها جميع أفراد العشيرة بالتطاحن والتناحر .

إن النساء في البادية أكثر من الرجال عدداً ويرجع ذلك لكثرة وفيات الرجال في الحرب والغزوات . والبدوية تقوم بأكثر الاعمال اليومية . وبينما ترى الرجل طوال النهار وبعض الليل تحت خيمته يشرب القهوة ويقص الاحاديث عن شجاعته تجد نساءه وبناته يشتغلن في رعي المواشي وجمع الاعشاب والحبوب وتأمين الغذاء وحياكة الكسوة والخياطة .

لا تعتني البدوية في جسمها من الناحية الصحية . وهي تهمل النظافة مع أنها تتمتع ببعض الحلى النحاسية والفضية من الناحية البديعية . والحوامل من البدويات لا يتخذن شيئاً من الاسباب المانعة الواقية . فقد يجيئهن المخاض وهن سائرات في الطريق أو أثناء الشغل فيضعن أطفالهن في الطريق وحدهن دون أدنى مساعدة . والولادة التقليدية تجري بقطع الحبل السري بحجر وربطه بخرق قذرة باليـة . أما الوليد فيلف بخرق مملحة أو مرشوشة بالرمل وتحمله الأم على ظهرها وتستأنف سيرها كأن لم يحدث شيء . وأحياناً يغسل المولود أو يدهن بزيت الزيتون . وإذا كانت المرأة ذات المخاض في المخيم يهرع بعض النسوة المتقدمات في السن والقدر ويساعدنها ولا تمضي ساعتان أو ثلاث على الوضع حتى تعود النفساء إلى أعمالها المنزلية المعتادة . وإذا تعسرت عليها الولادة بحيث تخرج بعض الاطراف فقط تأخذ حبلاً وتربط أحد طرفيه بأحد قدميها والطرف الثاني بأحد أطراف الوليد الظاهرة وتشد عليه شداً قوياً حتى تحصل الولادة . وهذه العملية التي يجري فيها سحب الطفل تشبه عملية سحب الطفل بالملقط Forceps التي تجري في المستشفيات الحديثة ، ولكن بطريقة ابتدائية جداً. ولا يخفى على الخبير نسبة عدد وفيات الأمهات والاطفال المرتفعة التي تحدث من جراء هذه الطريقة .

ولا يشهد أحد هذه الولادة أو يسجلها إذ ليس للبدو سجل احصاء للنفوس ومن ثم يبقى المولود جاهلاً الزمن والمكان الذي ولد فيه . وإذا توفي البدوي فيدفن في المكان الذي توفي فيه بكل بساطة وبعد مدة من الزمن تمحى آثار القبر ولا يعرف مكان القبر أو صاحبه . فالحياة الابتدائية تظهر وتنمو ببساطة وتزول كذلك كأنها لم توجد . وما التمدن الحاضر الذي يعنى بالخلود إلا نتيجة المشاريع الكبرى التي قام بها أرباب المدن وحفظوها لنا في آثار ثابتة ونحن نقوم بدورنا لنقلها إلى أحفادنا .

إن الامراض التي تصيب البدوية عقب الولادة عوارض سطحية وقلما ترتفع حرارتها أو يتسمم جسدها . والعلاجات المتبعة تقتصر على شرب ماء الاعشاب المغلية وفصد الدم واستعمال المراهم المحضرة من مخ العظام . غير أن حوادث الاجهاض كثيرة عند نساء البدو . فقد تحصل بضربة اصطناعية أو بحركة خارجية عنيفة ، أو يبلع ماء بعض الاعشاب المستعملة لهذا الغرض . ففي كل الحالات التي يكون فيها الحمل غير مشروع أو في حالات منع الولادة المتعددة تجري عملية الاجهاض . وان وفيات النساء والاطفال من هذه الطريقة عديدة ، ولا سيما عند قاطني ضفتي الفرات وأهم أسبابها الامراض التناسلية كالزهري المتمكن في سكان هذه المناطق منذ أجيال طويلة . ويقال ان هذا الداء منتشر بنسبة ٨ ٪ من السكان وان كل امرأة تجهض ٨ — ١٠ مرات حتى يولد لها مولود واحد حي . ومن نتائج ذلك نقص السكان رغم كثرة الولادات وغنى هذه المناطق الواسعة .

أما أمراض البدو اجمالاً فهي قليلة نظراً لخشونة عيشهم وبقائهم في الهواء الطلق والشمس المحرقة التي تظهر أجسامهم . كذلك التغذية القليلة المركبة من الحليب والحبوب ومشتقاتها واللحم القليل والحلويات التي لا تزيد على التمر تقلل

من أمراض المعدة وعفونتها . ومع هـذا فالبدوية تهرم بسرعة ولا تصل سن الثلاثين حتى يتغضن جلدهـا ويترهل جسدها قبل الأوان ، وقـد تموت قبل الخمسين. وعدم تعمير البدو نساء ورجالاً يرجع إلى أسباب متنوعة منها : ١) تعدد الولادات في النساء ومشاق الحياة بالنسبة للرجال . ٢) تقلبات الطقس السريعة بين الليل والنهار دون امكان التحفظ منه ويكون تأثير التقلب قاسياً في فصلي الربيع والخريف . ٣) سوء التغذية ونقص المواد الفيتامينية في غـذاء الطبقة الفقيرة من البدو . وهو غذاء يحوي قليلاً من الزلال وغني بالمواد النشوية فقط . ٤) انتشار الامراض السارية وغـير السارية : كالسل والزهري والملاريا فضلاً عن أمراض العين . وقـد يصاب البدوي بالأوبئة الخبيثة التي تنتشر في البـادية بسرعة غريبة كالجدري والطاعون والهواء الاصفر . فعند وقوع هذه الامراض يفر من مضاربه تاركاً وراءه مرضاه بعد أن يضع لهم ماء وزاداً . وأحياناً يعهد إلى بعض العجائز بالاعتناء بالمرضى حتى الشفاء أو الفناء .

وللبدو طريقة خاصة في معالجة الجدري إذا كان فردياً . يعزلون المريض في مكان بعيد عن الخيم ويجهزونه بالطعـام والشراب برفقـة بدوي كان أصيب بالجدري . فاذا شفي المريض يغسلونه أو يغسل نفسه بشرط أن يحرق ثيابه أو يغسلها بماء غال ، كما يغسلون النعجة التي زودته بالحليب أو يقتلونها منعاً للعدوى . أما معالجة الجراح كبيرها وصغيرها فتكون بتركها تشفى مع الايام وبعناية سطحية هي عنـاية الحريم في الخيم مع الاستراحة الكافيـة داخل الخيم . وفي أمراض أخرى حين يشتد المرض بأحدهم إلى درجة الخطر واليأس ، يضرمون ناراً في الرمال ثم يجرفون الجمر ويضعون المريض مكان النـار حتى يعرق فيطرد المرض منه . وآخر ما يلجـأ إليه البدوي في فن التداوي هو الكي . فهذا إما أن يحصل بسيخ من الحديد يحمى على النـار ويوضع على محل معين ، وإما أن يحصل

بواسطة خرق ملفوفة تشعل من طرفها وتوضع على المحل المطلوب ، حيث يحدث احتراق من الدرجة الثانية بشكل حويصلات مملوءة بسائل خلايا الجسم . وبعد أن تتفجر ويسيل السائل منها يأمل البدوي الشفاء .

لا يحفل البدو إلا بولادة الصبي . أما البنت فليس لها محل جدير بالاهتمام ، وإذا سئل أب عن عدد أولاده لا يعد إلا الصبيان منهم . على أن الطفل البدوي سواء كان ذكراً أو أنثى ينمو بشكل طبيعي كالجديان والحملان التي تعيش حوله فلا فرق بينه وبينها . وأقصى عناية يحظى بها إنما هي غسل بدنه بالملح أو الرمل حين يكون وليداً . وقد يدهن جلده بالزيت ثم تكحل عيناه ويلف بخرق مشدودة بخيوط القنب ويوضع على رأسه طاقية صغيرة عليها تمائم .

إن تغذية الطفل البدوي تقتصر على لبن أمه وأكثر البدويات قادرات على ارضاع أولادهن لمدة سنتين أو أكثر فلا يلجأن إلى لبن الحيوانات خوفاً من الاسهالات المعوية (مع ذلك فان أكثر وفيات الاطفال لغاية السنة الاولى تكون بسبب الاسهال والتسممات المعوية الناتجة عن أسباب أخرى) . وبعد الفطم يأكل الطفل لبن الحيوانات والخبز والارز وجميع ما يطبخونه في البيت . وقد يعرض أثناء ذلك عدة مرات وربما هلك . وتقدر نسبة الوفيات في هذا الدور ٧٠ ٪ من المواليد .

يترعرع الطفل البدوي دون أن يتمتع بالعطف الأبوي تمتعاً كافياً . وهو لا يتمتع أيضاً باللهو واللعب ومسرات الطفولة زمناً كافياً . تظهر أسنانه بعد الشهر العاشر من عمره ويمشي بين السنة والسنتين ولا يتكلم إلا بين السنة الثانية والثالثة بسبب تشتته الاجتماعي . وعندما يصبح بين الخامسة والسادسة يكلف ببعض الاعمال التي تشغله عن ملذات الحياة. أما لباسه فيقتصر على بقايا الملبوسات البالية القذرة التي كانت لأخوته وأبيه . قدماه حافيتان وتتصلبان من كثرة المشي

على الحصى والاشواك . رأسه محلوق إلا من خصلتين طويلتين تتدليان الاولى على جبينه والثانية تبقى في قمة رأسه (تستخدم كما يزعم بعض البدو كواسطة لسحب روح الطفل إذ يشدها ربه حين الوفاة) . ومع أن البدوي حريص على النسل ويفتخر بتعداد أولاده . فهو لا يهتم ببقائهم . وهو يؤمن بالقضاء والقدر ويعتقد أن وفاة الطفل البريء تشفع له ولعائلته في الآخرة .

إن الحالة الصحية للطفل البدوي سيئة اجمالاً . يظهر بطنه منتفخاً من سوء الغذاء وصدره بارز الاضلاع مقوساً كصدر الدجاج . أطرافه ضعيفة هزيلة ورأسه كبير يقف على عنق دقيق كالقنب . ولا تخلو جمجمته من علامات الخرع. ومن السهل تعداد الامراض المتنوعة التي تصيب الطفل البدوي فهي : ١) الاسهالات بكل أنواعها . ٢) الجدري ، لأن اللقاح لا يزال مجهولاً عند أكثر البدو . ٣) الحصبة وتأتي بصورة عنيفة مع تقلبات الطقس القاسية . وأكثر الاطفال يصابون من جراء هذا الداء بذات الرئة وذات الجنب ويهلكون منها . ٤) الملاريا وهي كثيرة الوقوع . ويقال أن عشر وفيات الاطفال منها . ٥) الزهري وهو متمكن في بعض المناطق كما ذكرنا وينتقل بالوراثة فيحول دون نمو الطفل نمواً صحيحاً ويحط من مناعته . فاذا تعرض لأقل الامراض يهلك منها . ٦) التدرن الرئوي وأمراض الصدر وسواها . ٧) أمراض العين وأمراض الجلد وما ينتقل من آثار القمل والجراثيم المتعددة .

وإذا ما اجتاز الطفل سنته السادسة يصبح في أمان من الاخطار على الأغلب. ومعنى ذلك أن مناعته كافية وهي تنبيء بحياة قوية تبعاً لقانون بقاء الأنسب . فكل من يفلت من قبضة الموت حتى هذه السن له أن يثابر على مصاعب العيش ويزداد أمله بطول البقاء عاماً بعد عام . حينئذ يتمتع بملذات الحياة البسيطة كما تمتع بها آباءه وأجداده . يرعى الابل والمواشي ويركب الخيل والجمال . يتزوج

ويحضر الحفلات ، يرقص ويدبك مع الجماعة . يناضل ويساهم في حياة الرجولة كما تفرضها قواعد الحياة المنعزلة في البوادي .

يمكن تصنيف البيوت التي يسكنها البدو إلى ثلاثة أنواع بحسب نوع الحضارة : ١) الخيام وبيوت الشعر : وهي مصنوعة من وبر الابل وشعر الماعز ومرفوعة على عمود أو أكثر . وكلما زادت أهمية الأسرة زادت أعمدة الخيمة . مثلاً يملك شيوخ العنزة وشمر (ابن شعلان وسواه) خياماً واسعة يقسمونها داخلاً بالستائر المزخرفة إلى غرف تشبه غرف البيوت الحضرية بما فيها من أثاث وسجاد وأدوات القهوة والمطبخ . أما البدوي العادي فيقسم خيمته ذات العمودين أو الثلاثة إلى قسمين . يخصص قسماً لأسرته مع قليل من الادوات والآخر لضيوفه مع قليل من الاثاث . ومن الطبيعي أن تقل أمتعته تسهيلاً للحركات السنوية (رحلة الشتاء والصيف) . ولا يخلو البيت على كل حال من صينية نحاسية يأكل فيها الضيوف لحم الغنم والبرغل (أو الرز لدى القبائل المجاورة للعراق) مع إبريق القهوة المرة ذي المنقار وتوابعه . ٢) البيوت القصبية : وهي بيوت مصنوعة من القصب الطبيعي الذي تتداركه العشائر من الأهوار . يتألف هيكل البيت من حزم قصبية مرتبطة بشكل أقواس منحنية ، خمسة أقواس أو أكثر . وكلما زادت أهمية الأسرة زاد عدد أقواسها . يصنع السقف أيضاً من القصب الذي تزداد كثافته في الشتاء وتقل في الصيف مع فتح الجوانب بما يشبه النوافذ . ٣) الأكواخ : وهي بيوت مصنوعة من القصب والبردى يسكنها الفقراء لأن البردي يحصلون عليه مجاناً من الأهوار حين يخرج أحدهم بقاربه الصغير ليجرد منها ما يحتاج اليه. ويسكنها أيضاً (في نواحي العراق) المتوطنون الذين يزرعون الرز ويربون الجاموس قرب الأهوار .

الصفات الاجتماعية والنفسية :

يفيدنا قبل تفصيل هذه الصفات أن نذكر طريقة من طرائق البحث الاجتماعي في هذا الموضوع . وهي مثال واقعي قامت به بعثة دولية عام ١٩٤٩ . بعض أعضائها من جمعية الصليب الاحمر الدولي وبعضهم من الجامعة الامريكية ببيروت وبعضهم من المؤسسة الصحية العالمية . وقد أجرت البعثة بحثها في أحد معسكرات اللاجئين في جنوب سورية في بعض القبائل الفلسطينية التي نزحت حديثاً من الجليل الأعلى . ولم تبحث البعثة في تاريخ هذه القبائل خوفاً من الشك الذي قد يتسرب إليهم بأن هذا البحث له علاقة بقضية إعادتهم للوطن . وعلى العموم يمكن اعتبارهم طبقة من الزراع انحدرت حديثاً من البدو الرحل منذ ٥٠ — ٧٥ سنة تقريباً .

اهتمت البعثة بجمع المعلومات عن الحالة الاجتماعية والعادات الخاصة بهذه القبائل كما اهتمت بمعرفة نسبة الاصابة ببعض الامراض المهمة . أما المعلومات عن الحالة الاجتماعية فقد حصل عليها بالتحدث إلى ٢٠٠ رجلاً من أرباب العائلات بينهم ٢٠ مختاراً (رئيس عشيرة) و ١٠٠ امرأة من السيدات . وكانت مناقشة الرجال تجري في مجموعات تتكون من ٨ — ١٦ نفراً بحضور رئيس عشيرتهم (المختار) وكانت تلقى عليهم الاسئلة من أوراق مطبوعة يقرأها طبعاً بعض أعضاء البعثة . وللتأكد من صحة المعلومات التي جمعت بهذه الطريقة ، أعيد سؤال ٢٠ ٪ من الرجال ذوي عائلات أكبر من المتوسط . فحضر من الاربعين رجلاً الذين طلبوا المقابلة ٣٦ رجلاً ، ومن هؤلاء ٥٠ ٪ أعطوا إجابات مطابقة للأصل تماماً و ٢٣ ٪ أخطأوا أخطاء تافهة (كالاختلاف في عمر الطفل عند وفاته) و ١٧ ٪ أخطأوا أخطاء كبيرة في إجابتين (كالاختلاف في معرفة عمره

نفسه أو عمره أثناء زواجه) .

فاذا أخذنا مجموع عدد الاطفال وعدد الاحياء والاموات منهم كأرقام للمقارنة بين المعلومات التي نتجت عن المقابلة الاولى والمعلومات التي نتجت عن المقابلة الثانيـة وجدنا ان الخطأ لا يتجاوز ٥ ٪ ولمـا كان متوسط عـدد أفراد العائلة الواحدة حوالي عشرة أفراد فانه يمكن اعتبار النتائج التي جمعت بهذه الطريقـة صحيحة في مجموعها وجوهرها .

١ — وجد أنه من بين ٢٠٠ رجلا سئلوا عن موضوع (تعدد الزوجات) اثنان وثلاثون أي ١٦ ٪ أجابوا بأن لهم أكثر من زوجـة واحدة وكان أقصى عـدد لهذا التعدد هو أربعة ، وفي معظم الحالات كان الزوج يفرد لكل زوجة حجرة أو خيمة مستقلة ، إلا أن رجلاً واحداً أمكنه أن يجمع زوجاته الاربعة بأطفالهم في خيمة واحدة مفرداً لكل منهن ركناً من أركان الخيمة .

٢ — في موضوع (سن الزواج) لوحظ أن الرجل العـادي لا يعرف بالتأكيد عمره أو سن زواجه ، وهو إذا سئل أعطى رقمـاً من مضاعفات الرقم ٥ كأن يقول ٢٠ أو ٢٥ ، الخ ... ومن بين الـ ٢٠٠ رجلاً الذين سئلوا عن سن زواجهم اتضح أن أصغر سن كانت ١٤ سنـة وحدث ذلك في حالة رجل واحد ، و ٦ ٪ منهم تزوجوا في سن ١٥ سنة ، و ٢٥ ٪ في سن ١٨ سنة ، و ٥٩ ٪ في سن ٢١ سنة ، ويقابل ذلك ٩ ٪ تزوجوا في سن الثلاثين أو بعد ذلك .

٣ — في موضوع (الطلاق) رغم أنه يجري بسهولة حسب العادات المرعية بين القبائل فقد لوحظ أن نسبته ضئيلة في هذه القبائل بشكل خاص . إذ وجدت ثلاث حالات فقط من بين الـ ٢٠٠ رجلاً أي بنسبة ١٫٥ ٪ لذلك يجوز افتراض بعض الفرضيات لتعليل هذا الشكل الخاص .

٤ — في موضوع (عدد الاطفال) دلت المعلومات على أن الـ ٢٠٠ رجلا لهم ذرية تبلغ ١٣٤٤ طفلاً كان يعيش منهم أثناء بحث البعثة ٨٩٣٠ . ومن الاطفال الذين توفوا ١٣٠ أي ٩،٧ ٪ ماتوا في السنه الاولى من حياتهم (أي أن نسبة الوفيات بين الاطفال تبلغ ٩٧ في الألف) . وبعض هـذه الوفيات حدث نتيجة للحرب أو لما تبع ذلك من تشرد اللاجئين وتنقلاتهم ، فمن بين الـ ١٣٠ طفلاً المتوفين ٢٤ طفلاً ماتوا في المدة بين ترك الوطن وتاريخ هذا البحث : (مما يقلل النسبة الخاصة بوفيات الاطفال ويجعلها ٨٠ في الألف ولو أن بعض هؤلاء الاطفال ربما قد كان توفي على أية حالة ...) .

ويمكن القول على العموم أن ١٠ ٪ تقريباً من مجموع الاطفال يموتون في السنة الاولى من حياتهم وأن ٢٠ ٪ يموتون في الخمس السنوات الاولى من الحياة. وقد دلت المعلومات عن العائلات الكبيرة التي لها سبعة أطفال أو أكثر (ويوجد ٧٢ عائلة من هؤلاء) أن ٩ عائلات بينها أي ٢،٥ ٪ أمكنها أن تربي جميع أطفالها بدون خسارة واحدة ومن هذه العائلات من لها تسعة أو عشرة أطفال — وهي جهود لا يستهان بها — أما الباقي فنذكر منه ٢٣ عائلة أي ٣٣ ٪ من مجموع هذه العائلات ، قد فقدت ٥٠ ٪ أو أكثر من أطفالها .

٥ — في موضوع (التعليم) لوحظ اختلاف درجاته بحسب الاحوال المادية . كما لوحظ أن الأمية منتشرة جـداً ولو أنه لا يمكن بالتحديد اعطـاء رقم يمثل نسبتها . وهي تكاد تكون تامة عند بعض الاطفـال والشبان حتى أنهم لا يعرفون شيئاً من القرآن الكريم ولا يحفظون منه أي سورة .

ويدخل الاطفال المدارس الابتدائية في سن الثانية عشرة، وذلك في القرى التي توجد بها هذه المدارس . وقليل جداً من أبنـاء القبائل الموسرة من يدخل مرحلة الثانوي . أما تعليم البنات فانه قاصر فقط على عدد قليل من بنات الاغنياء .

وبالرغم من عدم وجود أفكار تعصبية ضد تعليمهن إلا أن الاهلين يرون أن ليس هناك فائدة تعود إلى البنت من التعليم .

وفي القرى التي ليس بها مدارس يتجمع الاطفال عند الشيخ أو الامام الذي يلقنهم مبادئ القراءة والكتابة ويحفظهم بعضاً من القرآن الكريم . ومع هذا وبالرغم من تفشي الأمية فان الكبار وضعوا التعليم في قائمة المطالب الهامة الرئيسية التي يطلبون تحقيقها .

٦ — في موضوع (العائلة والزواج) بحثت البعثة عن سعة العائلة أولاً فاتضح أن متوسط عدد الاطفال في كل عائلة يبلغ ٤ — ٥ أطفال . وهي عائلة واحدة فقط بلغ ٢٥ طفلا لم يبق منهم حياً إلا ١٦ طفلا .

وعادات الزواج تختلف كثيراً بين قبيلة وأخرى . ففي بعض الاحيان يستقل الشاب مع زوجته عند زواجها بمنزل أو خيمة خاصة ، وفي أحيان أخرى يبقيان مع العائلة القديمة لمدة طويلة حتى تكبر العائلة الجديدة فتستقل . وقد لوحظ أن ٦٠ عائله أي ٣٠ ٪ تعول واحداً أو أكثر من الاقارب الكبار في السن .

أما تكاليف الزواج فهي مرتفعة بشكل خاص في هذه القبائل خلافاً لما يتوقعه الباحث الاجتماعي . وهذه التكاليف بالنسبة للرجل العادي في القبيلة تعتبر البند الرئيسي في ميزانية حياته كلها . ومع اختلاف قيمة المهر بين قبيلة وأخرى فان المتوسط هو (١٥٠) جنيهاً فلسطينياً للقريبة و (٣٠٠ — ٤٠٠) جنيهاً للغريبة . ووجوه انفاق هذا المبلغ تختلف بين قبيلة وأخرى ، وعلى العموم يكون التصرف فيه من حق والد العروس الذي يعطيها منه مبلغاً لشراء الحلى والصندوق وبعض الاثاث ، وما يبقى يتصرف به حسب حاله المادية وكرم سجيته . وهي قبيلة واحدة لوحظ أن والد العروس يدفع مبلغاً مماثلاً لما يدفعه العريس وكلا المبلغين

يعطيان لها ، وفي قبيلة أخرى يدفع المهر للعروس وهي التي تعطي والدها ما يتراءى لها . وقد كان واضحاً أن ما تحصل عليه العروس من والدها يختلف كثيراً بين حال وأخرى .

٧ – في موضوع (مركز المرأة) سبقت الاشارة إلى أن البنات لا يحظين بالتعليم . وذكرنا أيضاً أنهن في نظر آبائهن أقل حظوة ومنزلة من البنين . وهو ما لوحظ في بحث البعثة عند سؤال الأب عن عدد أطفاله . فكثيراً ما يذكر عدد الذكور فقط ولا يذكر عدد البنات إلا إذا سئل عنهن . وربما كان ذلك عن خجل منه أو عادة خلقية في القبيلة . وقد عرض بعضهم طفلة للبيع على عضوة من عضوات البعثة بمبلغ زهيد .

على أن نظام التملك يعطي للنساء حقوقاً . فعند الزواج يكون الاثاث والحلى ملكاً مشتركاً للاثنين ولا يجوز للزوج أن يتصرف في شيء منه إلا بعد موافقة الزوجة . وعند موت الزوج ترث الزوجة ثمن أمواله وعقاره وتكون في العادة وصية بالباقي لأطفالها ، إلى أن تتزوج ثانية .

صفات أخرى اجتماعية نفسية :

ينتج مما سبق أن الحالة الاجتماعية والعادات الخاصة تختلف كثيراً بين قبيلة وأخرى في مجموعة من القبائل نزحت عن بقعة صغيرة . فما قولنا في مجموعة من القبائل كثيرة العدد عديدة المناطق ؟ فالمعلومات التي نحصل عليها (بتفصيلاتها الخاصة) في منطقة معينة لا يمكن تطبيقها في مناطق أخرى إلا من قبيل التقريب فهي معلومات نسبية كسائر المعلومات الاجتماعية التي يسجلها الباحثون . أما المعلومات التي نحصل عليها (في خطوطها الكبرى) فهي مشتركة إجمالاً . وفيما يلي معلومات من النوع الأخير مستقاة من مجموعات أخرى في البادية ، اتماماً للبحث

وتنويراً لبعض النقاط الهامة :

١ — في موضوع (الزواج والطلاق) يجوز دفع المهر نقداً ويجوز دفعه من المواشي وأحياناً من الحلى والمجوهرات التي يتميز بتقديمها الاغنياء فقط . ومن مفاخر بعض البدو أنهم يسمحون لبناتهم قبول طالب الزواج أو رفضه وهم يفتخرون بهذه العادة على أهل القرى والمدن . ولا حاجة لاقامة المراسيم باحتفال الزواج ، بل توجه بعض الاسئلة القليلة بحضور أهل العريسين فيجاب عليها وينتهي العقد . ثم يولم العريس وليمة الزواج بينما تنتقل العروس إلى خيمة أمه حيث يلتقي بها .

وأهم صفة تستحب في المرأة هي قدرتها على انجاز واجباتها البيتية وتلبية جميع حاجات العائلة داخلياً. أما واجبات الرجل فهي حماية بيته وممتلكاته والدفاع عنها . وإذا نشأ خلاف بين الزوج والزوجة ، فيستطيع الزوج أن يطلق زوجته . ومن الاسباب المبررة لذلك عقم الزوجة . وإذا كان للزوجة شكوى هامة ضد زوجها ، تترك خيمتها وتلجأ إلى خيمة قريب أو صديق فتدخل تحت حماية زوجته ثم يدعى والد الزوجة فيأتي ، وهنا إما أن يجبر ابنته على العودة إلى بيت زوجها ، أو أن يحاول الاصلاح والتوفيق بينهما . فاذا فشل وأصرت الزوجة على الطلاق ، وجب إذ ذاك على أهلها أن يعيدوا إلى الزوج جميع المهر الذي أخذوه . وبعد ذلك يحق لها أن تتزوج مرة ثانية إذا لم تكن حاملاً . واذا طلق الزوج زوجته بدون سبب شرعي (كسوء السلوك أو العقر مثلا) فيحق لها أن تأخذ معها حمل جمل كامل من أملاك زوجها وجميع ما حملته له يوم زواجها .

٢ — في موضوع (الغزو والحرب) تقوم جميع عادات البدو على فكرة المحافظة على قواتهم الحربية . وهذه الفكرة نتيجة لغريزة حب البقاء وتنازع البقاء الذي بمقتضاه يحافظ كل بدوي على حريمه وأولاده وحيواناته . لا شك أن

« العصبية » تؤدي وظيفة حيوية واقتصادية ، غير أن الشيء المبالغ فيه هو وجود صداقات ومحالفات بين بعض القبائل المتجاورة وعداوات وثارات قديمة جداً بين البعض الآخر . ولا تتوقف سلامة القبيلة إلا بالمحافظة على القوات الحربية والمبالغة في هذه المحافظة . وعندما ينوي البدو القيام بغزوة ، تؤخذ الاستعدادات وتوضع الخطط حالاً ، ثم يعين المشتركون في الغارة قائداً لهم يكون عادة من عائلة الشيخ يختارونه لأنه عارف بتلك المنطقة أو لأنه قام بخدمات جلى في هذا المضمار .

إن نظام القبائل الاجتماعي مزيج غريب من الاقطاعية والديموقراطية . فالشيخ الحاكم هو اجمالاً من العائلة المتزعمة في القبيلة التي تقرر أن يحكم من كانوا من أبنائها . أما العادة المتبعة نهي أن يحكم ابن الشيخ الاكبر فيحل محل والده ، ولكن ذلك ليس شرطاً . فاذا كان الوارث ضعيفاً محتقراً بين القبيلة انتقل الحكم إلى أخيه أو أحد أبناء أعمامه ويتم ذلك برضى الجميع . ويحذر الحاكم دائماً أن لا يسيء إلى الرأي العام في القبيلة وإلى العادات والتقاليد المعترف بها في الصحراء . أما الصفات الضرورية لزعيم القبيلة والتي تضمن له النجاح فهي الشجاعة والغنى والكرم والعدالة . ويخاطب الشيخ عادة باسمه الاول (الشيخ فلان) وإذا كان المتكلم أكبر منه سناً فيخاطبه بدون لقب شرف ، وبشيء من عدم الكلفة . منادياً إياه يا أبا فلان (مسمياً ابنه الاكبر) . كقولهم أبو فيصل أو أبو علي للملك حسين .

٣ — في موضوع (مجلس البدو) يعتبر بيت الشيخ نادياً لرجال القبيلة ولا سيما إذا قدم ضيف من الحضر . فاذا ما رأوه انسلوا من كل حدب وصوب وجاءوا لرؤيته وقعدوا حوله يرهفون آذانهم لأقواله وأخباره الطريفة . وهذا ما يسمونه (علوم) . وإذا لم يكن في بيت الشيخ ما يتسلون به من القصص

والاخبار يأخذ شاعر القبيلة ربابة يضرب عليها ويفكههم من محفوظه أو نظمه بأشعار يدور أكثرها حول المآثر والمفاخر التي جرت لمشاهير الفرسان والغزاة كما يدور بعضها على وقائع الحب والهيام ينشد الشاعر كل ذلك بلهجتهم البدوية وأنغامهم الفطرية بأسلوب لطيف شجي يتوافق مع رنات الربابة وترنح له أعطافهم حماساً وطرباً . وما عدا هذا النشيد فان لديهم ألعاباً يتسلون بها كسباق الخيل يطلقونها ليروا الفائز منها أو العراضة وهي اجتماع الخيل مستعرضة تلعب أمام نساء العشيرة أو الرقص الذي يجرونه في الاعراس وحفلات الختان وفي أيام الربيع وأوقات المتعة والراحة .

من مميزات البدو في الصحراء والبادية حبهم للضيافة . والقول السائد بين البدو هو : « إن الله قد وهبنا هذه الخيرات فهي للجميع » . وترجع عادة الضيافة إلى عهود قديمة وهي وإن كانت معروفة منذ عهد الآباء والبطارکة القدماء غير أنها ترجع إلى ما قبل هذا العهد . يأتي الضيف للمفاوضة بشروط الصلح أو ترتيب الفدية عن قتل أثناء الغزو أو الأخذ بالثأر ، فلا يسأل عن مهمته إلا بعد تناول الخبز والملح ، بل لا يبحثون المسائل الهامة إلا بعد العشاء وأحياناً تؤجل حتى الصباح رغم تشوق الطرفين إلى طرحها على بساط البحث والوصول إلى حلها .

على الرغم من اتفاق أهل القبيلة واتحادهم أثناء الخطر الخارجي فانهم كثيراً ما يختلفون داخلاً بعضهم مع بعض. وهم أناس متعصبون متحزبون حتى في الأمور الثانوية . والخلافات التي تنشأ بينهم يومياً تحال في الصباح إلى المجلس (مجلس الشيوخ) حيث يعرض البدوي قضيته ، فيدافع أنصار كل بدوي عن قضية صديقه بكثير من الضجة والحماسة . ولكل من حضر حق ابداء النصح لأن محكمة البدو هي محكمة حرة ويتاح للبدوي أن يقف أمام الشيخ الحاكم ويناقشه

كفرد ويدافع عن حقه بكل ما أوتي من صراحة . ثم يجتمع الشيخ بعد استماع القضية بالشيوخ الآخرين والمتقدمين في القبيلة فيتخذون حكمهم بدون تحيز أو رشوة وحكمهم مبرم نافذ لا يقبل الاستئناف . وقلما يخطئ الشيوخ في حكمهم لأن بيئتهم صغيرة وكل منهم يعرف كل شيء عن حياة الآخرين وأعمالهم. ويستطيع الشيخ الحاكم بجلسة واحدة أن يحل أي نزاع إلا إذا تغيب أحد الشهود فيضطر إلى تأجيل الحكم لجلسة أخرى. وإذا ما صدر الحكم يدفع البدوي ما يترتب عليه من الغرامات بحسب قرار المجلس وإلا ينفى من القبيلة ويصادر الشيخ مواشيه .

٤ ــ في موضوع (أخلاق البدو) تختلف القبائل بالاخلاق والسمعة . بعضها حسن السمعة قوي الشكيمة وبعضهم خلاف ذلك . قال الأب (لامنس) المستشرق المشهور : « يستحيل علينا أن نحسب البدوي متوحشاً رغم مظهره الخشن . فان حزمه وثباته وسرعة خاطره وقدرته على استقبال الضيف كل ذلك يجعلك تشعر أنه (جنتلمان) بالفطرة . وإذا وضعته في ظروف ملائمة فبامكانه أن يقتبس بسرعة فائقة أرقى تطورات المدنية الحديثة . وقد أعد البدو للعالم ملوكاً لبابل ، ومشرعين مثل حمورابي ، وامبراطوراً لروما مثل فيليب العربي ، كما أعدوا أمثال زنوبيا التي حكمت الشرق العربي برهة من الزمن . وقد بنى هذا العربي تدمر والبتراء وسيطر على التجارة داخل آسيا . وإذا سلمنا أن اللغة تعكس عقلية الشعب الذي ينطق بها ، فتدل اللغة العربية على أن البدوي ليس متوحشاً ، فقواعد لغته غاية في الدقة ولغته غنية بالمصطلحات والمفردات ذات المعاني العميقة».

يشعر البدوي بأنه فرد من أفراد القبيلة ويطيع رئيسه أو غيره من الرؤساء الذين يشرفون على أمور القبيلة في حالة الحرب أو السلم . وقد يدفعه اخلاصه للقبيلة إلى مناصرة منافس لرئيسه الشيخ فتنشق القبيلة في ظروف كهذه ولكن انشقاقها لا يدوم أكثر من بضع سنوات محدودة . وإلى جانب الشعور القبلي

الذي يقوى في البدوي فردياً فان شعوراً آخر بالواجبات الانسانية لا يفارقه . فهو كريم مضياف كما ذكرنا ويعنى بتوطيد الصداقة مع ضيفه واستمرارها في المستقبل طالما قد شاركه في الخبز والملح . ورغم أن البدوي لا يعنى بولادة البنت ولا يفخر إلا بالذكور ، فهو يحترم المرأة ويصونها من التعدي . فالمرأة محاطة بالسلام ولا يمسها البدوي بأذى مهما بلغت الخصومة بين القبائل . وبناء على هذه الحرمة إذا قتلت امرأة لا تودى بدية واحدة بل بأربعة إلى ثمانية ديات بالنسبة لحال الجريمة . ومن صفات البدويات عزة النفس وشدة التعلق بالأهل والأزواج وقيامهن مقامهم في ضروب المتاعب فضلاً عن مساعدتهن لهم أيام الحروب والغزوات . وقد يصبرن معهم على الجوع والظمأ ولو في حمارة القيظ ويتخذن الارض فراشاً ولو أثناء الشتاء .

وإذا كان نظام البدو مزيجاً من الارستقراطية والديموقراطية، فالارستقراطية لا تبدو إلا في ظاهرات محدودة كالحكم ورياسة القبيلة ومراسيم الزواج . أما الديموقراطية فمجالها أوسع في شتى نواحي الحياة اليومية . فالفرد وشيخ القبيلة والأمير يأكلون جميعاً الارز والبرغل واللحم واللبن والتمر على طراز واحد ويلبسون الثوب والعباءة والعقال والكوفية ويتمتع أفرادهم بحرية لا حد لها . واجمالاً يمتازون بالزهد بالنسبة لمظاهر الدنيا ، فلا يلبس أحدهم إلا ثوباً واحداً أو ثوبين يبدلهما مرة واحدة في العام بمناسبة عيد الفطر إذا كان مسلماً أو عيد الميلاد إذا كان مسيحياً .

يرجح البدوي أن يموت في ساحة القتال ، وإذا مات في المخيم موتاً طبيعياً فالحزن شديد والغم شامل . على كل حال يكفنون الميت بقماش بسيطة سواء كان أميراً أم فرداً عادياً ، ثم يدفنونه في حفرة عادية إلى جانب أمثاله . وقد يرصفون فوق الحفرة حجارة حفظاً للجثة من الطيور والحيوانات ويغرسون حجراً قرب

الرأس ليدل عليه . ومن السهل أن تزول هذه الآثار بعد زمن قصير .

التغيرات الحديثة في حياة البدو :

لن يقطن الصحراء أحد غير البدو ، إلا إذا انتشر الري وأصبحت الصحراء القاحلة أرضاً . وإذا انتشر الري تحسن الاحوال الصحية بدون ريب . وأهم من ذلك تحسين نظامهم الاقتصادي بتنظيم تجارتهم على أساس تعاوني ، وإلا فيبقون تحت رحمة التجار الظالمين والمرابين الطامعين . وفي المستقبل القريب ينقلون منتوجاتهم إلى المدن على السيارات عوضاً عن الجمال ويضمنون بذلك السرعه والتوفير ، ومنذ الآن بدأت الاغنام توضع في السيارات لتسير في يوم واحد ما كانت تسيره سابقاً في أسبوعين . وعندما تصبح وسائل النقل والسفر تحت سيطرة الحكومة (الخطوط الحديدية مثلاً) يصبح في مقدور تجار المدن الذهاب بأنفسهم إلى مخيمات البدو ليعقدوا صفقات البيع. وبقليل من التحسينات الاقتصادية تزداد موارد البدو ، ولعل أهم هذه التحسينات تنظيم المراعي وملاجئ المواشي مع استثمار آبار المياه بطرق علمية . وسوف يمهد لهذا الاستثمار استثمار ينابيع البترول . كما أن السيارات والطيارات سوف تكون عوامل قوية في توطيد الأمن وتغيير مستقبل القبائل البدوية ، وبامكان كل واحد منكم أن يتنبأ بما يخبئ لهم الدهر !

فالسيارات تمكن الجنود وجباة الضرائب وموظفي الحكومة من قطع الصحراء بسرعة فيلحقون بالقبيلة أنى تكون . والطيارات تستطيع اكتشاف مقر أي قبيلة منعزلة . لذلك يعتقد شيخ قبائل شمر في شمال العراق ، وهي من أكبر القبائل العربية ، أن الغزو سيبطل ثم يتساءل ما معنى استمرارنا في القتال والقضاء على اخواننا وبني جنسنا ؟ ويفتخر أن قبائله لم تشن غزواً منذ عدة

سنوات . وقد وافق الملك ابن السعود على فكرة منع الغزو ، فمنعها في بلاده . أما الوسيلة الاولى التي تستطيع بها الحكومات أن تسيطر على البدو فهي تقوية الآبار ومصادر المياه لأن البدوي يضطر إلى النزول عند رغبة من كان مسيطراً على المياه . وإذا قلنا مياه نقول أيضاً كهرباء .

إن النقل بالوسائل الحديثة بدأ يؤثر فعلاً في حياة البدو . ففي كثير من المناطق كان البدو يؤجرون جمالهم لنقل الحنطة إلى أسواق المدن ، أما الآن فتنقل الحنطة بسيارات الشحن والقطارات. وقد كان البدوى في الماضي لا يعرف إلا حياة الصحراء فتكيف على حبها وألفها ، أما الآن فصار يستخدم وسائل النقل السريعة الرخيصة ويزور المدن الكبيرة مستوحياً منها عدم الرضي على شظف العيش الربي ومتاعبه . ويتأثر البدوي الساذج ، في أغلب الاحيان ، بمفاسد المدينة وشرورها مثل الفسق والشرب والمقامرة والتمادي في الأكل وتناول المخدرات . أما الذين نشأوا في المدينة فهم غالباً أقدر على تجنب هذه التجارب من الذين يرتمون في أحضانها دفعة واحدة. ويستطيع التجار اليوم أن يحملوا بضائعهم بسهوله إلى مقر القبائل فتزداد حاجة البدو رجالاً ونساء إلى مستحدثات المدينة فاليوم تجدون مثلاً أن الاحذية ذات النعال المصنوعة من مطاط السيارات تملأ الصحراء بينما كان سكانها حفاة من قبل . وتجدون النظارات السوداء ، كما تجدون سيارات الشيوخ القوية التي كثيراً ما يستعملونها في الغزو بدلاً من الخيل العربية الاصلية . أفلا ترون إذن أن التقاء حضارتين عند أهالي الصحراء قد يفسد عليهم نواحي كثيرة من حياتهم السعيدة ؟ أفلا يوقعهم ذلك في حيرة الاختيار بعد زمن ؟ وماذا سوف يرجحون ، حضارتهم أم الحضارة الثانية المغرية ؟

بامكانكم أن تجيبوا على مثل هذه الاسئلة : وها هم أولاء بعض الشيوخ يرسلون

أولادهم إلى مدارس المدن فيتعلمون لغات جديدة وثقافات جديدة . إنهم يتعرفون على مستويات من العيش مختلفة ويطبقون أساليبها كالاستحمام بالدوش والأكل بالشوكة والنوم على فراش وثير وارتداء الملابس الفرنجية وقراءة المجلات المصورة والتمتع بأفلام السينما والتحدث إلى الناس بآراء طريفة . فماذا يفعل هؤلاء الابناء إذا رجعوا إلى قبائلهم ؟ هل يصبرون على الحرمان من الفواكه والخضر ويثابرون على الاقلال من الثقافة ومتع الحياة فتضيق بأعينهم الدنيا ؟ لا شك أنهم يرجحون الرجوع إلى المدن ولكن إذا صعب عليهم ذلك فماذا يفعلون ؟ إنهم بلا ريب يندفعون إلى تحقيق ما يمكن تحقيقه من رغباتهم في الصحراء نفسها. فالاتصالات المستمرة بين المدن والبوادي تجعل تطوير البدو أمراً محتوماً لا بد منه يوماً ما . ولكن البوادي لا تزال كما كانت منذ آلاف السنين ولا يزال قاطنها يعيش في خيمته التي صنعها من شعر الماعز والجمال ، ولا تزال أغنامه ومواشيه ترعى بالطريقة القديمة ذاتها وفي الاماكن المطروقة عينها . فالى متى يدوم ذلك وكيف يتم التطوير ليحقق الراغبون رغباتهم ؟

مسألة تحضير البدو :

عليكم أن تجيبوا على الاسئلة السابقة بأنفسكم ومجال الاجابة ذو سعة . ولعل قصة القوم العربي في كل مجلس هي هذه القصة . وسوف ألخص لكم بعض المقترحات التي تعرض لها بعض الباحثين العرب في اجتماعهم صيف ١٩٤٩ في لبنان وقد نشروا تفصيل جميع جلساتهم في كتاب عنوانه : « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية عام ١٩٤٩ » . وهذه خلاصة بعض المقترحات بشرط أن تضيفوا إليها ما تضيفون وتتوسعوا ببعضها ما يتاح لكم التوسع فيه (١) :

---

(١) مثلاً تأسيس نوادي كالنوادي الامريكية المسماة (4 H-clubs) لأن لها اربعة

١ ــ توطيد الأمن في البوادي بحيث إذا أراد المزارعون استثمارها على طريقة الزراعة الواسعة فانهم يجدون في عملهم الاطمئنان الكافي والضمانة اللازمة لقطف ثمرات جهودهم . ولا يتم ذلك إلا إذا وجد البدو فوق رؤوسهم حكومات قوية تطبق القوانين الصارمة بحزم وتسهر على مصلحة المزارعين باستمرار .

٢ ــ انشاء قرى نموذجية وبناء مساكن صحية لا تتأثر بالعوامل الطبيعية السريعة التقلب في البوادي ، واعداد الشرطين الاساسيين الماء والكهرباء .

٣ ــ توزيع الاملاك العامة بين البدو توزيعاً عادلاً بحيث يحصر البدوي جهوده في فلاحة أرض معينة وتربية مواشي معينة . وبهذه الطريقة تنتفع الدولة من احياء الاراضي واستغلالها فتزيد الثروة العامة وتؤدي إلى توسيع المشاريع شيئاً فشيئاً .

٤ ــ تعليم البدو الاساليب الزراعية الحديثة وامدادهم بخبراء فنيين وبآلات زراعية وفسح المجال لاحتكاكهم بالمزارعين في المناطق المجاورة ليتعلموا منهم فنون الزراعة ويتعودوا على الحياة الحضرية فيتذوقوا هناءها. والانسان بالفطرة لا يؤمن بالنظرية حتى يلمس نتائجها الواقعية لمساً محسوساً .

٥ ــ انشاء المؤسسات الصحية في الدرجة الاولى للأم والطفل ومراقبة حياتها الداخلية وتعويد أفراد العائلة على النظافة واللجوء إلى الطبيب عند الحاجة مع تلقيح أكبر عدد ممكن من السكان ضد الامراض السارية والأوبئة الخبيثة .

٦ ــ تطبيق مبدأ التعليم الالزامي المجاني وفتح المدارس الليلية في المدن لايواء الاطفال البدو واخراجهم من بيئتهم موقتاً لخلق روح النظام في نفوسهم

اهداف تبدأ بحرف الـ H اولاً الرأس Head ثانياً اليد Hand ثالثاً القلب Heart رابعاً الصحة Health ويتعهد العضو بقوله : « أتعهد بأن أكرس : رأسي لتفكير أوضح ، وقلبي لاخلاص أعظم، ويدي لخدمة أكبر، وصحتي لحياة أفضل - في سبيل النادي ومجتمعي وبلادي».

وحب الاستقرار في طباعهم .

٧ — الغاء عرف البدو ونظامهم العشائري وإخضاع فئات الأمة كلها لتشريع واحدوقوانين واحدة. حينئذيفهم البدوي معنى القانون العام والمصلحة العامة واحترام حقوق الآخرين، كما يفهم معنى بذل الجهود الشخصية للوصول إلى حقوق مشروعة.

٨ — إيجاد شبكة من المواصلات بين القرى والبوادي من جهة وبين المدن والقرى من جهة أخرى ، تسير عليها العجلات والسيارات لتربط أعضاء المجتمع في جهاز محكم شديد الاتصال سريع الترابط . فلا تتعطل الامور ولا تصعب معالجة الاخطار والمشاكل حين اللزوم . وخير أنواع الشبكات الخطوط الحديدية : أولاً لأنها أثبت وأبقى، ثانياً لأن نفقاتها اليومية أقل بكثير من نفقات السيارات. إن استهلاك البنزين في الوقت الحاضر يسبب خللاً ملحوظاً في ميزانيات الدول العربية وهبوطاً واضحاً في نسبة الصادرات على الواردات .

البحث السادس (١)

الريف السوري (القسم الثاني)

نموذج من الارياف الجبلية (القلمون)

وصفت لكم في البحث السابق نموذجاً من الارياف السهلية الصحراوية . وفي هذا البحث أصف لكم نموذجاً من الارياف الجبلية . لقد عثرت على كتاب يصور حياة النبك تصويراً أميناً . وإذا قلت لكم حياة النبك فأعني بذلك أيضاً حياة القلمون إجمالاً مع بعض الفروق البسيطة في التفصيلات الخاصة . ويكفي أن تتصوروا الريف في جبل القلمون حتى تعمموا هذه الصورة على أكثر الارياف الجبلية في سورية ولبنان بل في الشرق الادني أيضاً . ألم تلاحظوا أثناء سياحتنا في قرية سرغايا كيف يتشابه فلاحو هذه القرية مع فلاحي بعلبك ؟ ألم يقل لكم ذلك الفلاح الذي استجوبتموه في سرغايا أن نصف أهله هنا والنصف الآخر في بعلبك ؟ وأنه لا يفهم من الحدود بين البلدين سوى أن الدرك يسألونه عن هويته كلما اجتازها ؟ أضيفوا إلى ذلك ما تسمعونه من أغاني أهل الجبل عموماً في سورية ولبنان فانكم واجدون الطابع الداخلي للشعب واحداً . أقصد بالطابع

---

(١) يوسف موسى خنشت : طرائف الامس وغرائب اليوم ، أو صور من حياة النبك وجبل القلمون في اواسط القرن التاسع عشر . مطبعة القديس بولس في حريصا ، لبنان ١٩٣٦

الداخلي « النفسية الجماعية » التي تتصف بها أهل هذه الارياف .

والكتاب الذي أحدثكم عنه ، فضلاً عن أنه يمتاز بالأمانة التاريخية وصدق الرواية ، فهو يختص بتصوير القلمون في القرن التاسع عشر فقط ، وهذا بنظري يزيد قيمة الكتاب من الناحية الريفية ، لأن القرن العشرين أدخل على حياة الريف من نفسية المدن الشيء الكثير . لذلك بامكاني أن أؤكد لكم أن القروي الآن الذي يعيش في المصايف — مثلاً في مصايف الزبداني والقلمون (سورية) ومصايف عاليه والأرز (لبنان) — يكاد يكون أقرب إلى أهل المدن في طابعيه الداخلي والخارجي ، بل قد يكون أحياناً أكثر تعمقاً في تفكيره من أهل المدن لأنه يعيش حياة الريف وحياة المدينة بآن واحد ، وبممارسته هاتين الحياتين يتاح له اجراء كثير من المقارنات النفسية الاجتماعية . وهذا ما قصدته حين قلت لكم في البحث الثالث : لا تكفي أن تكون نفسية القروي ريفية لمجرد أنه يسكن القرية ، ولا يكفي أن تكون نفسية المدني حضرية لمجرد أنه يسكن المدينة .

والميزة الثالثة التي يمتاز بها الكتاب الذي أحدثكم عنه هي البساطة في التعبير وذكر الاصطلاحات العامية كما يرويها القرويون أنفسهم . وقد يخيل إلى القارىء أن مؤلفه يكتب باللغة العامية لكثرة الامثلة والشواهد التي يسردها عن الاصطلاحات الريفية. وإني إذ ألخص لكم الكتاب أحتفظ أيضاً بهذه الاصطلاحات ولن أغير أثناء تلخيصي سوى ترتيب الافكار وذلك تبعاً للمنهج الذي أعلنته لكم في البحث الاول حين ذكرت ترتيب العلوم ترتيباً منطقياً .

القلمون من الناحية الطبيعية :

يمكن القول إن النبك في منتصف القرن التاسع عشر تمثل القرية الجبلية الكبيرة . وكانوا يسمونها بلدة صغيرة منذ ذلك الحين لأن سكانها بلغوا نحو

٣٥٠٠ نسمة (١) . وهي واقعة في منتصف الطريق بين دمشق وحمص ولها « بوابات » أي أبواب كبيرة يغلقها الاهالي في وجه العربان الغزاة حين يهاجمون البلدة . وإنما سميت « النبك » لأنها تقع على تلال (نبكة = تل) ممتدة على طرف الصحراء ويبلغ ارتفاعها نحو ١٤٠٠ متراً عن سطح البحر . تطل بيوتها على سهل فسيح ويحيطها من الشمال والشرق بساتين وكروم ترتوي من نهرها المشهور بعذوبة مائه . على أنها تحوي آباراً عديدة في الجنوب الغربي وهي ، علاوة عن توفر الماء فيها ، جيدة المناخ هواؤها بارد جاف . لذلك اشتهر أهلها بقوة أبدانهم ونشاطها وخدودهم الوردية . وهم يعمدون إلى بناء مساكنهم على وضع يستفيدون فيه من الشروط الصحية والاقتصادية. مساكن منبسطة في منحدرات التلال مؤلفة من طابقين بعضها أعلى من بعض بحيث يتمتع ساكنوها بجمال المناظر البعيدة . كما أنهم يرون كل يوم مشاهد القوافل وعابري السبيل مع خيولهم وإبلهم ذات الجلاجل التي لها رنين موسيقي عذب .

النواحي البيولوجية والايكولوجية :

كان النبكيون يبنون مساكنهم على طبقتين . نصف الطبقة السفلى بحجارة صلبة ونصفها الآخر العلوي باللبن ثم يسقفونها بخشب «اللزاب» الذي يستحضرونه من صرود فليطة والمعرة لأنه رخيص الثمن ومتين . وكانوا يخصصون هذه الطبقة لدوابهم ودواجنهم ولحفظ التبن والوقود وآلاتهم الزراعية . أما الطبقة العليا فكانوا يبنونها باللبن فقط ما عدا إطارات الابواب والنوافذ التي تبنى من الحجر « الكدان » ويسمونه « النحيت » وهو من أراضي النبك ومقالعها . يسقفون هذه الطبقة الثانية بخشب الحور الذي يمتاز بصلابته إذا كان من

(١) ٣٠٠٠ منهم مسلمون شافعيون والباقي ٥٠٠ من السريان والروم الكاثوليك .

منتوجات النبك فلا يسطو عليه السوس كغيره من الحور ، كما أنهم يبنون إيواناً أمام الغرف العلوية المتجهة نحو الجنوب ، فتدخل إليها الشمس شتاءً فلا يحرقون الوقود إلا في أيام شديدة البرد . وظل أهل النبك يجهلون الزجاج إلى أن اتخذت بلدتهم مقراً للحكومة في عهد مدحت باشا ، فاستعملوه منذ ذلك الحين في النوافذ .

يقول المؤلف « لعل القارئ يعجب لسماعه أنهم يبنون باللبن طبقتين من مساكنهم. فكيف لو علم أنهم يبنون اليوم ثلاثاً وأربعاً ؟ فاللبن في هـذه البلاد متين جداً ، لأن تربتها كلسية جبسية يضيفون إليها تبناً بنسبة معلومة ويعتنون بصنعه ... ويغلفونه بعد البناء بطينة لزجة من التراب نفسه فتزيده مناعة لسنين طويلة ... رأيت بعيني داراً قديمة جداً ورثها جدنا عن جده ، هدمها أبناء عمي منذ خمس وعشرين سنة وأعادوا ما أخرجوا منها من اللبن السليم إلى بناياتهم الجديدة » (١).

لبثت النبك في القرن الماضي محط رحال القوافل التي كانت تسير بين حلب ودمشق . وكانت محطة تنزل فيها قوافل الاعجام يوم كانوا يحجون إلى البيت الحرام وكان ذلك موسماً سنوياً قبل فتح قناة السويس إلى أن مدت السكة الحديدية بين حلب ورياق فانقطع الموسم . وكان الاعجام يضعون خيامهم قرب النهر بجوار مقام الولي ، فيبادر أهل النبك والقرى المجاورة لابتياع السلع العجمية كالسجاد والشال والجوارب والبسط واللباد والخيل والبغال وغيرها وترى حتى الآن في بعض بيوت النبك بعض الاقمشة والسجاد والشال منذ ذلك العهد .

يتعاطى معظم سكان القلمون الفلاحة والزراعة ومنهم من يربي المواشي في الجبال ، إلا أن بعضهم يزاول عمل اليد بالطين والبناء فيهاجر إلى دمشق سعياً

---

(١) الكتاب المذكور سابقاً ، ص ٥

وراء الرزق وقسماً آخر له أهميته يتاجر ويمارس « المكاراة » على الجمال والبغال والحمير . لقد كان عند أهالي النبك ٥٠٠ جملاً يستخدمونها للتجارة ويكارون عليها بين دمشق وحلب حتى أورفه وديار بكر . وقد يسافرون إلى ما هو أبعد من ذلك مثلاً إلى تركيا شمالاً ومصر جنوباً والعراق شرقاً . وكانت قوافلهم مشهورة ببأسها تجاه هجمات البدو وقطاع الطرق ولما يرجعون إلى بلدتهم كانوا قبيل وصولهم يطلقون البارود دلالة على سلامة الوصول فيخرج أهلهم وذووهم لاستقبالهم فرحين. أما الصناعة فقليل من أهالي النبك يحترفها كالنجارة والحدادة ودبغ الجلود والحياكة . ولم تكن المهاجرة إلى امريكا معروفة عندهم حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ففي عام ١٨٩٢ سافر إليها اثنان من المسيحيين وبعدها قويت حركة الهجرة .

يعيش سكان القلمون عيشة بسيطة مما تنتجه أراضيهم ومواشيهم . يأكلون من الحبوب الحنطة خبزاً وبرغلاً وطعاماً وكذلك الذرة الصفراء . ثم يطعمون دوابهم الشعير والكرسنة ولا يجسرون على زرع غير هذه الحبوب، لعدم سلامتها من آفة البرد والصقيع في الشتاء . ويغرسون من الاشجار الجوز والآجاص والعنب الاحمر والمشمش وقليلاً من التوت . وكذلك الحور والصفصاف والدردار والنشب . ومن الخضر والبقول يزرعون البطاطا واللفت والجزر والفجل والقرع والكوسى واليقطين والبصل والثوم والبيقية والحلبة والفوة . وهذه الاخيرة نبات كان يستعمل للصباغة والادوية ويغل أرباحاً ، غير أن انتشار الاصباغ الاوربية أبطل زراعتها . أما باقي الحبوب والنباتات ، كالحمص والفول والبطيخ والخيار والبندورة والباذنجان والزيتون والتين والتفاح والبرتقال والليمون فكان الاغنياء يبتاعونها من الخارج ولا يكاد يصل بائع إلى البلدة بنوع من هذه الاصناف حتى يأتي إليه الناس أفواجاً فيبدلونها بما عندهم من الغلال ،

أو يشترونها بالنقود الرائجة . وطبيعي أن الفقراء لا يعبأون بها ولا يذوقون منها شيئاً مدة سنين طويلة .

يأكلون من اللحوم لحم الماعز والضأن والبقر والجمال ، وللأغنياء عادة خاصة إذ يعلفون الغنم حتى تسمن ثم يذبحونها ليجعلوا من لحمها قطعات كبيرة أو صغيرة مجففة بعد قليها بالإلية ويسمونها « قاورمة » كلمة تركية معناها اللحم المقلي . وباقي الاطعمة السورية معروفة عندهم إلا أن المآكل التي يدخلها اللحم تصنع في أوقات معينة كالاعياد والولائم و « للفعالة » أي للعمال أيام عملهم الزراعي مستأجرين كانوا أم مساعدين . وأشهر المآكل الخالية من اللحم « المجدرة » المؤلفة من البرغل والعدس والزيت والبصل . وهي باعتقادهم طعام كامل لذلك هي طعامهم الدائم . على أن هذا الطعام كما تعلمون هو وبعض المآكل الزيتية ، يكاد يكون عاماً شاملاً لدى الارياف والمدن العربية إلا بعض الارياف التي يكثر فيها السمن والرز وبعض المناطق المتطرفة في الشرق العربي كالعراق حيث يفضلون السمن على الزيت والرز على البرغل (الرز المسمى عندهم = تمّن) .

ولأهل النبك نوع خاص من المآكل يحبونه ويبذلون في صنعه كثيراً من الوقت والتعب ألا وهو « الكبة بالكشك » مما جعل أهل الجوار يتهكم عليهم بقوله :

أكل النبكي كبة بكشك

وحين تشرع ربة الدار في صنعه تنظف الجرن وتنظف الغرفة التي فيها الجرن اعتقاداً منها أن الملائكة تأتي على أصوات دق الكبة وترقص حول الجرن لتبارك من يعنى بدق الكبة . ثم تأتي الجارات لمساعدتها . وبعد دق اللحم وجبله بالبرغل الناعم يصنعن منه أقراصاً ، الكبير منها يشوينه ويسمى « المشاوي » والصغير منها يسلقنه في حساء الكشك شتاء وفي اللبنية صيفاً . والمشاوي تقدم

عادة للعزيز من الاصدقاء أو الصهر الجديد أو طالب المصاهرة . وإن لم يكن ثمت لحم فانهم يحتالون على الكبة بجبل البرغل مع قليل من الطحين ويضيفون اليه كمية كافية من الفلفل والبهار أو من البقول المسمى « أم أحمد » نبات يشبه الاسباناخ ثم يحشونها دهناً أو جوزاً مع البصل وحب الرمان الحامض وأخيراً يسلقون الاقراص بحساء الكشك ويسمونها « كبة حيلة » أو « كبة الراهبة » .

يأكلون من الحلواء الدبس الذي يصنعونه من زبيب كرومهم . ومن الدبس والحليب يصنعون حلواء « المغطوط » التي يؤلفونها بالطريقة التالية : بعدما يحلبون الحليب مساء يضعونه في أوانٍ واسعة ويتركونه إلى الصباح . تأتي ربة الدار ومعها الخبز التنوري وتطرح الارغفة فوق الحليب فيأخذ الرغيف من الزبدة ما يغطي به وجهه . تعود وترفع الارغفة وتطبق كل رغيفين معاً . وبعد مرور ساعة يأكلون منه مع الدبس . ولهم طريقة مفيدة في حفظ العنب حتى الشتاء . إذ يضعون العنب بعد تنقيته من كل حبة فاسدة ، في غرفة مظلمة يدخلها الهواء قليلاً ومفروشة بالتراب الابيض . يرصفون العنب فوقه ويغطونه بورق الكرمة ثم بملاحف من الخام . يبقى محفوظاً طوال الشتاء حتى شهر نيسان .

أما قطف العنب فيكون مع عيد رفع الصليب (١٤ — ٢٧ ايلول) أو قبل الميعاد إذا أقبل البرد باكراً . يقومون صباحاً مجهزين بأطباق النحاس والطناجر وصناديق الخشب والقفف مع الاواني الحاوية على ماء القلي المغلي وكلها محمولة على الدواب مع طعام النهار ويذهبون إلى الكروم . يشرعون في قطف العنب ثم يجمعونه في طست كبير مملوء بماء القلي الممزوج بقليل من الزيت (زيت الزيتون) ثم ينتشلون العناقيد بعود ذي شعبتين خوفاً على الايدي من ماء القلي الكاوي . وأخيراً يرصفونه على أرض محصَّبة يمهدونها لهذه الغاية . وهذه العملية تسمى « السطاح » أي سطح العنب ليجف على أشعة الشمس ويصير زبيباً . وقد تدوم

هذه العملية أياماً فيقضونها بالفرح والسرور حين يدعو بعضهم الاقرباء والاصحاب لتناول العشاء . وقد تفرغ البلدة إلا من الشيوخ والعجائز الذين لا يقدرون على الذهاب إلى الكروم . وينقسم العاملون عادة إلى قسمين : قسم يظل في القطاف والسطاح وقسم يذهب إلى جمع ما سُطح قبلاً ، فترى الجميع يتسابقون في قطف العنب متضامنين (١) خوفاً عليه من هجوم الصقيع ، سواء نضج العنب أم لم ينضج . والناضج منه إذا كان فحلاً يحفظ بالطريقة المذكورة آنفاً دون تعريضه إلى عملية السطاح .

كيف يصنعون الدبس ؟ بعد تجفيف الزبيب بشهر تقريباً يختارون منه كل حبة نامية للمؤونة والباقي للدبس بحسب المثل السائر لدى الفلاحين « بيّس ودبّس) . لا شك أنكم تعلمون صنع الدبس الذي هو من الحوادث المألوفة لديكم بصفتكم مواطنين سوريين ، غير أني أورده هو وصنع الكشك وصنع البرغل ، لألفت نظركم إلى بعض الاعتقادات والتقاليد التي ترافق الصناعة الريفية مما يذكرنا بالتقاليد الصناعية للجماعات الابتدائية .

يأخذون ما تبقى من الزبيب إلى المعصرة « ليمعسوه » بواسطة « المدار » . وهو حجر ضخم يدور حول محور ، يديره بغل يشد إلى خشبة متصلة بالحجر المذكور ، فيسحق ما تحته من الزبيب المنثور عليه قليل من الحوار (لمعرفتهم أن هذا التراب يزيل حموضة الزبيب) . يجعلون من الزبيب المسحوق « كومة » أي كتلة كبيرة يحفظونها في زاوية من المعصرة ويكتبون عليها باصبعهم اسم صاحبها . وبعد شهرين يكون صاحب « الكومة » قد استحضر من البرية الشيح الضروري يذهب صباحاً إلى المعصرة ويفتت كومته بأداة « القدّوم ». وفي المعصرة أحواض

---

(١) وهذا مثال آخر من الامثلة التي يمكن ذكرها عن التضامن الريفي الموسمي (البحث الثالث : خصائص الحياة الريفية ص ٣٤ ، ر ٣٨) .

صغيرة يتألف كل منها من ثلاث قدور خزفية مثبتة على بناء مرتفع مجوف ومرتبة الواحدة إزاء الاخرى . وفي أسفل البناء وتحت كل قدر قدر أخرى تماثلها مثبتة على الارض ولكنها غير مثقوبة كالعليا ، وفيها يتجمع السائل (شراب الزبيب المسمى جلاب) الذي يتقاطر من العليا . يأتي صاحب الكومة بأجزاء من فتيت زبيبه ويضعها في القدر العليا بعدما يسد الثقب . ويضع في أسفل القدر قطعة من الشيح يسمونها « عرنة » يثقلها بحجر ويصب فوق الفتيت ماء قراحاً حتى تمتلئ القدر ويمضي . يأتي صباح اليوم الثاني ويفتح ثقب القدر الاولى ليتقاطر الجلاب إلى القدر السفلى ويضع فتيتاً جديداً في القدر الثانية . يأخذ الجلاب الذي نزل من الاولى ويصبه في الثانية مع سد ثقب الاولى وسكب الماء الجديد فوق فتيتها ليتركه إلى اليوم الثالث حيث يفتح ثقبي القدرين ويضع فتيتاً جديداً في القدر الثالثة ناقلاً جلاب القدر الثانية إلى الثالثة وشراب الاولى إلى الثانية . وهكذا حتى يفتح في اليوم الرابع الثلاثة معاً فيأخذ جلاب القدر الثالثة إلى الطبخ في الخلقين بعد أن احتوى نقيع القدور الثلاث . يأتي الدباس ويخبط جلاب الخلقين بمسواط من خشب نحو ساعة من الزمن حتى ينضج ، ويكون صاحب الجلاب قد أوكل أمر الوقيد تحت الخلقين إلى شخص من أسرته . ينقله حينئذ بقادوس إلى طناجر معدة له ، فتنقله النساء على رؤوسهن إلى الدار . وهذه الطبخة الاولى تسمى « حلوية » وإذا بقي شيء من الدبس باشارة من صاحبه يصب عليه جلاباً وتوقد النار تحته حتى يجمد ويقسو فيسمى « شبربقة » . ومن هذا الدبس الجامد يطعم الشيوخ الجالسين حول النار يتدفأون ويتسامرون ، ويأخذ الباقي إلى أولاده الصغار الذين يفرحون به كهدية التدبيس . ثم يكرر العمليات حتى يأتي على آخر ما يسحق من الزبيب . وبهذه المناسبة يقول الفلاح : نيّال من زرع العفير ودبّس ، وجلب من حطب الجرد وكردس ، وخطب

ابنه وعرّس » .

كيف يصنعون الكشك ؟ إذا كانت المرأة من عامة الشعب فانها تصنع الكشك في الربيع إذ يكون الحليب كثيراً ورخيصاً . وإذا كانت من نساء الوجهاء المثرين فتصنعه في الخريف لكثرة الدسم في الحليب . وفي كلتا الحالتين تأخذ المرأة من البرغل الكمية المناسبة لعدد أعضاء الأسرة ، وتنقعه بالماء في معاجن منذ المساء حتى الصباح فيصبح ليناً طرياً . تأتي بالحليب واللبن الرائب الذي تحلل فيه خميرة العجين (من دقيق القمح أو الشعير) مع الملح وتصبه فوق البرغل الذي يتشرب حينئذ اللبن ويختمر . ثم تعجنه بيديها وينقلونه من وعائه إلى ملحفة واسعة يبسطونها فوق التراب الابيض الذي يمتص حموضته خلال يومين . ينقلونه بعدها إلى « خابية » خلال ١٠ — ١٥ يوماً ثم إلى السطوح . تأتي النساء صباحاً مدعوات من قبل ربة الدار ويشرعن في « قرقطته » أي تقطيعه أجزاء صغيرة بالاصابع (بالابهام والسبابة) وتجفيفه بأشعة الشمس حتى العصر . وفي الليل تدعى الصبايا والشباب لفركه بالايدي في غرفة داخل البيت وهم ينشدون بعض الاغاني الشعبية . تنتهي السهرة بتقديم « السهرية » لهم مما يتيسر وجوده من الفواكه وسواها . ويعتبر صنع الكشك واجباً هاماً من واجبات ربة الدار إذا أهملته تثير نقد الجيران وسخط الزوج . يوصفها الجيران مثلاً بعدم الكفاءة البيتية فهي « هطة » أو « رشلة » أو « خمة » .

كيف يصنعون البرغل ؟ يأخذون القمح بعد تنقيته من الحصى والرمل والتراب ويسلقونه في خلقين يسمى « جعيلة » ، وهي مرجل كبير من النحاس يكون لأحد الاوقاف أو لامرأة أرملة تأخذ أجرته شيئاً من البرغل . يبنون للجعيلة موقداً في ساحة متوسطة من الحي ليسلق أهله فيه . تدعو ربة الدار جاراتها فيدخلن قائلات « عالبركة سلاقكم » فتجيبهن « حلت البركة » . يذهب قسم

منهن لجلب الماء من النهر وقسم ينقل الحنطة من الدار إلى الخلقين ويكون النقل على رؤوسهن في قفف أو أطباق نحاسية . تشعل إحداهن تحت الخلقين ناراً من الشيح والقصل خلال ساعتين حتى ينشف الماء وينتفخ القمح ، ويمكن إضافة الماء إتماماً لعملية النضج وتنتهي العملية بانتظار ما يخمد من النار حتى « يتهدى » القمح المسلوق . وفي هذه الاثناء يتحدثن غالباً بأحاديث الخطبة والزواج . يسألن المخطوبة عن حياتها مع خطيبها وعما بلغ إليه « مصروفه » ونفقته عليها وهل وصلها « حق رقبتها » وعن موعد الزفاف ... ولا تخلو الاحاديث طبعاً من التحويطات والبسملات لرد العين الشريرة عن الخطيبة والخطيب ، وعلى كل امرأة أن تقول : « يخزي العين ، يخزي العين ، عالبركة سلاقكم ، ما شاء الله حول من يسلق ، الصلاة على النبي ... » . يأتي الشباب لمساعدة النساء في تحريك القمح بالمنشل وهو عصا طويلة ذات مجرفة نحاسية ويسمونه « المشلاة » وفي اجتماع الجنسين تكثر الحوادث العاطفية ويختبر الشباب والفتيات بعضهم بعضاً من النواحي الخلقية والصحية ويتبارى الشباب بتقديم المعونة اللازمة سواء في تفريغ القمح من الخلقين إلى الاطباق التي تحملها الفتيات إلى السطوح على رؤوسهن أو تناول الاطباق من رؤوسهن لتفريغها أكواماً على السطوح . وقد تطول العملية حتى الليل فيرافق شابان أو ثلاثة الفتيات أثناء جلبهن الماء من النهر أو القمح من الدار حتى لا يخفن . وهكذا يحظى الشباب بالاجتماع بمن يريدون ويلبون الدعوة حين يطلب إليهم أن يشاركوا أهل الدار في العشاء فيأكلون مع النساء القمح المسلوق المحلى بالسكر أو الدبس والمخلوط مع الجوز أو بزر القنب (القنبز) ثم يخرجون شاكرين وهم يقولون : « عقبال كل سنة » فيجابون « وأنتم سالمين ، الله يسلم ديناتكم » . وفي الايام التالية تتابر النساء على « تثوير » القمح أي على تحريكه بعد نشره وذلك صباحاً وظهراً وعصراً خلال خمسة أيام أو ستة . بعدها

يجمعونه في أطباق ويصبون فوقه الماء الساخن بأشعة الشمس ، وتفركه النساء بالايدي حتى تنفصل قشوره ، ثم يفرشنه على السطوح يومين أو ثلاثة « لتنميشه » أي لازالة ما يبقى من القشور الرقيقة وإتمام جفافه . حين يجف ، تجري عملية جرشه في « جواريش » الواحدة اسمها « جاروشة » مؤلفة من قرصين حجريين القرص الأعلى الذي يدور فوق الاسفل الذي يتوسطه محور خشبي يدخل فيه حلقوم القرص الأعلى الذي يدور باليد البشرية بواسطة رائد خشبي مثبت في طرفه (أنظر الشكل ٥) . يجلس كل ثلاثة أشخاص حول جاروشة إما شاب وفتاتان أو فتاة وشابان وقلما يكون الثلاثة من جنس واحد . يقعد الواحد منهم ويطوي رجله اليسرى ويمد رجله اليمنى أو بالعكس فيحتضن الجاروشة وكذلك الآخران فيحيطها الثلاثة كأنهم السوار حول المعصم . يقبضون على رائدها ويديرونها ويلقي القمح في حلقومها من هو قريب إلى الطبق ويحسن العمل . يغنون أثناء الدوران ومع نغماته الرتيبة أغاني شعبية منسجمة معه موسيقياً كالموليا والدلعونا والعتابا وغيرها . كل من الحاضرين يغني على ليلاه وينتظر في الغرفة فراغ إحدى الجواريش حتى يستولي عليها أو يذهب إلى الجرش في دار أخرى قياماً بالواجب أو تسليفاً لأن الجرش سلفة ووفاء . على أن الفتاة لا تأتي إلى الجرش ما لم يدعها أهله خلافاً للشاب الذي يباح له دخول أي جرش كان بدون دعوة . أما النساء أهل الجرش فيأخذن البرغل المجروش ويغربلنه في زاوية الغرفة ويعدن الحبوب التي لم تجرش إلى أطباق الجارشين . ومتى انتهى الجرش يدعى الجارشون إلى تناول الطعام كما هي العادة في نهاية الاعمال التعاونية .

تلك هي أمثله من الصناعات الريفية وأكثرها كما تلاحظون صناعات غذائية بقي علي أن أشرح لكم العملية الاساسية للفلاح وهي الزراعة .

كيف يزرعون ؟ يقسم الفلاحون في القلمون إلى ثلاث طبقات : قوية ،

متوسطة ، ضعيفة . فالفلاح من الطبقة الاولى يملك أرضاً واسعة تسقى بماء البلد (١) وأراضي أخرى كثيرة تسقى بماء المطر وتسمى « الاراضي البعلية » وهي ملك مشاع بين عامة الاهالي إجمالاً إلا قطعاً صغيرة مملوكة ملكاً خاصاً . والفلاح من الطبقة الثانية يملك مقدار نصف أو ثلث ما يملكه الاول من السقي ويساويه في الاراضي البعلية أما الثالث فقليلاً جداً من السقي وبعض الكروم التي يسقيها في الشتاء لوفرة الماء . وقلَّ من لا يملك كرماً أو دابة مهما كان فقيراً . والدابة أداة ضرورية لكل فلاح أولاً للزراعة ، ثانياً لجلب الوقود من البرية ، ثالثاً للمكاراة حين اللزوم ولمآرب أخرى . لا يكاد يقبل الربيع حتى يهب الفلاح نشيطاً إلى الاراضي البعلية مستصحباً دوابه والسكة والعدة التي ورث أشكالها عن أجداده ، و « يكدن » أي يقرن زوجي بقر أو بغال أو حمير ، يشدهما إلى المحراث ويقود الفدان بعصا طويلة اسمها « مسّاس » يمسكها بيده اليمنى ويقبض في اليد الاخرى على « كابوس » السكة التي تشق الارض أثناء سير الفدان . يترك الارض ثلاثة شهور لتفعل الطبيعة بها ما تشاء ثم يعود في حزيران لفلاحتها ثانية ، ويتركها حتى شهر آب حين تصبح صالحة للزراعة . يأتيها بالحنطة أو الشعير ويساعده في عملية البذر أولاده وشركاؤه من الفلاحين الذين من طبقته . يزرعون معاً على بركات الله منتظرين حلول رحمته بالامطار والثلوج طوال الشتاء . وحين ينضج زرع الاراضي البعلية يكون صبر الفلاح

---

(١) يقسم ماء البلد الى ٢٤ عداناً . يعتبرون النهار « عداناً » والليل « عداناً » ويقسمون كل عدان على ثلاث فرق فيكون لكل فرقة ٤ ساعات . يتوزع العدان على أسرة واحدة (مثلاً بيت الشيخ ، بيت المشحم ...) أو على عدة فرق . ويتغير توزيع الـ ٢٤ عداناً كل ١٢ يوماً ، فالذين سقوا نهاراً يسقون ليلاً وبالعكس . على كل حال تنال الاسرة السقي مرة واحدة « عداناً » كل ١٢ يوماً .

قد نفد مع مؤونته السنوية فيحصد مع أولاده وشركائه الغلة . يصلح أولا ما تعطل من الادوات أثناء عملها في العام الفائت ثم ينقلها إلى البرية وهي النوارج والرفوش والمذاري والقرَب (لأخذ الماء معه خشية العطش) مع أدوات الطعام والمأوى كالصاج (للخبز) والطناجر (للطبخ) والبسط والفرش واللحف و« البواظي » نوع من الاعبئة تحاك من الصوف سدى ولحمة ، ذات أكمام قصيرة (يلبسها الفلاح تحت العباءة في الليل لزيادة التدفئة) . وقديماً كان لا ينسى البندقية إذا كانت أرضه بعيدة (للمدافعة أثناء هجوم عربان البادية أو جبل الصفا أو الدروز) . يستيقظ ويوقظ أولاده باكراً ويشرعون في الحصاد بأيديهم وهم جالسون القرفصاء على صف واحد ويتبارون في الصبر على مضض العمل الشاق إبان الحر ويغنون الاغاني شأنهم في كل عمل جماعي . منها :

ليت الحصيدة كلها كرسنة والموت أهون من حصاد الحمص

يرمون ما يحصدون وراء ظهورهم « شمائل » فيأتي الفتيان والصبايا يلتقطونها حزماً « أغماراً » ومتى تجمع منها ما يكفي لحمل الدواب يحزمونها « أحمالاً » كل حمل على شبكتين معدتين لهذه الغاية ثم يرسلونها فوق الدواب مع ولدين أو ثلاثة يسمون « رواجيد » يرجدونها إلى البيادر وهم حفاة الاقدام حتى يصلوا فيجدوا « الناطور » في انتظارهم ويساعدهم على تفريغ الاحمال من الشباك . يعود الاولاد إلى الحقل تاركين الحصيدة عند الناطور الذي يكدسها بشكل مخروطي « كدساً » في وسط بيدر من القش . وهكذا حتى ينتهي الحصاد الذي يختمونه « بجورعة » أي وليمة يقيمها صاحب الحصيدة مع « تعليلة » أي ليلة راقصة يرقصون أثناءها ويدبكون على صوت المزمار . يذهب الفلاح إلى البيدر ويغرز في قمة الكدس عصا طويلة ليبدأ عملية الدراس . يأخذ حبلاً طويلاً (٧ — ١٠ متراً) ويعقد في طرفه أنشوطة يدخلها برأس العصا لتدور عليها .

يأخذ بيده المزاري فينشل بهـا مقداراً من القش ويفرشه حول الكدس بشكل « طرحة » يضع عليهـا نورجاً أو أكثر بقدر ما عنده من الدواب . يربط مقود البغل بالحبل ويغطي عينيه « بالطماسات » ويضع على كتفية « كدانة » من الخيش أو اللباد وفوقها « السفاقات » من الخشب التي يصل النورج بهـــا . يركب على النورج أحـد أولاده مع حجر ثقيل ويقود البغل الذي يدور فوق الطرحـة ليدرسها النورج من ورائه . وهكذا يدرسها أولاً وثانياً حتى يأتي على آخر الكومة شيئاً فشيئاً . وبعدهـا يجري عملية « التذرية » أثناء هبوب الرياح ، هو ومساعدوه من الشباب ، وذلك عصراً أو ليلاً حين يكون الهبوب شديداً . يضعون خشبة طويلة مضادة للريح حتى تفصل بين الحب والتبن ويباشرون برفع المذاري وإطلاق الحصيد المدروس في الهواء الذي يقـذف التبن بعيداً فيتساقط القمح بشكل أكوام . ولا تخلو هذه العملية من الاغاني :

يا هوانا ما أطيبو عالهـوا وتجنبو

تخرج النساء صباحاً بغرابيلهن « للغربلة » وبعدهـــا يتم نقل الحبوب إلى القرية . ومن هذه الحبوب يفي الفلاح دائنيه ، اللحام ، النجار ، الحلاق . ويبيع بعضهـا للحصول على نقود ويحفظ الآخر للمؤونة والبذار . وقبل أن يعطي مساعديه أجورهم يقيم لهم غداء فاخراً من البرغل واللحم واللبن ... فينصرفون شاكرين « عقبال كل سنة » . فيجيبهم « وأنتم سالمين ... » .

النواحي الاجتماعية والنفسية :

ينتج مما سبق أن هناك تقسيماً للعمل بين الرجال والنساء وإن كانوا جميعاً يشتركون ببعض الاعمال الجماعية . فالمرأة هي ربة الدار أولاً . فهي التي تجلب اللحم من حانوت اللحام ، وتدق منه الكبة أو تلف معه اليبرق وتطهي الطعام .

وهي التي تشرف على طحن القمح في الطاحون ثم تعجن العجين في البيت وتخبزه على التنور . وهي التي تغسل الالبسة وتعتني بتربية الاولاد وترقع ثيابهم وثياب زوجها كما تساعده في الاهتمام بالدواب وبعض أشغاله الزراعية . وأخيراً هي التي تطين الدار وتبيضها بالحوّارى وتسلق البرغل وتجرشه وتصنع الكشك بمساعدة جاراتها .

في الصيف تستيقظ قبل شروق الشمس وتذهب إلى مورد الماء حاملة على رأسها الجرة مبطوحة وفمها إلى الوراء (حتى لا يراه من يصادفها من الناس لأنهم يتشاءمون منه) . وفي طريقها ينبغي أن تحيي من تصادفه من النساء اللواتي على رؤوسهن الجرار كما ينبغي أن ترد التحية بمثلها وفي ذلك ما فيه من مناسبات لمعرفة أخبار القرية من خطبة وزواج وطلاق وولادات ... ويوم يطلب منها العجين أو الغسيل تستيقظ قبل بزوغ الفجر لتعود باكراً . فاذا كان الماء للعجين تسخنه في أقرب تنور في الحي ، وإذا كان للغسيل تضع فيه كيساً صغيراً حاوياً على القلي وتسخنه كذلك مغتنمة فرصة تسخينه لتجمع الالبسة الوسخة التي يخلعها زوجها والاولاد . وقد تقوم بعملية الغسيل أحياناً على شاطئ النهر وذلك « بمخباط » من الخشب على أن ترش كمية من مسحوق « الشنان » (١) فوق الثياب المبتلة . ولما تعود إلى دارها حاملة « غسيلها » تنشره في صحن الدار أو السطح ثم تزاول باقي أعمالها كأن تأخذ طعاماً لزوجها إلى الكرم أو تمارس الغزل وتمشيط الصوف ...

---

(١) الاشنان اليابس . اذا أحرق هذا النبات وهو أخضر يخرج من رماده القلي المعروف . وكانت تصدر منه كميات كبيرة من سورية الى الخارج قبل ان تزاحمه المواد الكيماوية الحديثة .

أما الرجل فهو رئيس الأسرة الذي يعنى أولاً بالاعمال الصعبة دون أن يتهاون بها وشعاره « تخوشنوا فان النعم لا تدوم » . يستيقظ قبل شروق الشمس ويتفقد دوابه ويقدم لهم العلف . وبعد أن يتناول الفطور مع الأسرة يخرج مع أولاده القادرين على العمل إما إلى الكرم أو إلى الحقل ويقضي أيامه بين فلاحة و « تجريف » وحصاد « وسطاح » . ويتعلم منه أولاده هذه الحياة العملية دون أن يتجهوا إلى العلم لأن كل ما يمكن تعلمه في « الكتّاب » القراءة البسيطة أو حفظ القرآن . وإذا انتهى النهار يرجع قبل غروب الشمس إما إلى الدار رأساً وإما إلى ساحات البلد العامة إذا كان الطقس جيداً . هناك يستمع إلى الاخبار الداخلية والخارجية أو يلهو مع أصحابه ببعض الالعاب المسلية ، مثلاً المنقلة (١) حتى موعد العشاء .

يرتدي النساء والرجال ثياباً داخلية متشابهة أما الثياب الخارجية فمختلفة كما هي الحال في سائر المجتمعات . ويوجد اختلاف بسيط في الثياب الداخلية نفسها في أرجل السراويل التي تبقى « مزمومة » الاطراف عند الاقدام لدى النساء ترتدي المرأة فوق القميص الداخلي رداءً ثانياً بدون أكمام يسمونه « خراطة » وهو أحمر اللون . وفوقه « صدرية » ذات أزرار أمامية وفوق الصدرية « قنباز » ذو ثلاث فتحات : واحدة من العنق إلى القدم واثنتان جانبيتان من الخصر إلى القدم . وإذا بقي القنباز مفتوحاً من الأعلى ، تظهر الصدرية بأزرارها الفضية المعلقة بحلقات فضية أيضاً . وهناك ألبسة أخرى ترتديها المرأة . مثلاً « التنورة »

---

(١) المنقلة قطعة من خشب الجوز ذات ١٤ حفرة في صفين متحاذيين . يوضع في كل حفره ٧ كرات من الحصى يجمعونها من النهر . يبدأ اللاعب فيها بتوزيع الحصى بمقتضى قواعد خاصة من حفرة الى أخرى .

المصنوعة من خام أزرق يحيطها في مستوى الخصر زنار من الصوف الملون أو شالة عجمية . أما لباس الرأس فهو طاقية سوداء تستر المرأة بها شعرها العلوي وتعصب جبهتها فوقها « بشملة » حريرية أو عصبة قطنية سوداء على أن تلف رأسها بمنديل طويل ملون تطلقه إلى الوراء حتى القدم اعتباراً من قمة رأسها ، ثم تسبل « سالفيها » أو شعرها الجانبي على خديها حتى الذقن فيظهر وجهها مستديراً يستلفت النظر (شكل ٧). أما حذاء القدم فهو «البابوج» المصنوع من الجلد الاصفر ، معقوف الرأس من الامام (شكل ٨) ، وفي الشتاء القبقاب « الشبراوي » أي بعلو الشبر اتقاء الرطوبة والوحل . ويمكن أن تتزين بالخلخال الفضي ذي الجلاجل الصغيرة التي ترن عند خطو لابسته . على أن الزينة المألوفة هي الاقراط « الحلق» والخواتم والاساور ، منها الفضي ومنها الذهبي ، وأحياناً « الخزام » نجمة ذهبية تتوسطها خرزة زرقاء مجهزة بدبوس قصير يدخل في الانف من ثقب جانبي (يشبه ثقب القرط في الأذن) ويربط من الداخل برباط معدني يمنع الخزام من السقوط .

يتألف لباس الرجل من قميص طويل حتى القدم فوق سرواله الابيض المصنوع من الخام البلدي . وفوق القميص « صدرية » ذات أزرار أمامية بدون أكمام ومعها « شنتيان » أي سروال أزرق من الخام البلدي المطرز بالحرير الاحمر والاصفر عند جيوبه وقدميه . وفوق الصدرية « صدرية ثانية » بأكمام بدون أزرار تسمى « اجلك » مطرزة كالشنتيان . ثم يتمنطق الرجل في مستوى الخصر بحزام عريض من الصوف الملون ينسجه هو بيده أو قرباؤه . وفوق هذا كله يلبس عباءة صغيرة تشبه الأجلك تسمى « ربع » وأكمامها تبلغ المرفق فقط . وفي أيام البرد يلبس عباءة أكبر من الصوف الاسود الابيض على خطوط متوازية وتسمى « زنارية » لأن الرجل يتزنر فوقها أثناء الشغل . على أن الشبان يلبسون فوق القميص والسروال رداء كالقنباز يسمى « صاية » مصنوعاً من الخام البلدي

الازرق ويتمنطقون فوقه بسير من الجلد في الصيف وبزنار من الصوف الملون في الشتاء ، كما أنهم يلبسون عباءة حمراء مقصبة كالزنارية يجلبونها من الزوق (بلدة في كسروان لبنان). أما لباس الرأس فهو طاقية تحوكها النساء وفوقها الكفية والعقال المبروم من الصوف أو الوبر ويضعون فوق الكل عباءة من الصوف طويلة حتى القدمين وتغطي الجسم لترد عنـــه البرد والمطر والثلج . أما حذاء القدم فهو « المداس » من صنع اسكافي البلد . يصنعونه من جلد الجمل أو البقر بشكل خاص (أنظر الشكل ١٠ في آخر البحث) ليحيط بالقدم إحاطة محكمة . وله نعلان : نعل عادي ونعل من فراسن الجمال وكلاكلها حتى يحتذيه الجمّالة. وقد يتفنن الشباب بوضع العقال على الرأس يميناً أو يساراً والاغنيـاء منهم يطيلون ضفائرهم بحيث تتدلى على أعناقهم حتى الصدور ويتباهون بهـا مع حمل الاسلحة ليقلدوا عرب البـادية . ويحمل بعضهم في آذانهم أقراطاً ذهبية (تهدى عادة إلى البكر إذا كان غلاماً) غير أن الزينة المألوفة هي الخواتم الفضية .

إن أهم عملية تسبب الافراح للأسرة هي تخطيب الاولاد غلماناً كانوا أم بناتاً ولا سيما إذا كانت الأسرة ذات غلام وحيد ، إذ يكون هم الوالدين الوحيد الاسراع « بفرحته » أي بتزويجه . ولهذا الأمر صدى في المحيط أيضاً ، إذ كلما رأى الوالدين أحد من أصحابها وأقربائها ، فانه يحثها على الاسراع بالزواج حتى يفرحا به وهما في قيد الحياة ولكي تحظى الأم بكنة تساعدها في البيت . وبديهي أن تستيقظ عواطف الصبي المراهق لدى هذا الحث المتواصل والترغيب الملح فيصبح همه الاوحد انتخاب فتاة تشاطره أعبـاء الحياة وتمنحه قلبها . ثم لا يكاد يتحول بصره من فتاة إلى أخرى حتى ينتهي بضالته المنشودة قائلاً هذه فرحتي . حينئذ يختلف مع والدته إلى بيت الفتاة في كل مناسبة ليدرس أخلاقها وطريقـة « حوستها » أي تدبيرهـا المنزلي . ولهذا التدبير أهمية كبرى لدى بيت حميهـا ،

لأنهم يرون في الفتاة عوناً لهم على تطيين الدار والسطوح والجدران ودهنها بالحوّارى ودق الكبة ولف البيرق وتحضير الخبز والبرغل والكشك وسائر الاشغال البيتية والزراعية كالحصاد والقطاف والسطاح . وتؤدي مرحلة الزيارات إلى رفع الكلفة بين الأسرتين مع بقاء المجاملات (١) والتحويطات (حوطتك بالله وباسم الله ، أو بسورة يسن . . . أو باسم المسيح ، باسم الصليب . . .) التي يكثرون منها خوفاً من العين الشريرة وأذاها . ومتى انتشر الخبر بين الناس يدعو أبو الفتاة أخوته وأبناء عمه ليبسط لهم الامر . وكأنه بذلك يطلب إليهم السماح بأن تُزف ابنته إلى من يطلب يدها . وهو يعتبر استشاراته حقاً لأبناء عمه وإخوته لاحتمال وجود من يرغب الاقتران بابنته . فليس على أبيها والحالة هذه إلا الاذعان لهذه الرغبة فيحمل إبنته على قبول الزواج بابن عمها ، رغبت فيه أم لم ترغب ، ما لم يرض ابن عمها بأن تكون أخت الطالب أو إبنة عمه ، خطيبة له بدلاً من إبنة عمه ، فتزف تلك إليه مرغمة راضخة لأمر والديها ولا يكون لها في اختيار رفيق حياتها أى نصيب . وإذا كان أبناء عم الفتاة المطلوبة غير قادرين على الخطبة في ذلك الحين ، أو لا يرغبونها لسبب ما ، فانهم يتنحون عنها برضى وانتظام حتى لا يحولوا بينها وبين طالبها ولا يعرقلوا مساعي والديها في إسعادها . فيقر رأي أهل الفتاة عندئذ على طالبها ويشيع في البلد بأن « فلاناً أعطى قولاً بابنته فلانة إلى فلان بن فلان » .

يعقب مرحلة الزيارات مرحلة « التمشية » : إذ يستدعي أبو الشاب جميع

---

(١) لهذه المجاملات شكليات لا يجوز التهاون بها : اذا قالت القروية « بيض » فتقول بعدها « ما تشوفي الغيض » واذا قالت « رز » ما تشوفي الرزية، «الغم» ما تنغمي ، « الكي » ما ينكوى لك قلب على غالي ... من غير شر ...بلا طغرة ... بلا مؤاخذة ...الخ .

أقربائه ليطلعهم على رغبته النهائية فينتخبون وفداً يذهب إلى بيت الفتاة «يمشّون» عليها ، أي يطلبون يدها رسمياً من أهلها ، فيعطيهم أبوها قولاً بشرط أن يذهبوا ويأخذوا قولاً من أعمامها وأخوالها جرياً على العادة المتبعة . يذهب الوفد في اليوم التالي إلى أعمامها وأخوالها ويأخذون قولاً بالرضى والقبول وتُقدم لهم « النقولات » من زبيب وتين وجوز علامة الرضى ، فيخرجون شاكرين أهل الفتاة لكرمهم وصدق طويتهم ، مع تحديد موعد الخطبة الرسمية .

في مرحلة « الخطبة» يدعو أبو الشاب رئيساً روحياً والاقارب والاصحاب ومشايخ البلد إلى العشاء في داره ، فتتوافد الوفود في اليوم المعين قبل غروب الشمس ويجلسون في غرفة كبيرة مفروشة بالسجاد والبسط وعلى جوانبها الفرش والوسائد . يدخلون متعاقبين ويصطلون (١) على موقد في الزاوية فوقه أباريق القهوة والشاي . وعندما يكمل عددهم تبسط السُمُط على الارض وتوضع عليها « مناسف البرغل » فيأكلون متبعين آداب السفرة التي لا يجرؤ أحد على مخالفتها لأنهم ينتقدونه جهاراً « هذا عيب ، هذا حرام ... » . وبينما هم يأكلون يخدمهم اثنان أو ثلاثة من أهل البيت ويقدمون لهم ما يحتاجون من ماء وطعام إذا نفد .

وبعد العشاء يعودون إلى ما كانوا عليه من شرب القهوة والشاي والدخان « بالأركيلة » و « السبيل » بحسب شهوة كل منهم . ثم يستأنفون حديثهم في مواضيع شتى حتى ينتهي بهم الكلام إلى موضوع الخطبة : يتقدم أبو العريس ويعطي الشيخ أو الرئيس الروحي غازياً أو غازيين وشملة حريرية سوداء . ثم يذهبون رجالاً ونساء إلى بيت أبي العروس . فيخف أهلها لاستقبال الوفود بكل

---

(١) يتحتم حمل موعد العرس بين كانون اول وشباط لأن القرويين يفرغون من أشغالهم ثم تكون بيوتهم ملأى بالمؤونة والمآكل الواجب تقديمها .

ترحيب ويحلونهم في صدور مجالسهم وتبدأ الاحاديث المختلفة من حديث إلى آخر حتى تحل الفرصة المناسبة فيلتفت الرئيس الروحي إلى أبي العروس ويقول : « الله يمسيكم بالخير يا جماعة الخير ، جئنا إليكم خاطبين راغبين أن ننتسب منكم ، فلا تردونا خائبين . ونحن نطلب ابنتكم فلانة إلى ولدنا فلان ... » فيقول أبو الفتاة أهلاً وسهلاً بكم جميعاً على عدد ما مشيتو وجيتو . وإذا لم تسعكم البيوت تسعكم القلوب ، إلا أن هذا الأمر منوط بعمها أبي فلان وخالها أبي فلان ... » فيتجه الرئيس الروحي إلى من أشير إليهم ويقول « جئناكم خاطبين راغبين » . وبعد الأخذ والرد والمحاورة والمزاح يقول المدعوون لأبي العريس « جعله الله مباركاً عقبال الفرحة الكبيرة » أي الزواج . ولأبي العروس « عقبال فرحة أولادك » وتزغرد النساء اللواتي يجتمعن في غرفة تحوي أنواع الضيافات من برغل ورز ولبن ودبس . وبعد شرب القهوة يعود الجميع إلى بيت العريس فرحين مرحين فتلاقيهم النساء بالزغاريد والرجال « بالتراويد » أي أنهم يرددون الاهازيج منها :

كم راس قطعنا وكم جثه رميناها
بالهوج والموج وضرب السيف خضناها
نحنا ونحنا من سود اللحى نحنا
نحنا الصقورة ولو قُصَّت جوانحنا

ومما تزغرده النساء قولهن :

ايها يا فرحة اللي الي عامين بنطرها
ايها وسألت رب السما ان يكملها
ايها وتكملت يا علي يا ابن الكرام
ايها وتكملت بعناية ربنا العالي
... لولولوليش

ايها نحنا ونحنا ومن سود اللحى نحنا

ايها نحنا نكيد الأعادي اين ما رحنا

ايها ما قلت لك يا فلان يا سيفنا نحنا

ايها روس الأعادي غنم دبّاحها نحنا

. . . لولولوليش

في اليوم الذي يلي الخطبة تذهب العروس باكراً إلى مورد الماء لتملأ جرتها وتأتي بها إلى بيت حميها الذين يستقبلونها بالترحيب ويتحفونها بقطع من النقود الرائجة مع هدية (مثلاً بابوج أصفر) تسمى « عبرة الدار » أي الزيارة الاولى لبيت حميها . ويبقونها عندهم ذاك النهار تعاونهم في تحضير الطعام ويدعون أهلها إلى تناول العشاء وقضاء السهرة بالغناء والرقص والضرب على الدف والنقارات والنفخ بالشبابات . يقابلهم بالمثل أهل العروس بعد أيام قليلة ، بعدها ينصرف العريس إلى شراء الجهاز . وعندما يتم عمل الألبسة وتحضير الاثاث اللازم من دمشق تبدأ المذاكرة بين أهل العروسين لتحديد موعد العرس ونوعه هل كبير أم صغير . فاذا قر رأيهم على أن يكون كبيراً اغتنموا هذه الفرصة ليصالحوا من هو بينه وبينهم شقاق ليشترك جميع أهل البلد في الافراح . وبعد ولائم تمهيدية عديدة وتحميم العروسين بحفلات خاصة والاعتناء بتزيينها وتلبيسها بحفلات خاصة أيضاً (كتحضير الحناء للعروس والاهتمام بحلاقة العريس ...) يجتمع الشبان في غرفة العريس في سبيل التعليلة الحافلة بدءاً من المساء . وإذا ما انقضت ساعات ثلاث من الليل يذهب العريس مع صديقين له مخلصين إلى بيت العروس فيراها من الباب وهي « مصمودة » على المنصة بثيابها الجديدة وحولها النساء تزغردن فيتخذ هذه المناسبة ليشكر بيت حميه « ويستكثر بخيرهم » . وبعد أن يلثم رأس حماته شاكراً ، يرجع أدراجه إلى الشبان الذين ينتظرونه لاتمام التعليلة . وأثناء

ذلك تتوجه العراضات نحو بيت العروس ليقودهـا إلى بيت العريس وهي راكبة فرساً وهم ينشدون :

يخلف عليكم كثر الله خيركم انتو المناصب ما مناصب غيركم

〃 〃 〃 〃 〃 انتو الاكارم ما أكارم غيركم والخ..

وفي الطريق يكثر التصفيق والدبك المنظم مع حمل الاسلحة ، وتزغرد النساء قائلات :

جبنا العروس وجينا تسلم يا أفنديـنـا

〃 〃 〃 خلو العريس يلاقينـا ، الخ...

وهكذا حتى يقترب الجميع من دار العريس فيخرج في موكبه يلاقي موكب العروس . وعندما تصل إلى باب الدار يعطونهـا قطعة من الخميرة وهي لا تزال راكبة فتلصقها على قوس باب الدار وتدخل ويدخل العريس وراءها في موكبه . وحينما تنزل عن الفرس يرمون على رأسها فتـات الخبز ويعطونها قطعة أخرى من الخميرة لتلصقها على قوس باب الغرفة المعدة لهـا « كرمز لاختمار العروس في بيت حميها » . ولا تدخل الغرفة إلا بخطوات خلفية سائرة إلى الوراء رمزاً إلى أنهـا لا تترك الدار إلا على قفاهـا أي حتى الموت . فيدخل معها عريسها ويتركونها راجين للعروسين الرفاه والبنين .

ينتهي العرس وتتم الافراح وتمر الايام فينصرف العريس إلى أشغـاله كما تنصرف العروس إلى أعمـال البيت . فاذا مضى شهر أو شهران تشعر ببعض الحمول فتفضي بذلك إلى أمها ثم إلى حماتها ، فيفرحن بالخبر ويلفتن نظرها الى ضرورة الاعتناء بنفسها مع اعلامها بعض المعلومات التي تجهلها. ثم يباشرن بتهيئة القمصان واللفائف والاقمطة ... حتى اذا انقضى الشهر التاسع وشعرت الحـامل بالمخاض ، يستدعين القـابلة وبعض القريبات فتجري عملية الولادة محاطة ببعض العـادات ومتبوعة

بالحفلات والولائم منها « سفرة الخلاص » أو « سفرة ستي نفيسة » . ويقدمن الطفل الى أمه كلما سمعن صوته انرضعه شيئاً فشيئاً حتى يحسن الرضاعة. ولا تزال القابلة تتردد على بيت النفساء صباح مساء وتتابع أعمالها بتمليح الوليد وتمسيده بالزيت و « تأييسه » أي رش مسحوق الآس عليه ، حتى ينقضي على الولادة أربعون يوماً . فتؤخذ الأم الى حمام الاربعين بحفلة وهي آخر الحفلات . بعدها تربي الأم ولدها تربية ساذجة وتغني له أثناء نومه ويقظته :

نام يا أمي نام لدبحلك طير الحمام
لا تصدقوا ياحمامات أنا اضحك عا ابني لحتى ينام

.....

تقبرني تقبر تقبر تنزل على التربة تحفر
تقبرني يا نور العين تقبر أمك أم حسين الخ ...

ولا يكاد الصبي يمشي ويقدر على أداء بعض الاعمال حتى يكلفه أبوه بالمساهمة في أعمال البيت ثم بالاعمال الزراعية دون أن يكون للتعليم المدرسي شأن كبير . فقد يذهب الى الكتّاب ويتعلم بعض الشيء مع حفظ أجزاء من القرآن ولكنه سرعان ما ينصرف الى الحياة العملية ، فأبوه هو معلمه الحقيقي والطبيعة هي مدرسته الزراعية . أما مدرسته الاجتماعية فالقرية نفسها بما فيها من أقرباء واصدقاء مركزها الرئيسي « منزول » المختار حيث يجتمع القرويون في أوقات فراغهم يشربون القهوة ، فيستمع بدوره الى أخبارهم وأحاديثهم التي تؤثر ، بما فيها من انتقادات وقيم ، على تكوين شخصيته وتطبعها بطابع ريفي معين . وفي أحوال خاصة يختم القرآن بالمثابرة على الكتّاب ثلاث أو أربع سنوات ، فيختم بذلك حياته المدرسية دون ان يتأثر بها تأثيراً عميقاً وتقام له حفلة « الختيمة » يرأسها شيخه ويشترك بها رفاقه من سنه يطوفون شوارع القرية (وهو يحمل القرآن

على رأسه فوق كرسي صغير ، مرتدياً ثيابه الجديدة) وينشدون أناشيد الختام .

حول اصلاح الريف السوري :

كان بودي أن أضيف قسماً ثالثاً للريف السوري أعرض فيه عليكم نموذجاً من الارياف السهلية الصرفة (كمنبج والباب من أقضية حلب) أو نموذجاً من الارياف السهلية المختلطة بالجبلية (كدوما وقطنا من أقضية دمشق) غير أني وجدت الكفاية في عرض نموذجين : ١) السهلي الصحراوي . ٢) الجبلي الصرف . وقد شرحت لكم في النموذجين كيف أن التشابه بين الارياف السورية (في خطوطها الكبرى) حاصل ، فأخشى ، اذا استرسلت باكثار الامثلة ، أن أقع في التكرار الممل أو غير المفيد . مع ذلك فاني أرشدكم الى كتاب تجدون فيه التفصيل الكافي اذا رغبه أحدكم ، وهو الآن يطبع (١) وينتهي طبعه مع انتهاء العام الدراسي حيث تقرأونه في الوقت المناسب . وقد اطلعت شخصياً على الصفحات الاولى منه وقرأتها باهتمام لأن المولف يعرض على القارئ كثيراً من تجاربه ومشاهداته فضلاً عن توسعه في البحث والجمع . وبما أني أختم بحثي في نواحي تطبيقية اصلاحية فسوف أسرد لكم مقترحاته في اصلاح الريف السوري لتضيفوها على المقترحات التي ذكرتها لكم في خاتمة البحث السابق تلخيصاً عن « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ١٩٤٩ » . وقد أشرت لكم منذ البحث السابق ان مجال المقترحات والتوصيات ذو سعة وانه دائماً يجوز لنا اضافة مواد جديدة على القائمة ، لذلك تركت لكم حرية التوسع في الموضوع . وسوف تلمسون وجهة نظري أثناء تعداد مقترحات المؤلف المذكور ، وتدركون كيف يتاح للباحث الاصلاحي التوسع غير المحدود .

---

(١) احمد وصفي زكريا : الريف السوري ، مطبعة دار البيان . دمشق ١٩٥٥

يعرض المؤلف أولاً نقائص الريف السوري. وسأكتفي بتعدادها لكم بدون تعليق : ١) فقدان الاصابة في انتقاء الموظفين الاداريين من غير ذوي الكفاءة أحياناً . ٢) فقدان الاصابة في نقل الموظفين الاداريين من مكان إلى آخر بسرعة دونما سبب ، سوى الاهواء والاحزاب . ٣) فقدان الاصابة في نصب المخاتير بالانتخاب المحلي المغرض . ٤) فقدان الخدمات البلدية في القرى أو قلتها . ٥) فقدان طرق المواصلات أو رداءتها ، وعدم تعبيد أو تزفيت أكثر الموجود منها . ٦) فقدان التخطيط الهندسي والتنظيم العمراني . ٧) فقدان التصميم والترتيب في بناء البيوت . ٨) فقدان الماء المشروب إلا في القرى الجبلية ذات العيون العذبة . ٩) فقدان النور الكهربائي الذي أصبح ضرورة حيوية في هذا العصر . ١٠) فقدان الخدمات الصحية أو عدم كفايتها من جراء تهافت أطبائنا الناشئين على العمل في المدن وانحصار شؤون الطبابة في طبيب القضاء أو الناحية وحده . ١١) فقدان الارشاد الروحي الذي يفقه الناس بالدين ويعرفهم أوامره ونواهيه . ١٢) فقدان أو نقصان المدارس الابتدائية في كثير من القرى وضعف جهاز التعليم ووسائله في بعض الموجود منها . ١٣) فقدان الاصابة في تأسيس الاحزاب في القرى لأن الحزبيات كلما دخلت قرية أفسدتها . ١٤) فقدان روح الاقتصاد والتوفير في الأمور المنزلية ، وعدم حساب الدخل والخرج في الاعمال الزراعية ، وسيطرة التقاليد العربية الجاهلية المحبذة للكرم فوق الطاقة مما يجب أن يدعى إسرافاً وتبذيراً ، خاصة في إقراء الضيوف وإقامة الاعراس أو المآتم ، وينبغي تصحيح المثل القائل « اخرب بيتك وبيض وجهك » . ١٥) فقدان الروح التعاونية المؤدية الى تأليف الجمعيات التعاونية الواجب ايجادها في كل قرية . ١٦) فقدان الارشاد الزراعي أو قلته . ١٧) فقدان الالعاب الرياضية ووسائل اللهو والتسلية البريئة المناسبة لعقل الفلاح ومعيشته . وفي الوقت الحاضر لا يجد

نادياً يرتاده سوى « منزول » المختار أو أمثاله يحتسي هنـاك القهوة المرة ويسمع ما يجري في القرية من القيل والقال . ١٨) فقدان الاغاني والازجال الشعبية اللطيفة ذوات المعاني المعبرة عن خوالج الفلاح والمحببة له مباهج الطبيعة وجمـال الحياة القروية والاعمال الزراعية .

وبعد أن يعرض المؤلف النقائص يعدد الخصائص ليبرهن للقارئ إمكانيـة الاصلاح وضرورته فيقول ما خلاصته : إننا رغم هذه النقائص لا يسعنا إلا أن نحمد الحالة التي عليهـا أريافنا اذا قارناها بمـا في بقية الاقطار العربية الكثيرة الشكوى من أعـداء الانسانية الثلاثة ، الفقر والجهل والمرض . فالفلاح في بلاد الشام مهما رق حاله لا يلبس أسمالاً بالية ولا يمشي حافي القدمين ، على خلاف ماتراه في جموع الفلاحين الذين يمرون في شوارع بعض الاقطار الشرقية ، واذا وجد أثر من ذلك في بعض مناطقنا التي لا تزال على النزعة العشائرية فهو بنسبة ضئيلة . ثم ان فلاحنا لا يسكن عششاً وأكواخاً بل دوراً ثابتـة مبنية باللبن أو الحجر وتحوي أثاثاً نظيفاً . وقد تسمع حديثه فتصغي اليه باعجاب ، كما ان الأمية قد نقصت وهي الى زوال مستمر وقـد تخرج من القرى السورية رجال بارزون الآن في الجيش والطبابة والهندسة . وتقوم دوائر الصحة بما في وسعها ، إذ بذلت منذ ١٩٤٠ مساعي محمودة لتجفيف المستنقعات واستعملت الادوية الحديثـة المضادة للحشرات وقد زالت أكثر الامراض السارية من القرى ونشطت الابدان . ولو كان في بلادنا ينابيع النفط وأمثالها من مصادر الثروة والنعمة كالتي في بعض الاقطار العربية المحظوظة لزاد صلاح الحالة العامة وتوارى الفقر والجهل والمرض بفضل ذكاء السوريين الذين أثبتوا وجودهم في مواطنهم كما في أماكن غربتهم .

وأخيراً ينتهي المؤلف الى ذكر مقترحاته الاصلاحيـة فيقول : ١) ايجـاد الامور التي قلنا انهـا مفقودة واكمال ما هو ناقص ، واصلاح ما هو فاسد بأقصر

زمن ممكن لكي نعوض السنين التي فاتتنا ونلحق الامم التي سبقتنا . ٢) وضع القوانين والتصاميم المبنية على دراسات علميـة . ٣) احداث المراكز الاجتماعية وقد أحدثتها مصر سنة ١٩٤٥ وأحدث لبنان أول نموذج منها سنة ١٩٥٤ . والآن يحتوي كل مركز في مصر (١) على بناية كبيرة فيها عيادة طبية للفحص والعلاج وصيدلية ومكان لرعاية الوالدات والاطفـال ودائرة لتعليم الصناعات الريفية المنزلية ونادي رياضي وملعب عام وحظيرة للدواجن الممتازة وحقل نموذجي وقاعـة للمحاضرات فيها مذياع ومكتبة ريفية ... هـذا وما زلنا في سورية ننتظر صدور قانون في هذا الموضوع آملين متفائلين .

---

(١) جدير بالذكر مساعي اليونسكو في هذا الصدد ، فقد فتحت بالاتفاق مع بعض الدول كمصر والعراق وليبيا ، مراكز اجتماعيـة لتدريب الريفيين على الصناعات الريفية وجلبت لكل مركز اختصاصيين مع الآلات اللازمة للتعليم ...

شكل (٥) الجاروشة المؤلفة من قرصين من الحجر الاسود

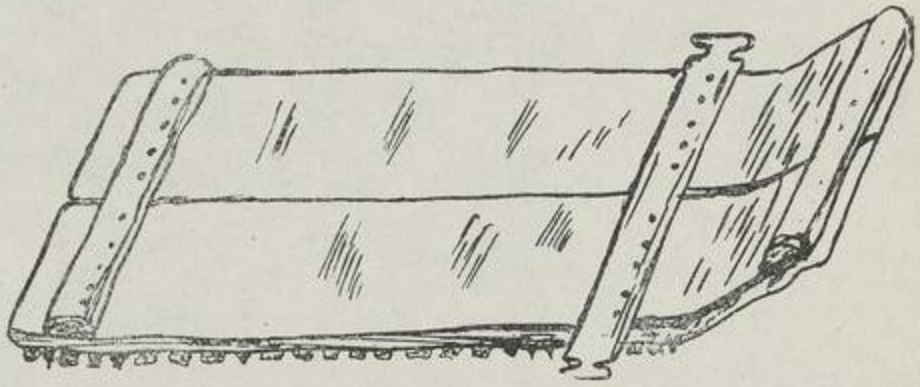

شكل (٦) النورج المجهز بمكعبات من الحجر الاسود في وجهه السفلي

شكل (٧) لباس رأس المرأة

شكل (٨) حذاء المرأة « البابوج »

شكل (٩) لباس رأس الرجل

شكل (١٠) حذاء الرجل « المداس »

البحث السابع [1]

الصفات المشتركة للأرياف السورية

وأرياف الشرق الأدنى اجمالاً

ما هي الصفات المشتركة بين الجبلي اللبناني الذي يتسلق الصخور كل يوم من قريته الى حقله ، والبدوي الذي يتلاشى في رحاب المساحات الواسعة ؟ كيف نقرب بين البستاني الذي يعمل بعناية في المزرعة الفنية المحاطة بأربعة جدران وبين حاصد السهوب الذي ينتزع سنابل القمح النادرة من خلال الحصى سنبلة سنبلة ؟ ثم ما هي أوجه الشبه بين الحياة في البيت المبني من الحجر والحياة في الخيمة ؟

إن رحلة بحرية من سواحل سورية حتى قبرص نحو الغرب تكشف لنا خصائص هامة : قد نجد في اليونان مثلاً حقولاً ومزروعات تشبه ما نراه في سورية ، وقد نرى الجفاف والغبار والمناظر العارية نفسها ، لكننا نلمس آثار حضارة خاصة تختلف عن حضارة سورية . إن الفلاخين الهيلينيين فلاحون

---

(١) هذا البحث ملخص بتصرف عن كتاب :

J. Weuleresse : Paysans de Syrie et du Proche Orient, p.213

مع تلخيص مقالين للدكتور عبد المطلب البقاعي : الهجرة (مجلة العمل ، دمشق ١٩٥٤) والصناعات الريفية (حلقة الدراسات الاجتماعية الرابعة ، بغداد ١٩٥٤) .

بالمعنى الغربي للكلمة وليسوا فلاحين بمعناها الشرقي Fellahs . ويمكن تمييز ميدان الفلاح الشرقي ، كمنطقة كبرى من المناطق الريفية العالمية ، بخصائص فرضتها ظروف تاريخية واقتصادية ، امتد أثرها في الشرق الادنى حتى مصر بل والمغرب العربي رغم الاختلافات الجغرافية المحلية . وهذا الميدان يحوي فلاحين مسلمين ومسيحيين أحاطتهم ظروف واحدة فجعلت المسيحيين أحياناً (في حوران مثلاً) يطبقون نظام تعدد الزوجات المشروع في الاسلام . ولا يظهر الفرق بين المسلم والمسيحي في المدن إلا بالحجاب الذي تضعه امرأة المسلم وهذا الفرق آخذ بالزوال تدريجاً . أما في القرى فلا فرق جدير بالذكر وكل القرويين يخضعون لقساوة محيط ضيق وظروف واحدة مفروضة على الجميع ، إذا استثنينا بعض القرى القليلة المتطورة على غرار المدن .

الصفات البيولوجية والايكولوجية :

الغذاء : يشغل بال الفلاح بالدرجة الاولى هم الطعام . وهو يعيش من غلاله فقط ولا يشتري شيئاً من الخارج . ولما كانت سورية بلاداً تنتج الحبوب فالتغذية القروية ترتكز على القمح والشعير اللذين يستهلكهما الفلاح بشكل برغل وخبز . وعملية الخبز هي أول الواجبات النسائية ، والمرأة هي التي تحضر الخبز « رقيقاً » على الأغلب في التنور . والتنور عبارة عن تجويف بيضوي الشكل من الطين المشوي توقد داخله الاعشاب والاغصان اليابسة وتلصق على جدرانه الداخلية أرغفة العجين الرقيقة ، خلافاً لعملية الخبز على الصاج الذي تلصق فوقه الارغفة . والخبز الرقيق يحتفظ بطراوته ويستخدمه الفلاحون في جميع مآكل المائدة القروية حيث يستعملون الاصابع لتناول الطعام .

يعتبر الخبز والبرغل واللبن « المواد الاساسية الثلاثة » التي يقتات بها الفلاح

خلال الفصول الاربعة. ولا يتنوع الطعام القروي إلا في المناطق المشجرة فيضاف الى المواد الاساسية الزيتون والتين والعنب والمشمش والفواكه المعروفة . أما اللحم فتناوله نادر الحصول إلا في الاعياد والافراح . ويرجح لحم الضأن الذي يسلق مع البرغل ، وفي الولائم تتوج ذروة المائدة برأس الخروف المسلوق أو جذعه .

يشرب الفلاح قليلاً من الماء الذي يأخذه من البئر أو الصهريج وقد يخلطه أثناء الصيف باللبن . ولم ينتشر بعد مشروب الشاي ، وهو مشروب البدو الرحل في سائر الارياف . أما القهوة فكل أسرة ميسورة تستعد لشربها بكميات كافية ، وكل بيت يملك عدتها التقليدية : الجرن ، المدق ، المنلاة ، الفناجين الصغيرة . والمشروبات الكحولية معروفة رغم منع الدين لها ، وقد يفرط الفلاح في شرب العرق (وهو كحول العنب المعطر باليانسون) ولا سيما اذا اشترك في مباراة الشاربين. على ان الادمان كما هو معروف في الغرب لا يزال قليل الانتشار في الشرق .

المسكن : يتصف البيت الريفي السوري بصفات نتجت عن الشروط الايكولوجية والشروط الاجتماعية معاً . فالاقليم يساعد على الحياة في الهواء الطلق لذلك لا يحتوي البيت « المزرعة » وتعقيداتها المعروفة في الغرب ، وكل ما يحتويه قاصر على مستلزمات « الملجأ » بالدرجة الاولى . وقد يكون « مدفأ » بالمعنى المعروف عند سكان البحر الابيض المتوسط Foyer لكن هذه الصفة تأتي بالدرجة الثانية نظراً لتساهل الشتاء . فاذا اعتبرنا البيت بهذا المعنى ثم أضفنا اليه وظائف أخرى بسيطة لها علاقة بتربية الأسرة اجتماعياً ، أدركنا أسباب بساطته وتواضعه . وفي الواقع ، ما الفائدة من الاقبية والسقائف ما دام لا يوجد خمر ولا عنب للعصر ولا تفاح للحفظ ؟ ما الفائدة من اصطبل ما دامت الحيوانات تعيش بحرية ويجوز جمعها في باحة مكشوفة ؟ فاذا كان البيت الريفي في الغرب

قوامه « المزرعة » Ferme وكان السكن أمراً ثانوياً فيه فان البيت الريفي في الشرق يقتصر على السكن وحده، وعلى السكن المتواضع، ولا يتلاءم مع تفاصيل البناء المرسومة في الاقتصاد الزراعي الموجه . مع ذلك يمكن تصنيف البيوت الى مراتب : ١) البيت البدائي لأفقر الفلاحين وهو مقتصر على غرفة واحدة فيها الانسان والحيوان والمؤونة . مثاله مسكن الفلاحين العلويين - طوله ٤ م ، عرضه ٣ م ، ارتفاعه ٢ م . — يعيش فيه الفلاح بدون تهوية ولا إنارة كأنه في وكر . ٢) البيت المتوسط المنتشر في سهول الداخل. وهو أكثر تهوية ونظافة، جدرانه مبيضة بالكلس ، والسقف أكثر ارتفاعاً مع نافذة صغيرة مثقوبة في الجدار ، إلا أن مبدأ الغرفة الواحدة ما يزال مطبقاً ، يضاف اليها باحة محاطة بالجدران تهيء فيها النساء الخبز والطعام وفيها ينام الرضيع نهاراً ويأكل الرجال ويرتع الكلب والدجاج . ٣) البيت ذو الغرفتين أو أكثر عندما يرتفع مستوى المعيشة ، حينئذ تخصص الغرفة الثانية للمؤونة والحطب والتبن . وفي حال تزويج الولد تضاف غرفة أو غرفتان للزوجين الحديثين ، مع الاعتناء بغرفة الاستقبال التي تؤثث كما في بيوت الحضر: كراسي ، دواوين، منضدة ، سرير نحاسي ، الخ.

يبني الفلاح بيته بيده وبوسائله الموروثة عن أجداده مقيداً بالشروط الايكولوجية : ففي المناطق الجبلية يبنيه من الحجر لتوفره وضرورة تقوية البناء حتى يقاوم المطر والثلوج . وهنا نجد المراتب للبيوت كما ذكرنا ، من مستوى البيت البدائي (مسكن العلويين) إلى البيت الكروي (المبني من حجارة غير منحوتة) إلى البيت الكبير (اللبناني الذي يشبه القصر) . وفي المناطق السهلية يبني الفلاح بيته إما من اللبن مع الخشب إذا كان متوفراً (كما في دمشق وأطراف العاصي) وإما من اللبن فقط بشكل القبة (كما في سهوب حمص وحماه وحلب) . وفي كلتا الحالتين تطلى الجدران بالطين والكلس لاملاء الفراغات داخلاً وخارجاً

وأخيراً في المناطق البركانيـة يبني الفلاح بيته من البازالت الذي يكسب القرية لوناً قاتماً . على كل حال تتشابه البيوت من وجوه كثيرة : أولاً وجود الباحة المحاطة بالجدران ثانياً وخصوصاً كون السقف مسطحاً . فالسقف ، عـدا كونه غطـاء للبيت ، يؤلف مركزاً للفاعلية الريفية هاماً : عليه يجفف الفلاح محاصيله وعليه يكدس مؤونة الحطب ، وفوقه ينام في ليالي الصيف حين يكون هواء الغرف حاراً . يستثنى من ذلك منطقتان : الاولى شماليـة حيث القرميد المدور المستعمل في المناطق الرطبـة من البحر المتوسط والمغطاة بالغابات (أنطاكية ، اسكندرونة) والثـانية غربية حيث القرميد المسطح المسمى قرميد مرسيليا الذي يغطي الاسطحة الكبيرة ذات الاربع مثلثات (لبنان) .

أما المتاع فيتشابه أيضـاً في البساطة والتواضع . فلماذا الاثاث المعقد ما دام الأكل والشرب والاستراحة والنوم كل ذلك يجري في مكان واحد ؟ لماذا الطاولة والكؤوس ما دام الفلاح يأكل جالساً « متربعـاً » ويشرب عابّاً « متزرنقاً » . مع ذلك لا يخلو كل بيت من بعض التعقيدات إما لغاية عملية أو لسبب فني . فقد تجد بعض الصحون المبعثرة في الغرفة ، تارة من النحاس وتارة من الفخـار والقش ، وكذلك بعض « الكورات » المؤلفة من قلل من القش المطلي بالتراب والكلس حاوية مؤونة الاسرة . وقد تجد الموقد في وسط الغرفة أو في الجدار الجانبي كما تجـد في الجدار المناظر عدداً من اللحف القطنية والفرش الصوفيـة منضودة في ثغرة خاصة . وفي الوسط أيضاً مهد الطفل من الخشب أو أرجوحته المعلقة في السقف . أضف إلى ذلك صوراً ملونة من صنع النساء تزين الحدران والرفوف بأشكالهـــا الابتدائية (خطوط ودوائر وأشجـار النخيل ووجوه كاريكاتورية ...) تدلك على وجود نزعات فنيـة لا تهدف إلى منفعة مباشرة بل ترى غايتها في ذاتهـا لتطلق عنان الفلاح من قيود الواقع وعبودية العمل اليومي .

وهي إلى جانب التطريزات الريفية تكشف لنا عما في حياة الفلاح من فن . وعلى الرغم من بساطة التصميم والاثاث فان البيت الريفي لا يخلو من تنوعات في هيكله وبنيته . فالمواد المستعملة في البنـاء متنوعة ، وطرائق التنوير متنوعة ، ومظاهر الجدران بقشورها الطينية الكلسية مع ارتفـاع السقف كل ذلك متنوع ، حتى أن بعضها الملون بالأبيض الناصع والمنور بصورة مفرحة قد يثير في الناظر رغبـة الزيارة والبقاء (كما في بيوت الغوطة وضواحي حلب) .

والبيوت الريفية لم تبن منعزلة بل متجمعة لأن التجمع يلطف من فقرهـا . كما أن القوانين الايكولوجية تحتم هـذا التجمع خلافاً لما هو معروف في الغرب من المزارع المنعزلة والمساكن المتناثرة . ففي الشرق أولاً ضرورات التغذية بالماء مع العلم أن الينابيع نادرة وحفر الآبار شـاق وموارد الرزق هزيلة ، وكل ذلك يستلزم جهوداً جماعية . ثانياً ضرورات الأمن التي تفرض التجمع سواء في الاعمال الزراعية الجماعية من حرث وحصاد (وبفضله بقي نظام المشاع رائجاً) أو في الدفاع المسلح . وهكذا ينزع الفلاح إلى التكتل وهو يمـارس شتى أنواع السلوك الجمـاعي . إنه شعور جمعي أكثر من شعور فردي ، ولا نفهم عواطفه وسلوكه إلا مع رهطه وجماعته . وهـذا الشعور يتبلور في الحياة البدوية بمـا يسمى بالعصبية القبلية ، تلك العاطفة التي لا تجهلها القرية السورية . فكل قرية سورية تملك شخصية رهيبة الجـانب مستعدة للدخول بكاملهـا مع الغريب في خصومة . غير أن الذي يستغربه الباحث هو عـدم وجود أي تدبير دفاعي كالأسوار والابواب الحديدية التي تغلق القرية ، فما هي الاسباب التي تعلل بهـا كون القرية السورية قرية مفتوحة ؟ لا صعوبة في الاجابة ما دامت القرية لا تؤلف هيأة سياسية فهي هيأة اجتماعية تخضع سياسياً لأسياد البلاد كيفما كان شكل الحكومة . والامر جلي في السهول أكثر منه في الجبال . لأن الدفاع في

الجبال قد ينصهر فتكون المنطقة كلها حصناً . لذلك كانت الجبال أعسر من السهول بالنسبة للحاكم . وينتظم التحصين في المناطق التي تتطعم فيها الحياة الريفية بعناصر مدنية أي عندما تكبر القرية وتأخذ شكل « مدينة صغيرة » على غرار المدن الاوربية في القرون الوسطى . على كل حال لا يتاح لنا ملاحظة أشباه هذه المدن في الوقت الحاضر ونعود لنقول إن القرية السورية هي مجرد هيأة اجتماعية تبدو في عين الناظر مجموعة مختلطة من البيوت الريفية بلا تمركز ولا انتظام . وكل ما يبرز فيها إنما هو اجتماعي صرف ، كالنبع الذي تجتمع حوله النساء كل يوم فيتحدثن بعيدات عن الرجال بكل حرية . والمقبرة ذات التلال الترابية والقبور المتواضعة بدون أسماء ولا أنصاب . والمزار الذي يلجأ اليه المسنون والمسنات فيستظلون في ظله أو يستدفئون في شمسه وإن كان ثمت طريق يجاور القرية أو ساحة فيقوم في القرية سوق أو خان أو مقهى . وقلما تظهر مراكز أخرى إلا بشكل ضامر ، كالبلدية والمدرسة والجامع والكنيسة .

اللباس : تؤثر العوامل الايكولوجية في تنوع اللباس كما تؤثر في تنوع المساكن . فاختلاف الارتفاع عن سطح البحر وفروق الحرارة بين النهار والليل والصيف والشتاء كل ذلك يستلزم ألبسة مناسبة . وتبقى مسألة الثياب ذات أهمية كما في الغرب خلافاً لبعض المناطق الافريقية . ففي مصر مثلاً تقل هذه الأهمية وتسود بساطة الثياب . أما في سورية فالفلاح عليه أن يستثمر الموارد الطبيعية ويستخدم أنواع النسيج الثلاثة : الصوف والقطن والحرير . وهو حتى يومنا هذا يصنع المنسوجات بيده في سبيل الاستهلاك الشخصي ، أي أن صنع اللباس داخل في إطار الاقتصاد المنزلي . فالمغازل اليدوية منتشرة في البيوت الريفية وتحت خيام البدو ومهيأة لغزل الصوف والقطن والحرير . غير أن طلائع الصناعة الكبرى بدأت تتسرب بثمنها الرخيص إلى هذه البيوت وهنا الفاجعة

المعروفة في علم الاقتصاد بغزو الصناعة الكبرى للصناعة الصغرى . على أنه مهما تمادى هذا الغزو لن يخلو الريف من صناعاته المحببة إلى أهاليه . فأغطية الرأس التي يلبسها النساء تصنع في الريف اللبناني ، والنسيج المولف من شعر المعاز أو الوبر يصنع في لبنان الشرقي ، والاقمشة القطنية الخاصة بالنساء تصنع في جبال العلويين ... وكذلك أنواع أخرى من الاقمشة الريفية تبقى إلى جانب الاقمشة الاوربية محتفظة بألوانها الزاهية وزخارفها التقليدية .

يمكن تصنيف أزياء الرجال إلى نوعين : اللباس الجبلي واللباس السهلي أو البدوي . ١) فاللباس الجبلي يتألف من « الشروال » الذي ينتهي في « الجزمة » وفوقه معطف قصير « قشطية » مع حزام يحيط الخصر تتفاوت سماكته وزخارفه والكل غني بالالوان البراقة . ٢) واللباس السهلي أو البدوي يتألف من ثوب طويل « قنباز » ينتهي عند القدمين وقد يحيطه في مستوى الخصر « زنار » رفيع . وهو زي المناطق الحارة في الصيف ويرتديه الرعاة فيتلاءم مع نوع حياتهم ، تضاف اليه في الشتاء « العباءة » سواء في السهول أو الجبال، وعند البدو «الفروة» لمكافحة برد الليل الشديد .

أما لباس الرأس فتصنيفه يتأثر بمفاهيم دينية أو محلية. فالجبلي الدرزي له عمامة خاصة والجبلي غير الدرزي قد يلبس الطربوش الاحمر بدون عمامة . على أن الكفية والعقال هي اللباس المشترك التقليدي الذي يفتخر فيه الجبلي والسهلي والبدوي معاً . أما الحذاء فهو الجزمة التي ترتفع إلى منتصف الساق في الجبال والنعل الخفيف المجهز بحلقات جلدية تدخل فيها أصابع القدم، للسير السريع في السهول والصحارى.

يمتاز لباس الرأس النسوي كما يمتاز لباس الرجل ، بكونه خاصاً بهذه البلاد دون غيرها . فهو يحيط الرأس ويؤلف إطاراً حول الوجه وتمتد ذيوله من الخلف حتى القدم . وقد يشغل بال المرأة هم الاعتناء به فتضيف إليه منديلاً حريرياً يتدلى إلى الخلف ثم تضع الحلي والاقراط المؤلفة غالباً من قطع نقدية عند البدو ، فيكسب وجهها بريقاً رناناً . ويتألف لباسها العام داخلاً من ثوب طويل فوق

سروال ضيق يمتد حتى القدمين. يضاف إليها تنورة طويلة مثبتة في الخصر بزنار. وعلى الرغم من ثقل هذا اللباس فان الفلاحة تتلاءم معه بسهولة وترفع التنورة لتلفها حول خصرها أثناء الشغل ، والمبدأ أن تكون مستورة الجسم مستورة الشعر خلافاً لما نراه في الفلاحات الصهيونيات ذوات السروال القصير فوق الركبتين مع كشف الصدر والعنق والذراعين . وعلاوة عن الثوب الطويل فالفلاحة السورية ترتدي معطفاً خارجياً أو نوعاً من الصداري التي تنفق عليه باسراف أيام الاعياد لأنه يتألف من الحرير الاصلي أو المخمل المطرز باليد ذي الالوان البراقة (أكثرها الاحمر والازرق والاصفر) ولا تهمل الاعتناء بحذائها بل تنتقيه بلونيه الاحمر داخلاً والاصفر خارجاً بحيث تظهر كلها كتلة ألوان وزخارف ، وقد تبلغ الزخرفة أقصر حدها في بعض القرى القديمة من غوطة دمشق أو لبنان الشرقي ، وفي بعض القرى الجبلية المنعزلة ، منها المسيحي ومنها الدرزي ومنها العلوي . وبالاجمال يولف الثياب الريفي بمجموعه صورة جميلة تشهد لسورية ولبنان وبعض أنحاء الشرق الادنى بوجود حضارة ريفية حقة .

الحركة الديموغرافية: تتصف الارياف عادة بخصوبة النسل ولا تشذ أرياف الشرق الادنى عن هذه القاعدة بل تشجعها مفاهيم دينية وأخلاقية كانت متأثرة بعوامل حيوية وايكولوجية . فالأسرة هي ورشة عمال في أكثر نواحي الريف والأب يحتاج إلى أولاده العمال . وقد زالت بعض العوامل الحيوية والايكولوجية مع بقاء المفاهيم السابقة نفسها إلا في القرى التي بدأت تكبر على غرار المدن والتي بدأت توازن بين العوامل والمفاهيم لتحدد النسل قليلاً أو كثيراً . مع ذلك لا يزال بامكاننا وضع الفلاح الشرقي في المرتبة الاولى بين السكان الذين يتكاثرون في العالم ، ويمكن تقدير نسبة الولادات على وجه التقريب بالرقم ٤٥ بالألف بناء على بعض الاحصاءات المحلية . أما الوفيات فهي كثيرة خصوصاً في الاطفال قبل السنة الاولى ، أولاً لجهل الفلاحات وانتشار الزواج المبكر ، ثانياً لانعدام الوسائل الصحية الواقية إزاء تقلبات الاقليم وجراثيم المحيط ووساخة الاماكن.

وليست قليلة جداً وفيات الراشدين لأن السل والامراض الرئوية منتشرة بسبب سوء الشروط الصحية في المسكن ، وكذلك الحميات المعوية التي تميت صاحبها حتماً في بعض المناطق المرزغية من أطراف العاصي والأردن ، فضلاً عن الامراض السارية التي لها أثرها (النراخوما ، حبة حلب . . .) في تخريب بنية الانسان وإضعافه. على أن المصائب الكبرى المعروفة في الغرب من جراء الكحول والامراض الجنسية ما تزال بعيدة الوقوع في الشرق ويحتفظ العرق الريفي بجماله وقواه سواء في الجبـــال (القروي ذو الوجه الملفوح بالشمس والريح) أو الصحارى (البدوي ذو الجسم المرن) ، مع بعض التغير في السهول لانحلال القوة بعوامل الظل والرطوبة خلال الاشجار والانهار (الفلاح ذو البشرة الكامدة) وإذا قدرنا نسبة الوفيات بالرقم ٢٥ بالألف فانه يبقى معنا على كل حال ٢٠ بالألف زيادة (وهي حاصل طرح الرقمين ٤٥ – ٢٥) فما هو مصيرها ؟

كانت هذه الزيادة قبل عام ١٩١٤ تفنى بالأوبئة كالطاعون والتيفوس أو تهلك بالمجاعات العـامة . ومنذ نصف قرن حدثت الهجرة إلى أمريكا وسواها خصوصاً من لبنان الذي يحتفظ دائماً بنسبة جيدة من الشروط الصحية مع استمرار تكاثر النسل . غير أن الهجرة لن تكون وسيلة التوازن لا في لبنان ولا في سواه ما دام النسل يزداد بنسبة متصاعدة مع تقدم فن الصحة في البلاد أجمع . فلا بد إذن من استخدام رؤوس الاموال في سبيل الاستثمار ، سواء أموال الدول العربيـة أو الجماعات أو الافراد مع حدوث ثورة فكرية في المفاهيم الاقتصادية والحقوقية.

الهجرة : تبدأ الهجرة عادة بكونهـا داخلية قبل أن تكون خارجية . فالهجرة الداخلية إنما هي حركة التنقل داخل حدود الوطن بين منطقة وأخرى أو بين الارياف والمدن ، وهي أسهل من الهجرة الخارجية لسهولة المواصلات وقلة نفقاتها وعدم وجود الشكليات الرسمية . فليس أسهل على الفلاح من الهجرة حيثما لا يحتـاج إلى جواز السفر ولا يتعثر بصعوبات اللغة الاجنبية أو المعاملات التي

يجريها المسافر خارج بلاده . ويمكن إجمال أسباب هجرته فيما يلي : ١) تكاثر النسل في القرى . ٢) حاجة المدن إلى الطبقة الكادحة . ٣) تطور الآلات الزراعية الذي يقلل الحاجة إلى الفلاحين . ٤) نمو المعامل في المدن بسبب توسيع الانتاج . ٥) مغريات المدن وملاهيها وملذاتها .

غير أن الهجرة الريفية في سورية خاضعة أيضاً لأسباب محلية ، لذلك ينبغي دراسة الشروط الايكولوجية بتقسيم الفلاحين إلى قسمين : فلاحي أراضي البعل وفلاحي أراضي السقي ، ثم تقسيم كل قسم إلى نوعين :

١ — فالقسم الاول يعيش في نوعين من أراضي البعل : ١) أراضي البعل ذات الامطار القليلة وفيها يعيش أفقر أنواع الفلاحين وغالب عيشهم على تربية المواشي وبيع منتجاتها الضئيلة . لذلك يضطرون إلى الهجرة أكثر من سواهم . وقد يتملك هذا النوع بعض الاقطاعيين فلا ينال منهم الفلاح أجرة يومية أكثر من ١٫٥ — ١ ل.س للرجل و ١٫٢٥ — ١ ل.س للمرأة و ٠٫٧٥ — ١ ل.س للولد . ٢) أراضي البعل ذات الامطار الجيدة وفيها يجد المرء أشجار الغابات والزيتون والتين مع زراعة البطيخ والقمح والشعير والعدس والقطاني . فهي ذات موارد جيدة ويملكها على الأغلب إقطاعيون يعطي لهم الدونم الواحد نحو ٤٠ — ٥٠ ل.س في السنة فيعطون الفلاح العامل ما يعادل ٣ ل.س يومياً . غير أن العمل لا يدوم سوى أربعة شهور فيضطر الفلاح إلى الهجرة في الشهور الباقية . وقد يهاجر نهائياً تخلصاً من عبودية أصحاب الاراضي لأن الذي يقدر على القيام بصناعة إضافية يستعين بها على العيش في أوقات البطالة لا يتاح له القيام بها بحرية كافية بسبب تبعيته لصاحب الاراضي .

٢ — والقسم الثاني يعيش في نوعين من أراضي السقي : ١) أراضي السقي البعيدة عن المدن ، وفيها يجد المرء زراعات أساسية كالقمح والشعير والذرة

والبطاطا والقنب والبصل والثوم كما يجد أشجار الجوز والمشمش والعنب وسواها مع بعض أنواع الخضر في نطاق ضيق (لتعذر تصديرها إلى المدن البعيدة فتستهلك محلياً أو تجفف) وبعض أنواع الصناعات الغذائية (اللبن والبيض اللذين يستهلكان محلياً أو يباعان بثمن بخس) . على كل حال يعطي الدونم نحو ٨٠ — ١٠٠ ل.س في السنة فيكون دخل الأسرة المؤلفة من ٨ — ١٠ أشخاص نحو ٤ — ٦ ل.س يومياً . فالهجرة تكون هنا « موسمية » لأن الفلاح العامل ينتقل إلى الاراضي المجاورة أيام الحصاد ومواسم قطف العنب ليجد له مورداً إضافياً يعينه على تمضية باقي أيام السنة في قريته . وغالباً ما ينحدر المهاجرون من المناطق الجبلية ذات الاراضي الضيقة المحرومة من الزراعة والاشجار . وتتراوح أجورهم اليومية في المواسم الفعالة ما بين ٢،٥ — ٣ ل.س للرجل و ٢ — ٢،٥ للمرأة و ١،٥ — ٢ للولد ، وفي المواسم غير الفعالة ما بين ٢ — ٢،٥ للرجل و ١،٥ — ٢ للمرأة و ١ — ١،٥ للولد . ٢) أراضي السقي القريبة من المدن ، وفيها يجد المرء كثيراً من الاشجار المثمرة كالزيتون والمشمش والتفاح والخوخ والاجاص والجوز والرمان كما يجد كثيراً جداً من الخضار (لسهولة وضرورة تصديرها لتموين المدن) . وهي كثيرة الموارد قليلة النفقات (لقرب مراكز التصريف ورخص المواصلات) ولا تتطلب سوى الاستمرار في العمل طوال أيام السنة . ويعطي الدونم الواحد منها نحو ١٥٠ — ٢٠٠ ل.س في السنة ويكون دخل الأسرة نحو ١٠ — ١٢ ل.س يومياً ، يضاف إليها مورد تربية الدجاج والمواشي وزراعة الزهور ، وكلها تؤمن المزارعين (بما يبيعوه من بيض وحليب ولبن وجبن وزبدة وزهور) مستوى من العيش جيداً . وتغلب على هذه الاراضي صفة الملكية المتوسطة أي يملكها إقطاعيون متوسطون يليهم في الدرجة الفلاحون الملاكون والفلاحون الضمانون . أما أجور الفلاحين العمال فتتراوح يومياً في المواسم الفعالة

بين ٣,٥ — ٤,٥ ل.س للرجل و ٢,٥ — ٤ للمرأة و ٢ — ٢,٥ للولد . وفي المواسم غير الفعالة ٢,٥ — ٣ للرجل و ٢ — ٢,٥ للمرأة و ١ — ١,٥ للولد . وفي هـــذا النوع الاخير قلما تحدث الهجرة إلى المدينة بل تحدث « الهجرة المعكوسة » : أي عندما يغني التاجر أو الصانع في المدينة يفتش عن أراضي قريبة من مدينته فيشتريها أو يستأجرها أو يضمنها .

لا شك أن الهجرة المعكوسة مفيدة للفرد والبلاد بآن واحد ، غير أن هجرة الريفيين إلى المدن محاطة بكثير من المساوئ . فهي إذا أغرت الفلاح بترك أرضه فانها لن ترفع مستواه في المدن إلى النسبة التي تساعده على تكوين بيت وأسرة . فالأجرة « الاسمية » في المدينة مرتفعة ولكن الأجرة « الحقيقية » تبدو متدنية لارتفاع نفقات المسكن والغذاء (بسبب كثافة السكان) . ثم إن الفلاح لا يجد في المدينة مورداً إضافياً كما في القرية ، مثلاً تأمين حبوبه والاستفادة من منتوج الدجاج والمواشي ، فهو إن يجد في الهجرة فرجاً فقد يلاقي في الوقت نفسه مضايق يصعب اجتيازها ولا سيما إذا انخفضت أجرته . ومن جهة أخرى فان البلاد تضطرب من جراء هجرته ويختل توازن السكان فيها : تزداد الكثافة في مناطق وتقل في أخرى . وبما أن الهجرة قوامها الشبان فبهجرتهم يقل الزواج وتقل نسبة الولادات بسبب التباعد بين الزوج والزوجة في سني الخصوبة . وعدا هذه المساوئ الديموغرافية فان مساوئ أخرى اجتماعية واقتصادية تلحق بالقرية والمدينة معاً : ١) بالقرية تقل الفاعلية الزراعية وينعدم تفاؤل الفلاح فلا يكافح صعوبات الاقليم لتحويل الارض البور إلى أراضي منتجة ، ويتدني الانتاج الزراعي تقل الثروة الوطنية ويتدنى مستوى العيش لدى القرويين فتكثر المهاجرة وتزداد الحالة سوءاً على سوء في الفقر والجهل والمرض ، ثم تفقد القرية تقاليدها وجمالها وتراثها الريفي . ٢) بالمدينة تتأزم الايدي العاملة بسبب مزاحمة القرويين

وتنخفض الاجور التي يقبلونها بحكم مستوى العيش الذي اعتادوه في القرية وبسبب وجود موارد ثانية يعتمدون عليها ، وبالنتيجة تنعكس عليهم آثار ذلك وعلى زملائهم المدنيين فتقل نسبة التغذية في طبقة العمال وتسوء الشروط الصحية للمسكن والملبس . ثم تقع المدينة بمشاكل معقدة من جراء البطالة ، كانتشار الجرائم وتفشي المفاسد الاخلاقية والامراض الخطيرة بنوعيها الجسمي والنفسي لذلك ينبغي اتخاذ الاحتياطات لتحديد الهجرة وتشجيع الريفيين على البقاء في أراضيهم عن طريق المشاريع الزراعية والصناعية التي تستخرج من الريف خيراته الدفينة .

هنالك حالات قد تفيد فيها الهجرة ، وربما حدثت في المستقبل في بعض أنحاء الشرق الادنى . ١) ففي الريف قد يزداد السكان مع رقي المنطقة ونشاطها في بعض الاختصاصات ، فتضيق الارض بسكانها ، حينئذ تكون الهجرة علاجاً لهذا الضيق كما تكون سبباً لرفاه الذين يبقون ، فتتحسن الاحوال الديموغرافية من زواج وولادات كما تتحسن الثروة المحلية بتمويل المهاجرين لقراهم المحبوبة ، في سبيل التوسيع الزراعي والصناعي . ٢) وفي المدينة قد تحتاج المشاريع الجديدة إلى المزيد من الايدي العاملة فتصل إليها وفود الشباب من الارياف ، لتضاعف الانتاج الوطني . وبذلك تتحسن الاحوال الديموغرافية ثم تتحول البلاد من دولة صغيرة محدودة الامكانيات إلى دولة كبيرة ذات شأن . وفي هذه الحال يتاح للدولة وقاية العمال وحماية أجورهم وتأمين راحتهم في المساكن الملائمة بل وتأمين حياتهم في شيخوختهم ومرضهم .

الصناعات الريفية : لقد أثر عصر الآلة تأثيره في إخماد الصناعات الريفية التي كانت نفائس يتزاحم على شرائها الغربيون . واستطاعت الآلات الحديثة تقليد بعضها ومنافسته كالحرير النباتي ونسيج العبي والبسط ، مع ذلك فقد بقي

للشرق بعض اختصاصاته وأخذت الآن كل دولة شرقية تعنى باحياء صناعاتها ، كما أخذ اقتصاديو الامم المتحدة يشجعون هـذا الاحياء مع المناداة بضرورة تصنيع الريف في سبيل الانعاش الاجتماعي .

يمكن مبدئياً تقسيم الصناعات الريفية إلى قسمين : الصناعات الغذائيـة والصناعات غير الغذائية .

١ — فالصناعات الغذائيـة هي التي تقوم على حفظ الحليب وحفظ الفواكه وعصر العنب والزيتون ، وعن ذلك تنتج الانواع الآتية : ١) صناعة الالبان : وهي صناعة منتشرة في قرى دمشق وحلب وحماه وحمص . والالبان كثيرة منها الجبن ، والزبدة والقشدة والكريم والقريشة . أشهر أنواع الجبن : الافراوي المصنوع في قرية « افره » من قرى دمشق ، والعكاوي والزبداني وجبن حلب المضفور وجبن الضرف المصنوع في البـادية وجبن القشقوان المصنوع في قرى دمشق وحلب (ينافسه الجبن الهولاندي والفرنسي والتركي) . وهناك نوع من اللبن المجمد والمغلف بطبقة من البهـارات يسمى « شنكليش » يصنع في حمص وحمـاه . أما الزبدة فمشهورة بأنحاء حمـاه ودير الزور والجزيرة بالطرق القديمة وأنحاء دمشق وحلب بالطرق الحديثة (الآلات الفارزة) . وكذلك السمن المشهور بحماه ودير الزور والجزيرة ويتقن صنعه البدو ، وله أشكال عديدة منهـا السمن الحديدي الحموي ، وإجمالاً تجارته رابحة هو وسائر الالبـان التي يصدر منها كميات كبيرة إلى لبنان . ٢) صناعة الكشك : وتكون بتجفيف القمح أو البرغل الممزوج باللبن وفركه باليد فركاً ناعمـاً ، يستخدم كحساء ويصنع في جميع القرى . ٣) صنـاعة القمر الدين والنقوع والتين المجفف . فالقمر الدين يحصل من تجفيف عصير المشمش على ألواح خشبية مدهونة بالزيت ، تلف بعـد تجفيفها وترسل إلى المدن السورية أو إلى الخـارج كمصر وأمريكا . أمـا النقوع

فيكون بتجفيف المشمش فقط على أشعة الشمس ، وكذلك التين المجفف ، إلا أن لهذا الاخير نوعاً يسمى « تين القوالب » يجفف ثم يضغط في قوالب خاصة معروفة في قرى حلب . ٤) صناعة الدبس ، ولها طريقتان : الطريقة الاولى وهي الأكثر شيوعاً « غلي العصير الزبيبي » والطريقة الثانية « غلي العصير العنبي » . فبعد الحصول على العصير بواسطة المعاصر المؤلفة من دواليب ثقيلة، يقطر بواسطة نوع خاص من الشيح . وبعد ثلاث تقطيرات مدة كل منها ٢٤ ساعة يحصل نوع من الشراب « صلبية » يجمد أثناء الغليان الكافي ، فيشكل الدبس . يتفرع عن هذه الصناعة صناعة الملبن (قضبان من عصير العنب المجفف والممزوج بالدقيق مع الجوز) وصناعة الباستيك (صفائح رقيقة من المزيج المذكور) المشهورتين في قرى حلب واللاذقية . أما الزبيب فهو العنب المجفف وأشهره الزبيب الدربلي . ٥) صناعة الزيت : وتكون بعصر الزيتون بواسطة معاصر ذات دواليب ثقيلة ولا تزال بعض القرى في دمشق وحلب واللاذقية تتبع الطرائق القديمة . تعتبر سورية من البلاد المصدرة للزيت وأجوده الزيت الناتج من الاشجار الساحلية .

٢ ــ أما الصناعات غير الغذائية فهي على نوعين : الصناعات المنزلية والصناعات غير المنزلية (أي المشغلية) .

فالصناعات المنزلية تزاولها النساء على الاغلب ، وذلك بأدوات بسيطة داخل البيوت . ومن النساء من يشتغلن في البيت لحساب تاجر أو مستصنع يقدم لهن المواد اللازمة . أشهر هذه الصناعات : ١) صناعة الاغباني : وهي نوع من التطريز على أقمشة خامية أو حريرية بواسطة ماكينات بسيطة . والمشهور من القرى في صنعه قضاء دوما حيث ٧٥ ٪ من بيوته تشتغل لحساب تجار « سوق الحرير » بدمشق . تتراوح أجرة العاملة ما بين ١،٢٥ - ١،٥ ل.س يومياً . ويصدر الانتاج منه إلى البلاد العربية المجاورة . ٢) شغل الصنارة : وهي من

الصناعات النفيسة التي يرغب ابتياعها الاجانب من السواح والزوار . والمشهور في صناعتها يبرود التي تحوي نحو ٥٠٠ فتاة يشتغلن بها أوقات فراغهن . وينتج عنها شغل الطواقي والكفوف وشبكات الالعاب الرياضية والسلال ... التي يصدر قسم منها إلى لبنان وأفريقيا . ٣) شغل الابرة وهي أيضاً من الصناعات النفيسة المرغوبة لدى الاجانب والمشهور في صناعتها القطيفة وجوارها . ولها أشكال عديدة منها : شغل الطواقي ، الطرابزات ، الصداري ، قصب المخمل والبريم ، الحفر ، التركيب ، الخ . وقد ظهرت أقمشة مقصبة رخيصة الثمن كادت تقضي على هذه الصناعة ، غير أن تجار الفنادق ومكاتب السياحة أخذوا يطلبونها من منبعها بعد أن تنوع طرازها مع ذوق الاجنبي والمدني كليها . ٤) شغل السجاد وهي من الصناعات القديمة التي لا تزال في بعض نواحي القلمون وجبل الدروز وقرى حماه (محردة) واداب واللاذقية . والمشهور في إتقانها قرية دير عطية في القلمون ، أدواتها بسيطة ريفية ونولها الشاقولي لا يشغل حيزاً كبيراً من المكان . يدوم عمل السجادة الواحدة ٣ ٤ شهور وتحتاج إلى مهارة في الحياكة ومهارة في انتقاء الالوان وإبداع الرسوم . فالجودة في الغزل والجودة في الصباغة والنقش هما العاملان في رواج هذه الصناعة ولو أن التجار يمولون صناعها والحكومة تشجعهم بشراء منتجاتهم لدوائرها لكان انتاجهم أوسع ومراكزهم أكثر انتشاراً في القرى العديدة ، مما يقدم مورداً للريف لا ينضب . ٥) شغل العبي وهي نوع من صناعة النسيج بوبر الجمال وصوف المواشي . والمشهور في صناعتها : صدد وحفر والقريتين (خصوصاً نسيج الوبر) ثم قرى حلب (العباءات الصوفية) . ويبلغ عدد الانوال في صدد نحو ٤٠٠ — ٥٠٠ نولاً وفي حفر نحو ٤٠ نولاً والقريتين ١٠٠ نولاً وقلما يخلو منزل من منازل صدد من نول أو نولين هذه المدينة التي تعيش على هذه الصناعة رغم وقوعها بعيدة في الشرق على حدود

البادية . إلا أن هـذه الصناعة محاطة بالاخطار . أولاً لظهور نوع من القماش الايطالي رخيص الثمن وقد منعت استيراده وزارة الاقتصاد الوطني . ثانياً تحول ذوق البدوي نحو ارتداء المعاطف الجوخية . ثالثـا بخس الاجور التي تدفع إلى صناع العبي وعـدم وجود مراكز تسليف لهم . رابعاً العقبات الجمركية القائمة بين البلدان العربية . في الوقت الحاضر يعنى في جمع العبي في صدد مركزا حلب ودمشق اللذان يوزعانها على بقية البـلاد . وتبلغ نسبة الذين يشتغلون لحسابهم ٨٥ ٪ والـباقي ١٥ ٪ يشتغلون أجراء لحساب غيرهم . أما العامل فـلا تتجاوز أجرته اليومية ٢،٥ ل.س. ٦) صناعة البسط وهي كصناعة العبي يختص بنسجها الرجال وبغزلها النساء والاطفال . والمشهور في إتقانها مع صناعة الخروج ، قرى القلمون . وهي إن كانت صناعة منزلية في القلمون ومحردة وجرابلس وجبل الدروز والبوكمال ، فانها تكاد تكون مشغلية في تدمر . يصنع البساط من الصوف وقليل من القطن ويدوم العمل في صنعه نحو ١٢ يومـاً مقابل أجرة تتراوح بين ٣٠ — ٣٥ ل.س أي مقابل أجرة يومية ٢،٥ — ٣ ل.س . ٧) صناعـة الكليم وهي نوع دقيق من صناعة البسط بالنسيج الصوفي وخاصه مادة الكنبك المستوردة من الهند والباكستان . والمشهور فيها دير الزور والميادين والبوكمال . ٨) النسيج اليدوي وهي صناعـة كل قرية من القرى المجاورة المدن الكبرى ، غير أن الانوال في قرى حلب أوسع منها في قرى دمشق . ومنتوجها الخام بأنواعه : في دمشق الخـام الصالحاني مع نسج الصايات ، في حمص نسج الحطة والشرشف والفوطة ، في حماه نسج الشرشف والمناشف المطرزة المقصبة ... في حلب الخام والسجف والصايات بأنواعها . ٩) صناعة الحبال ، وقوامها قشر القنب المزروع خصوصـاً في قرى الغوطة . يبرمونه بدواليب خاصـة ويدوم العمل طوال أيام السنة بالهواء الطلق أمام أبواب البيوت باشتراك جميع أفراد الأسرة القـادرين .

يوجد في ضواحي دمشق ٦٠٠ دولاب وفي حلب ٨٠٠ وفي حمص وحماه ٥٥٠ . يزاحم هذه الصناعة ما يرد من الحبال الاجنبية المصنوعة من الليف والنايلون .

١٠) صناعة القش والحصير والسلل والمكانس ... التي يقوم بها الرجال وأحياناً النساء . قوامها نبات القش أو سوق القمح أو القصب المسمى بواري (منه تصنع حصر السقف) وأكثره ينبت حوالي الانهار والبحيرات . وفي هـذه الصناعة مجال للابداع الفني أثنـاء التلوين وترتيب الاشكال وبالامكان تشجيعها في سبيل الاصدار للأجانب .

أما الصناعات غير المنزلية فهي الصناعات المشغلية التي يقوم بهـا القرويون في أمكنة خاصة يتجمعون داخلهـا ، وتكاد تقتصر على النسيج في القرى الكبيرة من أقضية حلب ودمشق . ١) صناعة نسيج الشعر ، والمشهور فيهـا يبرود التي تصنع الخيام للبدو مع البسط والدثارات ... فيصدر منها إلى الصحارى العربيـة كميات كبيرة . ولولا ذلك لما عاشت يبرود مع كثافة سكانها . وإذا لاحظنا كثرة المهاجرين من القرى الأخرى في القلمون بالنسبة لقلة المهاجرين في يبرود نلاحظ أهمية الصناعات الريفية في توطيد السكان . ومن الطبيعي أن تمتاز هـذه الصناعة بوجود التجار الكبار الذين يمولون مشروعاتها ولا سيما الحلبيون . وإذا قسمنـا الشعر إلى نوعيه المحلول والمشغول ، فان المحلول يتألف من الكنبك المستورد من الهند والباكستان أو من شعر الماعز المستورد من مصر وقبرص ولبنان أو من شعر الماعز المدبوغ في سورية . وقد يمزج قسم من المشغول بالكنبك المذكور . ٢) صناعة الفخـار ، والمشهور فيها نواحي اللاذقية المشابهة إلى لبنان ، ونواحي حلب . ومتى نضج الفخار أثنـــاء الشوي تزداد متانته ومنه تصنع القساطل والشربات والقلل والقدور والتنانير . ٣) صناعة صناديق الفاكهة والمشهور فيها جميع ضواحي المدن الكبيرة وهي صناعة موسمية لا تستمر أكثر من خمسة شهور

في السنة . ٤) صناعة اللباد والمشهور فيها قرى ادلب ودرعا والقلمون حيث تطبخ بقايا الصوف داخل حمامات خاصة ساخنة ثم تكبس زمناً كافياً قبل التجفيف . ٥) تربية دود القز وحل شرانقه ، والمشهور فيها ريف اللاذقية الذي يحل الحرير على الطريقة القديمة ، على أن الطريقة الحديثة انتشرت في أنحاء حمص التي يسمى حريرها بالحرير الافرنجي الذي نال الدرجة الاولى في بعض المعارض الدولية . ويوزع الحرير الطبيعي على النساء في قرى حمص ودمشق لفرزه وتحويله إلى نوع من الشلل يسمى « الشمط » . ٦) صناعة الزجاج بالنفخ وهي صناعة قديمة ولا تزال على الطرائق القديمة . وهي ذات منتوج رائج في القرى رغم مزاحمة الزجاج الاجنبي ورغم وجود المعمل الحديث الذي أنشئ أخيراً في سورية . وهناك صناعات ريفية أخرى كصنع أحجار الطواحين والمهابج والعلب الخشبية لحفظ المؤونة والبهارات . . . ثم دبغ الجلود وصنع النرابيش للتراجيل . . . قد تأتي كلها في الدرجة الثانية ولا مجال إلى ذكرها . على أنها مع ذلك تبقى أشياء طريفة تثير حب الاطلاع .

الصفات الاجتماعية والنفسية :

تبدو دراسة النواحي الاجتماعية والنفسية أكثر صعوبة من النواحي البيولوجية والايكولوجية ، لأن هذه يمكن دراستها في أشياء مادية ملموسة كالمسكن واللباس أو حوادث موضوعية كالبذار والحصاد ، بينما الحوادث الاجتماعية النفسية يصعب دراستها في داخليات الافراد الريفيين . ١) لعدم وجود مؤلفات ريفية كتبها الريفيون أنفسهم ، وإذا حدث نوع من ذلك فيخشى أن يكون فاسداً بعقده النقص التي تلازم الريفي حين يخفي بعض النواحي من ريفه يعتبرها من النوع البدائي وهي التي تهمنا أكثر من سواها ، فلا يعمد إلا

إلى إظهار ما هو جديد حباً بالاقتراب من أهل الحضر في هـذا الجديد .
٢) لا يمكن الاكتفاء بنصوص القرآن الكريم والكتب الدينية والقوانين العثمانية لأن المجتمع العربي بنوعيه الحضري والريفي يبقى متأثراً بعوامل أخرى عملية . فالمدن الكبرى من جهة تتأثر بالتشريعات الحديثة وتتطور باستمرار مع المقتبسات الغربية ، والارياف من جهة أخرى تتأثر بالتقاليد الابتدائية وتتطور مع العرف والعادة تطوراً جزئياً ولا سيما الارياف المتطرفة التي تذكرنا بعهود الجاهلية الاولى . ٣) لعدم وجود مؤلفات ريفية كتبها المدنيون بعد اختصاص طويل الأمد ، إذ ينبغي أن يعيش العالم المتخصص طوال حياته في المحيط الريفي ومنذ الطفولة إذا أمكن ، لتفهم أعماق الحياة الريفية . والمؤلفات التي صدرت من هذا النوع نادرة (١) .

مع ذلك لا يخلو الريف دائماً من بعض المستندات العلمية التي يمكن الاعتماد عليها في البحث كالأغاني والامثال والتقاليد والمعتقدات المشتركة مما سوف نلجأ إليه في دراسة الأسرة والحياة العائلية والحياة القروية والطقوس الدينية .

الأسرة(٢) : يسود الحياة القروية أولوية الأسرة . ولا شك أن الاسرة تشكل في جميع البلاد وفي جميع الحضارات الاساس البيولوجي للمجتمعات إلا أننا نجد ما ينازعها على هـذه المكانة في المناطق الاخرى . أما هنا فتسود الاسرة وحدها

---

(١) يذكر Weuleresse من هذه المؤلفات أطروحتي الدكتورين شاتيلا وداغستاني.

Chatila (Khaled) : Le mariage chez les musulmans en Syrie.

Daghestani (Kazem) : Etude sociologique sur la famille ...

(٢) أعانني في ترجمة الفقرات التالية حتى آخر البحث ، الطالبان في كلية التربية السيدان ناظم الطحان ومهران بجي ، وذلك عن كتاب Weuleresse المذكور سابقاً .

تقريباً . ولا وجود للنزعة الفردية ، ولا يعرف الناس ظاهرة الفرد المنعزل بل وجود العائلة وفي سبيلها . والأطر العليا التي توجد فوقها عاجزة : فعدم وجود الدولة وغياب الوطن سمتان بارزتان في القرية . ولما كان الفلاح السوري لا يعيش من أجل نفسه ولا في سبيل كائنات تسمو عليه فهو يركز جميع قواه العاطفية والفكرية على عائلته الخاصة . وهي بالنسبة إليه وجوده ذاته ووطنه . والعاطفة العائلية بالنظر لوحدانيتها تنقلب إلى هوى يجتاح جميع ملكات النفس . ومن جهة أخرى فان عالم الفلاح محدود ضيق شاق مما يجعل الاسرة عقيدة يلجأ إليها وعن طريقها يحاول تجاوز ذاته والاستمرار إلى ما بعد الموت ، فهي الخلد بالنسبة إليه . والقانون الوحيد الذي يخضع له في أعماق نفسه والذي لا يعرف الاعراب عنه هو أنه أخذ الحياة من غيره وعليه بدوره أن يعطيها في ذلك تكمن عظمته ويقوم المبرر لوجوده . مما يتيح لنا أن نفهم كيف نجحت الحياة القروية في البقاء عنيدة متصلبة حتى تخوم الصحراء نفسها في فيافي مكشوفة لجميع نكبات التاريخ ومعرضة لجميع مصائب الفصول . والتناسل في سبيل التكاثر ، هـذه ميزة من ميزات الحضارات السامية .

فما هي الوحدة العائلية التي يحيا من أجلها الفلاح ؟ إن كلمة الأسرة الغامضة تدل في الواقع على أشياء مختلفة لذلك ينبغي أن نميز أنواعاً مختلفة من الأسر كالأسرة الزوجية التي تقتصر على الزوجين والاولاد ، ثم « الأسرة الابوية » حيث يحتفظ الأب بالسلطة حتى مماته على جميع ذريته مهما كان سنهم ، ثم « الأسرة القبلية » حيث تتسع روابط الدم إتساعاً كبيراً وتبقى هـذه الروابط حية فعالة برجوعها إلى سلف مشترك .

والأسرة الاولى أي « الاسرة الزوجية » وهي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الغربي ، لا تلعب إلا دوراً اجتماعياً ضئيلاً عند الفلاح الشرقي إذ

لا يشكل بنظره الزوجان المنعزلان أسرة ولا يتصورهما إلا مندمجين في الأسرة الابوية التي تشكل في الوقت نفسه الوحدة الاساسية للاستثمار. ويظل الأب السيد الاوحد في أسرته، سواء أكان ملاكاً حقيراً أم مستأجراً، وتتلاشى الأسر الصغيرة التي تنتج من زواج فروعه تحت سلطته فتساكنه وتعمل تحت إشرافه. ولما كانت الزيجات تتم في سن مبكرة جداً فليس من النادر أن يجتمع ثلاثة أو أربعة أجيال تحت سقف واحد وأن يظل استثمار الاراضي مشتركاً والجميع يشكلون بيتاً واحداً.

وليست هذه الحال بعيدة مع ذلك عن الاعراف الغربية القديمة إذا أمعنا النظر فيها. فالجماعات الريفية المجتمعة حول المواقد كانت تطبق نظام التضامن العائلي ذاته وتبعية الشباب بالنسبة للشيوخ ذاتها. وكانت ضرورات استثمار الاراضي تتطلب مثل هذا التضامن.

وبعكس ذلك فان الاسرة القبلية شرقية من حيث نوعيتها وليست من أصل زراعي. بل ترتبط بأعراف البدو الرحل. في الحقيقة أن الخطر في الصحراء دائم ومنتشر في كل مكان، والبحث عن الأمن يجبر الاسر الابوية المختلفة التي تربط بينها وشائج القربى أن تظل متحدة في سبيل الدفاع المشترك. والنظام في الصحراء يعتمد على تسلسل دقيق لدرجات القرابة الدموية، وهكذا يؤول بنا الامر إلى العشيرة التي قد تمتد إلى الدرجة العاشرة من القرابة وتزداد بالتبني والولاء حتى يبلغ عددها عدة مئات من الافراد.

وقد نتج هذا البناء ذو النسق السياسي، عن حياة الترحال واستمد بقاءه منها. فهو لا يتلاءم إلا بصعوبة مع الحياة الحضرية ومع مستلزمات العمل في الارض وروحه. ومع ذلك فقد بقي هذا التنظيم راهناً بدرجات متفاوتة في المناطق التي لا تزال الروح البدوية سائدة فيها وخاصة في حوران والجزيرة،

وكذلك بصيغ مختلفة في الاقاليم التي تتصف بالاضطراب الدوري وهي أقاليم ذات بنية اجتماعية ابتدائية كما في جبال العلويين والدروز والاكراد . وأخيراً لقد بقي تصوره في الاذهان رغم تعديله في المدن ، لدى الطبقة الارستقراطية على الاقل ، ولم تقم الاسر المدنية الكبرى في الحقيقة على مبادئ أخرى ، بل بقي التضامن بين مختلف الجماعات التي تربط بينها صلة القربى عن طريق الاعتزاز بالاصل (بمعنى نسب العائلة) يصونه نظام الزواج الداخلي الذي تتفاوت الاسر في التقيد به . وعلينا أن نلاحظ بأن أحدث قانون للاحوال الشخصية في سورية يأمر باحترام مبدأ الكفاءة الاجتماعية في الزواج وكل زواج يتم خلافاً لهذا المبدأ يعتبر مخالفة قانونية . وينجم عن ذلك غالباً أنه قلما يمكن الزواج إلا بين أبناء العمومة المتباعدين . وقد استمر هذا البناء الارستقراطي من الناحية الاقتصادية خلال العصور بفضل تطبيق النظام الذي أشرنا اليه وهذا النظام يحرم تقسيم الاراضي . وكل بيت من هذه البيوت بالمعنى الشبه الاقطاعي للكلمة، يملك أملاكاً جماعية واسعة يؤدي تقسيمها لخراب العائلة . وإن عدد أفراد الاسرة وتعاضدهم والثروة العقارية والاتباع من المدينة والقرية والدور السياسي والامساك بزمام الحكومة المحلية كل هذه العوامل تتضافر بصورة متبادلة .

إن اطار الحياة القروية أقل طموحاً فهو يقتصر على العائلة الابوية الضيقة التي تعيش في بيت واحد وتستثمر أرضاً واحدة تحت السلطة الابوية . ولا أهمية هنا إلا للرجل ، والزواج بالنسبة للنساء يبقى انفصالاً كلياً عن أسرة الطفولة . فالزوجات يتبعن أزواجهن إلى بيوتهم . وتبدو فكرة عيش الصهر مع عمه تحت سقف واحد لكثير من السوريين عاراً ومخالفة لآداب اللياقة . ولا يحصل الانفصال إلى أسر زوجية منفردة إلا في طرفي العالم القروي : ١) في الاوساط المتطورة كل التطور . مثال ذلك ما نجده في بعض المناطق من لبنان حيث تطالب

الاسر الفرعية باستقلالهـا . ٢) عند أتعس سكان الداخل في قرى المستأجرين « العمال الزراعيين » إذ قلمـا يعد الفلاحون بعد أولادهم وزوجاتهم ، شيئاً آخر غير حيواناتهم ولا يمكن للحياة العائلية هنا أن تتجاوز الزوجين والاولاد .

وتشكل العائلة الابوية عماداً متيناً للحياة القروية ، وفي سبيلهـا يضحي المرء بحياته مع بقـاء الأب متمتعاً بجميع الصلاحيات العـائلية . وما يزال الأب في الصحراء حتى اليوم يتمتع بحق القضاء بالموت أو الحيـاة على أولاده . فالقضاء العائلي هنا هو القضاء الوحيد على الدوام . ولقد ضعف هـذا الحق في الارياف إلا أنه لم يزل باقيـاً وخاصة عندما يتعلق الأمر بشرف الاسرة (مثال ذلك عندما تنساق الفتـاة مع رغباتها الجنسية أو تخون الزوجة زوجها) . وفي مثل هـذه الحالات غالبـاً ما تطبق العادات القديمة بصرامة يؤيدها الرأي العـام مع تساهل السلطة المحلية . ولا تجـد السلطة الابوية نفسها مضطرة للدفاع عن نفسها ، إذ ليس هناك من يتعرض لها بشيء ، والتنظيم الاقتصادي يدعمها . والأب هو المالك الوحيد للاراضي ولا يملك أولاده شيئـاً ولو تجاوز سنهم الخمسين أو أضحوا آباء أو أجداداً. وكل نزاع مع الأب يردهم إلى حالة يضطرون معها إلى استجداء خبزهم وسوف نرى كيف أن نظام الزواج يقوي سلطة الأهل .

أما المرأة فلا تحصل على السلطة إلا مع الزمن . وما دامت زوجةً شابة فهي خاضعة لرغبات زوجها ورغبات حماتها في آن واحد . ولا يتوطد مركزها في الاسرة إلا عندما تصبح أماً « أم أبناء ذكور خاصة » . وتسمى القرويات بصورة عامة باسم أبنائهن البكور مثـال ذلك أم علي وأم أحمد الخ . . . وهذه العـادة تكشف لنا دور المرأة الاساسي في المنزل القروي وهذا الدور هو أن تضع أولاداً تستمر بهم السلالة العـائلية . وإذا كان دور الأم الاجتماعي يأتي بعـد أبنائها فهؤلاء يعاملونها بكثير من الاحترام . وعددهم يضمن لها مركز الشرف

في المنزل العائلي . وإذا فرضنا أن الامور الاخرى جميعها متساوية في الشرق والغرب فان مصير الشيوخ في الارياف الشرقية خير من مصير الشيوخ في الغرب. ورب قائل يقول أن هناك نظام تعدد الزوجات ولكل مسلم الحق كما نعلم بأربع زوجات شرعيات . إن هـذا النظام إذا بقي حتى الآن مشروعاً من الناحيـة القانونية فهو من الناحية العملية يسير في طريق الزوال . ويساهم التطور الاجتماعي والاقتصادي في الوصول إلى هذه النتيجة لأن الافكار الجديدة والاعراف الحديثة تجعل إعالة عدة زوجات في البيت يكلف نفقات باهظة جداً. وارتفاع كلفة الجهاز المستمر يمنع في الواقع معظم الناس من الاقتران بزوجة ثانية . أما في المدن فنظام تعدد الزوجات قد زال تماماً من المجتمع البورجوازي ولم يبق إلا عند سواد الناس حيث ترتفع نسبة الطلاق بسبب تساهل قضاة الشرع في ذلك .

ولا تستطيع الاكثرية العظمى من الفلاحين — مستأجرين كانوا أم ملاكين صغاراً — دفع نفقات إعالة عدة زوجات ولا يتخذون زوجة ثانية إلا عندما تشيخ الزوجة الاولى أو يقعدها المرض عن أداء واجباتها المنزلية فتأتي الزوجة الثانية حينئذ — وهي أصغر منهـا — تسد مسدها . والقضية هنا تتعلق بضرورة منزلية وغالباً ما تطلب الزوجة الاولى بنفسها تخفيف أعبائها .

ونظـام تعدد الزوجات الشرقي كما تخيله الغربيون — كنظام يرضي المرء ورغبته في الأبهة — قلمـا يوجد في الريف ولا نجده إلا في البادية عند شيوخ البدو حيث يظل ضرورة سياسية ، إذ على روابط الدم أن تؤيد كل معاهدة تعقد بين القبائل. وما يزال هذا النظام حياً عند كبار الريفيين وصغار الاشراف الذين لم يمسهم التطور المدني بعـد (وتقوم قوتهم على ذريتهم الكثيرة) والذين يستطيعون إعالة زوجتين أو أكثر . وكل قروي يستطيع الخروج من طبقـة الفلاحين يصبح مرشحاً لاتخاذ عدة زوجات وهذه علامة لنجاحه في أعمـاله .

ونجد نظام تعدد الزوجات أيضاً عند أصحاب النفوذ الحاليين كالشيوخ والاغوات وخاصة في المجتمعات ذات البنية القديمة كزعماء العلويين وزعماء الاكراد . وإذا وضعنا هـذه الامور الاستثنائية جانبـاً يمكننا أن نؤكد أن المجتمع الريفي السوري مبني عملياً على نظام الزوجية الواحدة .

على أن هذا النظام يختلف إلى حد ما عن نظام الغرب . إذ أن الزواج ، وهو الحدث العائلي الاكبر ، يظل أمراً يخص الاسرة أكثر مما يخص الخاطبين فلا يستشار البنات في هذا الامر مطلقاً وقلما يؤخذ رأي الشباب أيضاً. أما متوسط سن الزواج فالزيجات تتم دومـاً في سن مبكرة ، ويعتبر قضاة الشرع سن التاسعة سناً مشروعة لزواج البنات إلا أن هذه السن قـد أرجئت عملياً إلى سن (١٢ — ١٤) . ويتم زواج الذكور في سن تتراوح بين (١٤ — ١٧) ومن العار على المرء وعلى أسرته أن يبقى عازباً حتى العشرين من عمره ولهذا لا نصادف عازبين مطلقاً في هذه السن . وطبيعي أن زيجات الاطفال أو المراهقين هذه لا يمكن أن تقوم على مبدأ الاختيار الحر .

وإن عادة دفع المهر تقوي سلطة الابوين أيضـاً . ويرجع أصل هذه العـادة المطبقة منذ آلاف السنين دون شك ، إلى عرب الجاهلية . إذ يجب أن يدفع الخاطب ثمن خطيبته إلى والدها ويختلف هذا الثمن تبعاً لمنزلتها الاجتماعية ولدرجة جمالها . ويمكن للمهر أن يشكل ثروة حقيقية في المدن وخاصة لدى أسر الوجهاء .

ويدفع المهر في الريف بالليرات الذهبية دومـاً يضاف إلى ذلك أحياناً قطيع من الماشية أو بعض الاشياء المادية. ولهذا يبقى المهر عبئاً ثقيلاً على كاهل القروي الذي يتخبط في الشقاء ويعيش في عوز مزمن للنقود . أما كيفية انفاق هذا المهر فيصرف قسم منـه في تجهيز العروس وتأثيث البيت ويبقى القسم الاعظم منه في حوزة أب العروس . وهكذا يشكل الجدل حول المهر أعقد مرحلة في مفاوضات

الزواج مما يبين لنا جيداً كيف أن الطرف الرئيسي الذي يعنيه الامر ونقصد بذلك (العريس) لا يتدخل في هذا الموضوع ما دام لا يملك فلساً واحداً .

وخلافاً للوضع في المدن فان الخاطبين يعرفان بعضهما بعضاً إذ لا حجاب في الريف وغالباً ما لعبا في طفولتهما معاً ، في الحقول أو في شوارع القرية ، وتلاقيا مراراً قرب العين أو البئر . وإذن لا يجهل الريفيون الحب فهذه القصائدالغرامية تشكل صلب الفولكلور والاغاني الريفية . مع ذلك قلما يجرأ الحب على انتهاك سلطة الاسرة بشكل سافر . وخطف البنات أمر شاذ ، وإن اعترف به على أنه حق عرفي فهو يستدعي تدخل أولي الامر قبل اللجوء إلى إسالة الدم ، لأن الشرف يقضي أن يثأر المرء من العار الذي لحق به من جراء هذه الحادثة وقبل أن ينقلب الحادث الغرامي إلى شجار سياسي بين أنصار الاسرتين وأتباعها فيقيس بذلك كل منها قوته ، لذلك يصبح هذا الحادث في بعض الحالات أمراً هاماً يشغل الدولة . وقد ازدهرت حول الزواج والمهر مجموعة من العادات المدهشة : ومن أكثر هذه العادات انتشاراً تمتع ابن العم بحق الشفعة على ابنة عمه وإذا تنازل عن هذا الحق كان له أن يطلب عن تنازله عوضاً . وهكذا تكون بنت العم موردرزق مضمون لابن عمها الذي يغار بشدة على هذا الامتياز . وعدا ذلك فان القرويين الفقراء يطبقون عادة الزواج بالتبادل « البديلة ، بنت مقابل بنت » بين أسرتين تخلصاً من دفع المهر . والأب في حوران كثيراً مايسمي لكل من أبنائه هذه أو تلك من أخواته بأنها ستكون بمثابة مهر يقدمه لزواجه وحينئذ يدعوها هذا الأخ « ببديلتي » .

إن عقد الزواج مهمة عائلية محضة يرجع الدور الاول فيها إلى ممثلي الاسرتين أو الوكيلين . فبعد أن تذكر شروط الزواج أمام الشهود (أي مقدار المهر) يضع أحد الوكيلين يده في يد الآخر بعد أن تغطى الايدي بمنديل ثم يقرأ الشيخ

الفاتحة ، وتتم بذلك مراسم العقد . وقد يدعى الشيخ أحياناً إلى كتابة نص العقد إلا أن هذا لا يحدث إلا بين القرويين الميسورين وفي المناطق المتطورة . وقد تنقضي في المدن فترة طويلة أو قصيرة بين العقد والزفاف بينما تقام في الارياف حفلة العرس فوراً . وبعد أن تخضب العروس وتزين بأجمل وأثمن ما عندها تقاد في احتفال مهيب إلى بيت زوجها راكبة على دابة أو فرس إن أمكن، يتبعها جهازها الذي يطاف به في أنحاء القرية كي تبهر أنظار الجيران . وقبل أن تدخل العروس إلى منزلها الجديد تبادر إلى لصق قطعة من الخميرة على جانب باب غرفتها . ولا تأويل لهذه العادة يمكن الركون اليه نظراً لكثرة التأويلات : فهل تكون هذه الحركة رمزاً للأمانة الزوجية ؟ أم أنها حركة تبشر بالغنى وكثرة الذرية ؟ أم هي اعلان لبكارة العروس؟ إنها عادة قديمة من عادات السامبين هجرها الناس الآن . إلا أنهم أبقوا على الولائم التي تتناسب مع ثروة العريس إذ يظل يوم الزواج يوماً اجتماعياً مشهوراً في تاريخ حياة الأسرة القروية .

على أنه يجب أن لا تحملنا هذه التفاصيل الشائعة على اغفال المغزى العميق لزواج الفلاح المسلم . وليس هذا الزواج حادثاً دينياً ، ولا يتدخل فيه الدين إلا عرضاً ولا يشبه الزواج المسيحي في شيء . وليس هذا الحادث أمراً يهم الدولة فهي غافلة عنه رغم أن القانون يوجب أن يتم عقد الزواج بحضور القاضي أو من ينوب منابه كما يوجب تسجيل العقد في المحكمة الشرعية في مركز القضاء ولا يطبق أي من هذه الترتيبات في الارياف بوجه عام . كما أن هذا الحادث ليس حادثاً فردياً فقلما يستشار الذي يعنيهم الأمر في ذلك : إنه حادث عائلي ذو طابع خاص جداً . وإذا كان الزواج يعني في الغرب معاهدة بين أسرتين فهو لا ينطوي في الشرق على معنى من هذا النوع ما دامت الزوجة تقطع علاقاتها مع بيتها القديم. ويعني الزواج بالنسبة اليها انقطاعاً تاماً مع ماضيها وتاريخاً فاصلاً في حياتها . إنه

شبه شراء للمرأة تقوم به الاسرة وتؤمن عن طريقه بقاءها . فالأسرة تفاوض وتدفع المهر وتأمر ويجب أن يضحي المرء في سبيل هذا الناموس الاكبر بكل ما يسمى بالتفضيل الشخصي أو الميل أو الحب .

الحياة العائلية : يستقبل الاطفال بالترحاب في البيت القروي . وليس هناك أي منع للولادات . ويقول المثل « من خلف ما مات » . نقول أطفالاً ونقصد بذلك الاطفال الذكور إذ لا يحسب للبنات أي حساب ، لأنهن مهملات في نظر الرهط العائلي . قد يقول لك أب ليس لي إلا ولدان بينما يكون له ٤ أو ٥ بنات أيضاً . ويعامل الصبي معاملة حسنة حتى لدى الطبقات الفقيرة وقد يبالغ الفلاح في هذا الحب لأن الطفل يفعل ما يحلو له ، وإذا ضُرب عقاباً له بدا ذلك في نظر الفلاح قسوة ذميمة رغم أنه يضرب زوجته ويفتخر بذلك . ولكن فردوس الطفولة هذا سرعان ما يزول فمنذ الخامسة أو السادسة من العمر يضطلع البنات الصغار بالمسئوليات المنزلية لمساعدة أمهاتهن ومراقبة الصغار والعناية بهم ، كما أن الصبيان منذ السابعة أو الثامنة يشتركون بأعمال الاستثمار والعناية بالماشية وبذلك تنتهي الفترة التي كانوا فيها سادة الكون البررة المرسلين من عند الله .

ومع ذلك لا توزع الاعمال بالعدل بين الجنسين . فلا يعرف الطفل الصغير إلا المداعبة والملاطفة ولا يذهب إلى المدرسة ، بصورة عامة ، خلا بضع ساعات يتردد أثناءها على الكتّاب . وإذا كان في قرية كبيرة يعيش مع أترابه حياة صغار الرعاة الحرة التي ترجح فيها فاعلية اللعب على العمل بالمعنى الصحيح . وربما دامت هذه الحال حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وعند سن البلوغ ينتقل الطفل فجأة من عالم الطفولة إلى عالم آخر . فقد يخطب قبل أن يصبح راشداً ولا تمضي سنتان أو ثلاث حتى يصبح أباً : إن حياة الفلاح السوري كالاقليم السوري لا تعرف الفصول المعتدلة فهي تنتقل من الطفولة إلى الرشد دون مرحلة انتقال

والمراهقة فيها قصيرة قصر الربيع في هذه البلاد .

ويظل الفلاح الشاب خاضعاً لأبيه وإن كان متزوجاً وريباً لأسرة ولا يتدخل في إدارة الاستثمار إلا تدريجاً وتختلف مهامه باختلاف المناطق : إنها لمفارقة غريبة أن يقل العمل تبعاً لدرجة مقر الفلاح ، ففي مناطق زراعة الحبوب زراعة واسعة لا تتطلب إلا قليلاً من العناية وتتألف السنة الزراعية من أوقات فراغ طويلة خلا بضعة أسابيع يقوم خلالها بالعمل في المعاصر . والمثل الأعلى للبدوي المتنقل يجعل من الكسل قاعدة : « المرأة للعمل والرجل للحرب » وفي حالة السلم لا يعمل الفلاح شيئاً ويقضي الوقت في الثرثرة والمناقشة ، والاحلام والنوم في أشعة الشمس وظلال الجدران .

وتنعكس الحالة بالنسبة للقروية : فهي مرغمة دوماً على تأمين الحياة اليومية في أشد الظروف قسوة : والماء والنار هما عملا السخرة الجسيمان اللذان يتجددان كل يوم . أما الماء فهو بعيد المنال ينبغي نقله من العين التي تكون وحيدة في غالب الاحيان ، أو من البئر واستخراج الماء منه أكثر صعوبة أيضاً ، ونستطيع أن نستعرض ، صباح مساء ، صفوفاً طويلة من النساء والصبايا يحملن على رؤوسهن الجرار أو التنكات ، كما أن تأمين الوقود للعائلة عمل مرهق جداً لأن الخشب نادر الوجود وعليهن الذهاب إلى الحرج أو إلى الادغال المجاورة لجمعه ونقله على ظهورهن إلى القرية . وتستطيع أن تصادف إن شئت على منعطفات الطرق هذه الاحمال المكونة من الاغصان والشجيرات الشوكية تحملها نساء تكاد لا تراهن من كثرة انحنائهن تحت حملهن . وهذا العمل يصبح شاقاً أكثر في السهوب إذ تقتلع النساء كل ما يصلح أن يكون وقوداً كالاشواك والجذور ، وعليهن اللجوء أخيراً إلى « الجلة » وهي عبارة عن روث البقر ممزوجاً بالتبن ومجففاً على الجدران. وبعد تهيئة الماء والنار يأتي طهي الطعام وطحن القمح والبرغل وهذا العمل

سخرة لا تنتهي لانها تتجدد كل يوم مع اعداد الخبز اليومي . والطعام يهيأ للرجال فقط لأنهم يأكلون وحدهم أولاً وتقوم النساء بخدمتهم على المائدة وما يتبقى عنهم تتقاسمه النساء مع أولادهن . يضاف إلى ذلك العناية بالاولاد ومشاق الحمل والولادة المتكررة إلى أن تصبح القروية عجوزاً . وسرعان ما تشيخ الفلاحة إذ تدخل سن الشيخوخة في الاربعين من عمرها . وعلى النساء أيضاً القيام بأعمال المزرعة والعناية بالماشية كتنظيفها واسقائها واطعامها وصنع اللبن والقريشة والجبن والسمن . أما في المناطق التي هي أكثر ازدهاراً فتخف درجة التفاوت بين الجنسين إذ يزداد عمل الرجل ويقل عمل النساء ، وتستطيع المرأة أن تستخدم حماراً يساعدها في نقل الحطب والماء ويقوم الفلاح بطحن القمح في الطاحون ... ولا تكون المرأة وحيدة في المنزل . على أن المرأة تساهم هنا مساهمة أكثر في أعمال الزراعة فهي تشترك في قلع الاعشاب وفي البذار والحصاد وقطف الزيتون والقطن ، وتزداد أعباؤها في إدارة المنزل وشئون الاستثمار فتبيع منتوجات الدواجن لحسابها الخاص ومنتوجات البساتين التي تعتني بها ، ويزداد جهازها الشخصي فتقتني الاثواب الفاخرة من المخمل المطرز وتلبس الحلي من الفضة والذهب .

ومع ذلك تبقى المرأة أنى وجدت في الريف السوري في المرتبة الثانية . يشهد بذلك ألوف من الوقائع : إذ تظل المرأة واقفة أمام الرجال الجالسين ولا تجرأ على التفوه بكلمة واحدة أمام إنسان غريب وحصتها من الميراث نصف حصة الذكر . ولا وجود لها البتة في عدد كبير من المناطق . إنها جاهلة جهلاً تاماً مطبقاً وقلما تقوم بشعائرها الدينية ألبتة إلا إذا علمتها والدتها « سورة الفاتحة » والقانون الوحيد الذي تتعلمه هو أن تحافظ على شرفها وعرضها . فشرف الفتاة هو الذي يبرر وجودها وهو الذي يحفظ للمرأة مركزها في البيت الابوي وفي

البيت الزوجي وفقدان هذا الشرف يجلب عليها العار والطرد وحتى الموت بذاته. وهذا المركز المتواضع الذي تتبوأه المرأة، يدلنا أنها ما تزال بعيدة عن التساوي مع الرجل الذي يسود الأسرة سيادة الرئيس للمرؤوس. ويظل ما تفكر به المرأة القروية سراً مغلقاً: إنها الشخصية الخرساء الكبيرة في الارياف الشرقية.

القرية: لا يعرف القروي التضامن خارج أسرته إلا مع قبيلته أو قريته. وفي الحالة الاولى تبقى طبيعة الروابط متماثلة وترتكز على قرابة الدم. أما في الحالة الثانية أي بظهور القرية فيظهر مدلول جديد هو مدلول المجموعة الجغرافية. والقرية النموذجية، قرية أهل الحضر القديمة عبارة عن مجموعة عضوية معقدة. إذ تؤلف الاسر المختلفة المستقلة التي تشكلها «كلاً» يظل موحداً عن طريق مجموعه الارض «الحقل».

تلك هي المجموعة التي ظلت كلية مدة طويلة والتي يمكن أن تدوم في حالة القرى المشاعية ويكون جميع سكانهـا متضامنين. نرى ذلك جيداً حين تتهدد القرية، سواء بنزاع حول مرعى مع القرويين المجاورين أو حول قطعان سُرقت أو امرأة خُطفت، أو كان الواجب يقضي مقـاومة الملاك الكبير أو جابي الضرائب. في هذه الاحوال سرعان ما يتكتل الجميع. ويجب أن نعرف أن هذا التفاهم بين القرويين هو تفاهم سري، عنيد قد تعجز الدولة نفسها حياله.

أما رئيس القرية فهو المختار وهو منتخب نظرياً إلا أن انتخابه يتم في الواقع تحت رقابة السلطات العليـــا. وهو يمسك سجلات الاحوال المدنية بصورة تتفاوت في درجة ضبطها، ويؤمن الجباية ويستقبل من يمر بقريته، ويمثل القرية أمام الحكومة. وهو مسؤول عن تطبيق النظام في القرية، وعليه أن يذهب بنفسه إلى مدير النـاحية في المركز من أجل أبسط المسائل. وتضاف إلى مهمته الادارية الداخلية مهمة توزيع الضرائب وأعمال السخرة على سكان القرية الخ..

ويؤازره في ذلك بعض المسنين وغالباً ما يؤازره شيخ الناحية . وتعتبر القرية مسؤولة بالتضامن في حالة الاضطرابات وترفع أماني السكان إلى السلطات العليا باسم القرية كلها ويعبر عن هذه الاماني بعرائض « مضابط » تلعب دوراً كبيراً في الحياة السياسية للبلاد .

تتألف مجموعة القرية من نسيج من الصداقات والاحقاد ولكل واحدة منها أحزابها . وليست هذه الاحزاب أحزاب عقائدية طبعاً بل أحزاب أشخاص فلكل عشيرة منهاج يقوم على مبدأ حل العشيرة محل العشيرة المعادية لها ، ويكون انتقاء المختار وهو الذي يمثل القرويين أمام السلطات ويمثل السلطات أمام الفلاحين ، أمراً مهماً في هذا التناحر على النفوذ .

الدين : أي دور يوكل للدين في حياة الفلاح ؟ من الصعب أن لا ننتقل هنا مرة أخرى إلى الغرب لنبدد بعض الاوهام الشائعة عن الشرق . غالباً ما نردد أن الشرق هو المحيط الكلاسيكي للأديان ، وأن كل حياة اجتماعية وكل حياة فكرية تجري في قالب من المعتقدات الدينية . هذا صحيح لا شك فيه ولكن الوهم يتبدد عندما نتأمل حياة الفلاحين الواقعية ونرى الدين سطحياً . فالفلاح يجهل الشيء الكثير عن الاسلام . ويظل القرآن الكريم بالنسبة اليه أمراً يعلو على فهمه ولو أنه تعلم عن طريق الصدفة بعض الآيات في طفولته الاولى . أما بالنسبة للنساء فان الجهل أعم . والمساجد الريفية نادرة ولا يرتادها الفلاحون إلا قليلاً ولا يجد فيها الفلاح مرشداً أو تعليماً . وإذا تركنا الحج جانباً فنادراً ما تقام الصلوات الخمس يومياً ، أما صوم رمضان فيراعى أكثر من غيره لأنه استثنائي ولأن الرقابة الاجتماعية تؤيده .

والأمر أدعى من ذلك أيضاً إذا جهدنا في النفاذ إلى النفوس إذ نجد الاضطراد ذاته : إننا نجد لدى الجميع : لدى الفلاحين المسلمين والفلاحين

المسيحيين أو الدروز أو العلويين نفس المعتقدات وراء أديانهم الشكلية ، وهـذه المعتقدات مستمدة من منبع قديم قبل الاسلام وقبـل المسيحية ويرجع إلى أصول التاريخ ذاتها : إنها عبارة عن الايمان بالارواح التي تسكن الارض والسماء وبالجن من ذكر وأنثى . وهـذه الارواح مخلوقات روحية سابقة لوجود الانسان منهـا الصالح ومنهـا الشرير . يضاف إلى ذلك الاعتقاد بالعين « الصائبة » التي ينبغي مكافحتها بواسطة كف تبسط أصابعه... إنها اعتقادات بالطلسم والسحر والخرزة الزرقاء وحجر الشبة الذي يحمله الاطفال دون استثناء ... إنها اعتقادات زراعية قديمة حول خصوبة الحقول والفصول التي تتجلى في طقوس قديمة قدم التوراة كترك سنابل القمح دون حصاد وذر الحبوب في الفضاء (١) .

وقديسو الشرق هم زملاء الاولياء : يأويهم نفس المزار الذي هو عبارة عن مكعب من الحجارة تعلوه قبة مبيضة بالكلس، ولا يختلف عن الزيارة المغربية إلا بالاسم . ويسمى هنا « مزاراً » أو مقام الولي . وأصلها واحد : إما أن يكون بقـايا قديس حقيقي ذاع صيته كناسك أو عالم ، وإما أن يكون شخصية مفترضة اتخذت بعد ذلك مسحة دينية . وهنا على مقربة من الولي وفي المزار يشعر الفلاح بارتياح كمـا لو كان في المسجد ، وإلى الولي أو القديس ترفع الصلوات الشخصية وعلى شرفه يحرق البخور واليه يتوسل الناس في حالة الضيق الفردي أو المرض أو الجراد أو القحط ، وباسمـه تقسم الأيمان . وهو أكثر من ذلك بالنسبة للنساء اللواتي يستسلمن لعبادته ويودعنها أعمق رغائبهن كالرغبة في عريس أو مولود ذكر . وهـذه العبادة المحلية ذات القدرة القدسية يسمح بهـا للجميع

---

(١) عندما تحصد في أرضك عليك أن تترك جانباً من الحقل بدون حصاد ، وعليك أن لا تجمع السنابل المنتثرة . عليك أن تترك ذلك للفقير والغريب .

من مسلمين ومسيحيين وفيها يتلاقون ويسيرون جنباً إلى جنب . وهناك صفات مماثلة تطبع الاعياد القروية بطابع مشترك ، خصصت لهذا القديس أو ذاك من الجوار جعله الفلاحون ملكاً لهم . وفي التاريخ التقليدي ينتقل جميع سكان الريف إلى المزار ، وهو أكبر يوم اجتماعي في الحياة الريفية . ولا تهمل العبادات فيه بل يبدأ الاحتفال بها ، ولكنهم يستسلمون بعدها بكليتهم لفرح نادر طوال اليوم كعطلة تسود فيها الحرية والحماسة الانسانية . مثال ذلك عيد السيدة في صيدنايا الذي يشترك فيه اللبنانيون والسوريون على السواء .

وأكبر لذة عندهم هي الرقص أي الدبكة الكلاسيكية الشائعة في جميع الارجاء في الشرق الادنى : وهي عبارة عن رقص بسيط يناسب الفلاحين ، رقص موزون يجري على شكل دائرة تحيط بالموسيقيين . يأخذ الراقصون والراقصات فيه بأيدي بعضهم بعضاً وتتشابك المرافق وتلتحم الاجسام بصورة يتموج معها هذا الصف البشري ويتأرجح ذات اليمين وذات الشمال على إيقاع الموسيقى والاقدام والاهازيج بآن واحد . ويكون الجنسان على العموم فيها منفصلين ، ويقود حلبة الرقص أمهر الراقصين ويضفي عليه الحيوية عن طريق قفزات ووثبات خشنة تنتزع أصوات إعجاب الحاضرين . وتهدأ دائرة الرقص شيئاً فشيئاً حتى تنتهي بفتيات صغيرات تتراوح أعمارهن بين السادسة والسابعة يحاولن إدراك الايقاع بشكل أخرق . أما الاوركسترا فهي ريفية كالرقص أيضاً وتتألف من طبل رتيب الصوت ومن مزمار واحد أو اثنين من الخشب أو من ناي من قصب شائع عند الرعاة . ويشكل النظارة حول الدبكة دائرة ويعربون عن الايقاع بالتصفيق وهم يرددون معاً الاهازيج الشعبية . ويمكن لهذا الاحتفال أن يدوم ساعات وساعات حتى في الليل حول النيران المشتعلة في الهواء الطلق . ونظراً لأن مناسبات الاعياد نادرة بالنسبة للفلاحين المنعزلين في قراهم فانهم ما أن

يجدوا أنفسهم مجتمعين حتى يحسبوا أن ليس بوسعهم الارتواء من الضجيج والرقص والحشر والازدحام .

وهكذا يبدو دين الفلاح الدارج متماثلاً في معتقداته وفي مظاهره . وهو في الحقيقية دين أرضي بعيد عن السماء لا يتمتع بانطلاقة القلب ولا التصوف . ومع ذلك فمن الخطأ التوقف عند هذا الحد من التحليل فوراء هذه الشعائر البائسة المتواضعة التي يمارسها الفلاح كل يوم لمنفعته المباشرة ، يوجد في نفسه ينبوع عميق للنزعة الدينية الصرفة . وهذه النزعة تتجلى بالخضوع الوراثي قلباً وروحاً الارادة الالهية : اسمع الفلاحين يتكلمون تجد اسم الله يتردد في كل جملة تقريباً . فكل فعل ينفذ « باسم الله » ويعرب عن كل رغبة باذن الله « إن شاء الله» وكل فعل موفق يرافقه حمد الله فيقال « الحمد لله » . وقد نأخذ بعين الاعتبار الصفة اللفظية لهذه الصيغ التي تتحرك بها الشفاه أكثر مما يعبر عنها القلب ولكن ترددها يعبر عن الحالة الذهنية التي تقويها إلى ما لا نهاية حالة الخشوع أمام الله .

وهناك ملاحظة أخرى هي المكانة التي يشغلها الدين المتبع في حياة الفلاح ولنرجع هذه المرة إلى الشتائم الدارجة عند العامة وهي من أكثر الامور تعبيراً عن الحياة الصميمية للفلاح بصورة عفوية . وقد ارتقى فن السباب إلى درجة سامية في الشرق يختلف عما هو في الغرب ، لأن لعن إنسان قلما يؤدي هنا لنتيجة جدية : إنه مزاح تقريباً . أما التعرض لشرف أخته ولعن أبيه وأمه وجده وجدته وأسلافه حتى الجيل العاشر منهم فهو أفدح بالنتائج مما سبق . على أن الشتيمة الكبرى هي لعن دين المرء إذ لا يبقى بعدها إلا الشجار الفعلي . إن الفلاح السوري محب لدينه رغم جهله هذا الدين ورغم أنه لا يقيم شعائره بالاوقات المعينة كما ينبغي . وهو مستعد باسم الدين وفي سبيله أن يجاهد وينساق

إلى جميع أعمال العنف ويضحي بكل شيء ولا سيما في الاحوال السياسية التي يتعرض فيها أصحاب الدين لخطر .

والخلاصة يمكن الانتهاء بتصور سحنة عامة للفلاح السوري تتألف من السمات التالية : تفان كلي في سبيل الاسرة ، الحس الديني ، كرم الضيافة ، الشعور بالشرف ، الكرامة الفردية والعائلية ، القناعة ، الجلد ، الاستكانة للقدر . وإذا قلنا الفلاح السوري يجوز القول إلى حد ما : الفلاح العربي في الشرق الادنى إجمالاً .

تمارين ومناقشات علمية (١)

(امتحان علم الاجتماع الريفي لدورة حزيران ١٩٥٥)

أ – السؤال الاول (إلزامي) : **(٧٥ درجة)**

إبحث أولاً في الصفات المتباينة للأرياف الجبلية في الشرق الادنى (٢٥)

إبحث ثانياً في الصفات المتشابهة للأرياف الجبلية في الشرق المذكور وقارنها مع الصفات المتشابهة للأرياف السهلية مع تلخيص الصفات المشتركة (٢٥)

إبحث أخيراً في أسباب التباين والتشابه : عامل تاريخي ، عامل جغرافي ، عامل ديني ، عامل اقتصادي ، الخ .

---

(١) هذه التمارين هي أسئلة الامتحان التي القيتها على طلاب كلية التربية للمرة الاولى في تاريخ الجامعة السورية . وقد أوردتها لفائدتين : ١) الفائدة العلمية على اعتبار انها تمارين علمية . ٢) للفائدة التاريخية على اعتبار انها أول مجموعة من الاسئلة في علم الاجتماع الريفي تلقى على أول طليعة من طلاب كلية التربية الذين سينالون ليسانس التربية وهم الذين تلقوا للمرة الاولى دروس علم الاجتماع الريفي في الجامعة السورية .

ب – السؤال الثاني (اختيار بين سؤالين) : (٢٥ درجة)

أحدهما : اذكر قريتين (قضائين مثلاً من أقضية سورية) يمكن أن تتطورا بالعوامل الايكولوجية فتصبحا مدينتين بعد زمن معين . قدر هذا الزمن واشرح تأثير العوامل الايكولوجية . (٢٥)

الآخر : اذكر مدينتين (محافظتين مثلاً من محافظات سورية) عليهما طابع ريفي قد لا يزول بزمن قريب ، قدر هذا الزمن واشرح العوامل الايكولوجية المؤثرة . (٢٥)

البحث الثامن (١)

الريف العراقي

أعرض عليكم في هذا البحث والذي يليه ، نموذجين آخرين من الارياف في الشرق الادنى ، إتماماً للفكرة العامة وتبياناً للفروق الهامة . فهناك مثلاً قلة في الكثافة تلاحظونها في أرياف العراق بينما تلاحظون ازدحاماً خاصـــاً في بعض الارياف المصرية . وهناك مجـال للتمدين السريع والتصنيع تتوقعونه من استثمار البترول في العراق أو تضخم الري في مصر ، بينما لا تترقبونه في أرياف سوريـة وسواها . فهذه المفارقات مع المشابهات تؤلف موضوعاً جديراً بالتأمل وهي ذاتها علم الاجتماع المقارن الذي يعتبر مقدمة لعلم الاجتماع الكلي .

والكتاب الذي ألخص لكم منه هذا البحث ، هو وكتاب البحث الذي يليه (الريف المصري) كلاهما جدير بالاقتناء لو كان موجوداً ، ولكن كليهما نافد ، كما ظهر لي . لذلك وجدت نفسي مضطراً إلى تلخيصها حتى أكفيكم مؤونـة البحث عنها . وهما يمتازان بقلة الحشو وكثافة المعلومات بحيث لم أستطع في بعض الاحايين

---

(١) هذا البحث ملخص عن كتاب : جعفر خياط ، القرية العراقية . بيروت ١٩٥٠ وقـــد آزرني في تلخيصه الطالبتان في كلية التربيـة : الآنسة عائدة مفتي « الدراسات الوضعية » الآنسة صفا حمزاوي « الدراسة الاصلاحية » .

إلا نقل الفقرات الهامة كما هي . وهـــذا بنظري يحفظ لكم رونق الفكرة إذا قرأتموها بأسلوب صاحبها ، ولا سيما النواحي الانتقادية الحساسة التي يكون فيها الكلام أسلم إذا سمعنا صاحب العلاقة يتكلم . وفي هذا اقتراب أيضاً من تحقيق الامانة العلمية بقدر الامكان .

العراق من الناحية الطبيعية :

يقدر مجموع الاراضي القابلة للزراعة في العراق بـ ١٢١،٠٠٠ كم٢ أي حوالي ٢٥ ٪ من مجموع مساحة العراق . ولا يزرع من هـذه النسبة في الوقت الحاضر إلا حوالي ١٩،٢٥ ٪ من مجموع الاراضي القابلة للزراعة .

إن دجلة والفرات هما النهران الرئيسيان اللذان تتدفق منهما كميـات كبيرة من الميـاه التي لو استفاد منها العراقيون ومن مياه الامطـار التي تهطل هطولاً لا يستهان به في الشمال ، استفادة فنية ، لأمكن ازدياد مساحة الاراضي المزروعة أضعافاً مضاعفة. تجود في مناخ العراق مختلف المحاصيل الاقتصادية من حبوب وتمور وتبوغ ومحاصيل زيتية وقطن كما ترتع في مراعيه وحقوله ملايين الاغنـام والماشية والخيول والحيوانات الاخرى . وبالاضافة إلى ما يستهلكه سكان العراق من المنتجات الزراعية والحيوانيـة يصدر قسم كبير منهـا إلى الخارج فيأتي إلى العراق بثروة تحفظ له ميزانه التجاري لقاء ما يستورده من الحاجيات .

لقد عرفت تربة العراق بخصوبتهـا وقوتها الانباتية . وتقدر « القـابلية الانتاجية » في الاراضي المرواة بمقدار ٣٥٠ كغ من الشعير في المشارة الواحدة و ٢٥٠ كغ من الحنطة . غير أن الملوحة كانت ولا تزال تنتشر في تربة العراق كلما كثرت زراعتها ، فهي تقضي على خصوبتها ويعظم شأن هـذا الخطر خاصة في

المناطق الوسطى والجنوبية حيث يكون المناخ حاراً وحيث تعتمد الزراعة بالكلية على مياه الري .

الصفات البيولوجية والانثروبولوجية :

تنتشر المدن والقرى في أنحاء العراق بصورة متباعدة ويدل هذا على أن البلاد تستوعب أضعاف سكانها الحاليين ولا غرابة فقد كانت في عهد العباسيين سبعة أو ثمانية أضعاف سكانها الحاليين . منهم متقدمون في الوقت الحاضر يسكنون المدن والبلدان الكبيرة ، ومنهم القرويون الذين يسكنون القرى والدساكر المنتشرة حول الانهر والاهوار ، ومنهم أخيراً القبائل البدوية التي ترحل مع حيواناتها انتجاعاً للكلأ في الشمال والجنوب كبعض قبائل شمّر وعنزة والضفير والكبشة والعبيد من العرب وبعض قبائل الجاف والهركية ... من الاكراد .

تقدر نفوس المدن والبلدان التي يزيد نفوسها على ٢٥,٠٠٠ نسمة بحوالي ٢٥ ٪ من مجموع السكان كما تبلغ نسبة القبائل الرحل بما يقارب ١٠ ٪ وما تبقى ٦٥ ٪ هم الريفيون . والريفيون إجمالاً يحترفون الزراعة مباشرة إلا قسماً صغيراً يختص بالمهن المعروفة كالنجارة والحدادة والعطارة وصناعة القوارب والسفن وغيرها من الحرف التي تعتمد عليها الحياة في المجتمع الريفي البسيط .

يقوم سكان الريف بزراعة الاراضي واستثمارها استثماراً يتوقف عليه كيان العراق الاقتصادي . وقد أثرت الاحوال الجوية تأثيرها التام المباشر على هذا الاستثمار وجعلت النظام الزراعي في العراق نظاماً مختصاً به حيث أن كثرة هطول الامطار النسبية في القسم الشمالي من العراق أدت إلى شيوع زراعة الديم في ألوية الموصل والسليمانية وأربيل و كركوك . وأصبحت هذه الالوية تعتمد في زراعتها على زراعة الحبوب بواسطة المطر بصورة كلية . كما أدت الاحوال الجوية

الاخرى إلى أن تجود في الشمال زراعة التبغ التي تعتبر جزءاً متمما للنظام الزراعي هنـاك ، وزراعة الاشجـار المثمرة كالزيتون والفستق والتين والجوز واللوز والبندق والخوخ والكمثرى وما أشبه . هذا عدا بعض أنواع الرز التي تزرع على السفوح وبعض السهول وتروى بميـــاه العيون وبعض الآبار . أضف إلى ذلك ما ينبت بصورة طبيعية وحشية من أشجار الغابات التي تكثر كثيراً في قمم الجبال وسفوحهـا وتجود ببعض المنتوجات المهمة كالكثيراء والعفص مع صنـاعة الاخشاب والفحم .

تعتمد المنطقة الوسطى والجنوبية من العراق على الري بالكلية في زراعتهـا . وتسقى الاراضي الزراعية ، هـذه بالسيح وبالواسطة وبالمد والجزر . والاراضي التي تسقى سيحاً هي الاراضي التي يعلو الماء عليها بحيث يمكن توجيهه إليهـا من دون الاستعانة بالمضخات أو النواعير ، وأهم حاصلاتهـا الأرز . إن مناطق الري بالواسطة هي جميع لواء الكويت وقسم كبير من لواء بغداد ومنطقة شط الديوانية في لواء الديوانية . أما الري بواسطة المد والجزر فمنحصر في منطقة شط العرب حيث أن مياه الشط العذبة تندفع مرتين في اليوم إلى الانهر والقنوات بفضل عمليـة المد والجزر الطبيعية التي تطرأ على البحر في خليج البصرة وترتوي بذلك بساتين النخيل المكتظة .

إن أهم المحاصيل الزراعية التي تزرع في العراق الاوسط والجنوبي هي الحنطة والشعير والأرز خصوصاً . وهـذه تؤلف الحاصلات الاقتصـادية التي يصدر ما يفيض منهـا عن الاستهلاك المحلي إلى الخارج . أما زراعة البساتين والاشجار المثمرة فقد اختصت بها ألوية ديالي وكربلاء وبغداد والحلة والبصرة . وتعتبر التمور من موارد الثروة الزراعية المهمة أيضاً حيث يبلغ عدد نخيل العراق بأجمعه حوالي ٣٠ مليون شجرة كما تجود زراعة القطن في العراق الاوسط .

إن زراعة العراق ما زالت في حالتها البدائية من غير أن تمسها يد الفن الحديث . فما زالت أساليبها في الحراثة والري والتسميد وانتقاء البذور والحصاد ومكافحة الآفات وتربية الحيوان أساليب بالية يتوارثها الفلاح جيلاً بعد جيل . وقد نتج عن أساليبه البالية هذه ومن اهماله وكسله أن قلت نسبة الحاصل الذي يجنيه لقاء أتعابه ومصاريفه وأدي ذلك إلى بقائه رازحاً تحت عبء الديون وقانعاً بشظف العيش والحياة البدائية .

إن الاسباب التي أدت إلى بقاء الزراعة العراقية في وضعها الحالي وبقاء الفلاح على ما هو عليه الآن لا تنحصر فيه فقط وليس هو وحده مسؤولاً عنها وإنما هي متأتية عما في البلاد من وضع عام خلفته ظروف متشابكة وأحوال مترابطة عديدة ليس في مقدوره هو أن يتصدى لها بغير أن يصلح نفسه بعض الاصلاح على مقياس ضيق . والوضع العام هذا هو الذي خلق النظام الزراعي السائد في البلاد اليوم .

وفي النظام الزراعي الحالي نقاط بارزة أساسية تؤثر على الطبقة الزراعية من السكان تأثيراً بعيد المدى . فأول ما يلفت النظر منها أن الزراعة العراقية وخاصة في المناطق الوسطى والجنوبية التي تسقي مزروعاتها بماء الري هي زراعة متسعة . وبما أن الاراضي شاسعة يعجز المزارعون عن توجيه العناية التي تقتضيها الاصول الزراعية الحديثة لها . وينحصر الجهد الذي يبذلونه في قطعة ما من الارض التي تزرع في سنة ما ، ثم تترك لتزرع قطعة أخرى بدلاً عنها . فنشأ عن مثل هذا الوضع أن أصبحت الزراعة متنقلة لا تستقر في مكان حتى تنتقل إلى جهة أخرى وفي هذا التنقل ضرر وضياع للجهود . بينما الارض المحدودة تضطر الزارع إلى مداراتها ووضع الخطط الزراعية لادامة الخصوبة فيها .

إن الاحداث التاريخية التي وقعت في العراق خلال القرنين الاخيرين

والانظمة التي أدخلت خلالها مع الهجرات القبائلية من الجزيرة العربية التي تعرّض اليها ، قد ولدت في زراعة العراق وخاصة في أواسطه وجنوبيه وضعاً إقطاعياً لا يزال العراق يعاني تأثيراته حتى الآن . كما أن القوانين المختصة التي شرعت في العراق منذ بداية الاحتلال البريطاني في الحرب العالمية الاولى قد ثبتت قسماً من نواحي الاقطاع في غير صالح البلاد والطبقة الزراعية فيها . وقد نشأ عن ذلك كله أن أصبح قسم كبير من الاراضي الزراعية وخاصة في أواسط العراق وجنوبيه ملكاً بيد الشيوخ والاغوات وأبناء الأسر المتنفذة في المدن وبعض التجار وكبار الملاكين . وبقيت الاغلبية الساحقة من سكان الريف التي تخدم الارض وتزرعها ، لا تملك إلا النذر اليسير منها كما بقي قسم كبير من هذه الاغلبية لا يملك أرضاً مطلقاً ويستغله الملاكون الكبار استغلالاً يصل به إلى سوية العبيد . وقد كانت الزراعة إلى قبيل تأسيس الحكم الوطني مبنية على أسس الاقتصاد المعيشي في استثمار الاراضي الزراعية لمعيشة الشيوخ وأفراد عشائرهم وسكان القرى . غير أن تقدم طرق المواصلات العالمية واتصال العراق بالطرق البحرية قد جعل للحاصلات الزراعية أسواقاً خارجية تدر على أصحابها ثروات طائلة عرفت أهميتها الطبقة المتنفذة . فبادر الشيوخ ومن على شاكلتهم إلى تملك الارض وتثبيت ملكيتها بالطرق القانونية على حساب أفراد العشيرة الفلاحين وسكان القرى مستخدمين بذلك نفوذهم وثروتهم . وقد جاء قانون تسوية حقوق الاراضي لسنة ١٩٣٢ الذي أريد به حل مشاكل الارض والبلاد فأكد على تلك الناحية مستنداً بذلك على الاسس الاقطاعية البالية وما فيها من الفوضى والاستغلال فنشأ عن ذلك خلق ملكيات كبيرة لأشخاص معدودين .

وقد صدر قانون حقوق وواجبات الزراع سنة ١٩٣٣ فثبت مركز الملاكين تجاه الفلاح فكان ذلك نتيجة للنفوذ الذي يمارسونه في تمشية مصالحهم على حساب

الفلاحين . حيث أنه أمن بصورة عامة حقوق الشيخ والآغا وغيرهما من المالكين بدرجة تجعل الفلاح شبه آلة مسخرة . مثلاً ان هذا القانون منع استخدام الفلاح إذا كان مديوناً في أية مزرعة أخرى أو في أية دائرة حكومية أو غير حكومية إذا أراد أن يستخدم أجيراً أو كفراش . غير أن هذا الوضع يعد أهون نوعاً ما في الشمال منه في الجنوب من حيث صالح الطبقة الزراعية حيث أن ملكية الارض هنا تختلف بعض الشيء كما أن عدد الملاكين الكبار يقل كثيراً عن الجنوب . لذلك فان وضع الفلاح في منطقة الديم الشمالية الشرقية من العراق هو وضع أحسن ، لوجود نظام زراعي ثابت يمتلك فيه قسماً كبيراً من الارض ملاكون صغار . أما في وادي دجلة الذي بدأت تنصب فيه المضخات جنوب الموصل ، فيوجد نظام عشائري يشابه النظام العشائري الموجود في الجنوب . كما أن الارض يملكها في الدرجة الاولى الشيوخ والوجوه . وكذلك في غرب الموصل ، البلاد الجبلية المتعرجة ذات المطر القليل، حيث تمتلك الارض بموجب النظام العشائري .

أما تعيين حصة الفلاح من غلة الارض التي يزرعها فيتحكم فيها التعامل والتقاليد المحلية وهذه تختلف باختلاف المناطق . ويمكن القول بصورة عامة إن معظم أراضي العراق تشغل على أساس الايجار بالمحاصة في الغلة النهائية بين المالك والفلاح ، وهذا النظام ولا شك من بقايا القرون الوسطى التي كان يسود فيها نظام الاقطاع . ينال فيه الفلاح من الغلة النصف ويعيش على الارض ويقتات هو وحيواناته من منتوجاتها طوال أيام السنة . وقد يسرق ما تسوله له نفسه من البذور ومن الناتج النهائي ، ولا يخفى ما في هذا الوضع من تأثير سيء على قسم كبير من الفلاحين الذين يبقون مشردين ، أو لا يشعرون بتعلق بالارض التي يفلحونها وبمصلحة الطبقة الزراعية وقابلية البلاد الانتاجية .

يشتغل الفلاح عادة هو وزوجته وأولاده طوال أيام السنة ، والذي يحصل عليه هو نتيجة استثمار الارض والماء والانعاب التي يبذلها . ولو دققنا في مجهوده نجد أن الفلاح الاعتيادي في مناطق الري يشغل في السنة الواحدة ٤٠ مشارة يزرعها ، وبما أن الزراعة العراقية بوجه عام تستند إلى قاعدة « النير والنير » أي قاعدة زرع نصف الارض وترك النصف الآخر بائراً ، يكون مجموع ما يشغله ٨٠ مشارة ويستوفي نصف ما يغله هذا المقدار من الارض . أما في مناطق الديم فانه بحاجة إلى مساحة أكبر من الارض لأن حاصل الاراضي المروية يكون في العادة أكثر من حاصل أراضي الديم . فهو يزرع حوالي ٨٥ مشارة . غير أن الفلاح في الشمال يحتاج إلى مرعى لحيواناته التي يكثر جنيها عند الفلاحين هناك. وبذا يجب أن نضيف حوالي ٢٠ مشارة إلى عدد المشار المذكورة فيصبح عدد المشارات التي يشغلها الفلاح الشمالي في السنة ١٠٥ مشارات . وفيما عدا هذين النموذجين يوجد فلاحون مختصون بزراعة المحاصيل الاخرى كالخضراوات والفواكه والشلب والتبغ. وهؤلاء تختلف أحوالهم بحسب المحيط الذي يوجدون فيه . على أن الملاحظ هو أن فلاح الشلب ذو مستوى اقتصادي عال بالنسبة لتخصصه بهذا الحاصل الذي يباع بثمن مرتفع ولا يقوم هذا النوع من الفلاحين عادة بزراعة الحنطة أو الشعير إلا على أساس « الشكارة » لاستهلاكهم الخاص . وكذلك يتمتع فلاح الخضراوات والبساتين بدخل عال نسبياً . ولا يوجد احصاءات عن دخل الفلاح العراقي اليوم أما دخل الفلاح العراقي بأسعار ما قبل الحرب الاخيرة فنجده حوالي ٦ — ١٠ دنانير في المناطق الشمالية و ٣ دنانير في المناطق الوسطى والجنوبية ، وهو دخل قليل جداً يجعل مستوى المعيشة بدائياً تحت تأثير هذه الظروف . وهذا الانحطاط يمكن أن يلاحظ لأول وهلة من هيأة الفلاح ومنظر بيته الذي ليس هو في معظم أنحاء الريف أكثر من

كوخ بسيط من القصب مع أثاث زهيد . ثم تأتي المشكلة الصحية .

إن مجموع صحة المواطنين في كل بلد من البلدان ، سبب كبير من الاسباب التي تؤثر على ثروتها ، لأن العمل الذي يؤديه الافراد هو أحد العوامل الاساسية الثلاثة — الارض ، رأس المال ، العمل — التي يتوقف عليها الانتاج . ويصح ذلك على الأخص في البلاد التي تعتمد على الانتاج الزراعي . فلو أتينا إلى العراق وإلى القرى المنتشرة في أرجاء ريفه الفسيح، نجد أن التأثيرات كلها العامة والخاصة تعمل عملها بصورة شديدة : الجو القاسي المتبدل بين الصيف والشتاء وبين الليل والنهار . وجود الاهوار والمياه الآسنة في مختلف أرجاء الريف وخاصة في الجنوب . شيوع الغبار والاوحال وكثرة الدود والحشرات والهوام . تفكير السواد الاعظم وعقليتهم والجهل المستحوذ عليهم والخرافات التي تلعب بمقدراتهم. كل ذلك عوامل فعالة تؤدي إلى استفحال الامراض المعروفة وتقرر مقدار شيوعها وانتشار عدواها . أضف إليها سوء التغذية الذي يؤدي إلى قلة المناعة في الجسم ضد الامراض وتعرضه لفتك الجراثيم .

يظهر من الاحصاءات الصحية أن معدل الاصابات المرضية التي سجلت في العراق منذ سنة ١٩٣٨ — ١٩٤٦ يبلغ ٤٫٣٦٠٫٠٠٠ إصابة في السنة . وهذا يعني أن قسماً لا يستهان به منها إصابات متكررة لنفس الاشخاص . ويلاحظ أن أكثر الامراض شيوعاً هي الامراض العفنة والوبائية وأمراض العين وأمراض الجهاز الهضمي والامراض الجلدية . إن مرضي الملاريا والتراخوما هما أكثر الامراض السارية شيوعاً في العراق . والملاريا منتشرة في أنحاء كثيرة من الريف لكثرة وجود المياه الآسنة والمستنقعات . كما أن البلهارسيا وهي من الامراض الديدانية الريفية تنتقل بواسطة الماء فتؤدي بالمصاب إلى التبول الدموي ، وهي منتشرة في الفرات الاوسط والجنوبي . أما الانكيلوستوما المرض الديداني الذي

يؤدي إلى تسمم الجسم وفقر الدم وضعف القلب ، فمنتشر في ثلث السكان على الاقل . وبذا يترك تأثيره الوبيل على نشاطهم وقابليتهم للعمل والانتاج . وهناك أمراض أخرى تفتك بسكان العراق وتأخذ منهم مأخذها وأهمهـــا السل ، الديزانتيري ، الامراض الزهرية .

وللتغذية شأن كبير في نمو الجسم وقيامه بالاعمال الشاقة التي يتطلبها العمل الزراعي . غـير أن أكثرية سكان الريف العراقي وحتى الطبقة العاملة في المدن لا تتناول الغذاء الكافي ولا الغذاء المتوازن الذي يوفر للجسم جميع ما يحتاجه من المواد الحيوية وما يكفيه لتوليد الطاقة الحرارية في جسمه المرهق . وهـذا ناتج بلا شك عن انحطاط مستوى المعيشة ومحدودية الدخل المـالي فضلاً عن الجهل المطبق وعدم الالتفات لهذه الناحية الحيوية . وقـد نشأ عن ذلك هبوط مستوى المنـاعة في الجسم واستفحال الامراض وزيادة الوفيات في الاطفـال والهزال . وليست ناحية السكن أحسن حظاً ، لأن الاكثرية من سكان الارياف وحتى قسماً من سكان القرى الكبيرة التي تقع على حدود المدينة تسكن أكواخاً من الطين أو القصب . وهذه عبارة عن غرفة واحدة لا يتسرب إليهـا نور الشمس ولا يتبدل هواؤها : ينحشر فيها الفلاح وعائلته وأثاثهم البـالي صفقة واحدة . وقد تشاركهم فيها بعض حيواناتهم وليس فيها مرحاض خاص بل يقوم مقام ذلك السهل الفسيح والمزابل المتكومة حواليه . ورغم كثرة الماء الجاري فالماء الصحي لا يتوفر لمعظم السكان ، فهم يشربونه عكراً ملوثاً ولا يغتسلون بصورة تجردهم من الاوساخ إذ لا يستعملون الصابون إلا في النادر . ثم إن الخدمة الصحية على ما فيهـا من نقص ومحدودية ، منحصرة في المدن والبلدان الكثيرة فقط . ولعدم وجود الجهود الجدية من أجل الاهتمام بميـاه الشرب للعدد العظيم في القرى

والدساكر ، فان خطراً كبيراً يهدد هذه الطغمة البشرية إذا داهمتها الامراض الوافدة .

الصفات الاجتماعية والنفسية :

يعد الجهل مقدمة الآفات الاجتماعية تأثيراً على تقدم البشر ورفاهيتهم . وهذه الآفة استفحلت في الريف العراقي استفحالاً عرقل سيره في مضمار التقدم . تقتصر المدارس في الريف العراقي على الابتدائية وهي قليلة جداً وحالهـــا رديئة إذ لا يتجاوز عـدد معلمي كل مدرسة الثلاثة ولا يوجد في أكثر القرى مدارس للبنات . كما أن التدريس منحط بالنسبة لمدارس المدن ولا توجد فيه مدارس ليلية للأميين البالغين كما في المدن . على أن المدن نفسها لم تصل بعد إلى التطور الذي وصلت اليه مدن الغرب وبعض المدن الشرقية الكبرى .

إن الريف العراقي لا يخرج عن كونه مجتمعاً زراعياً بدائياً يسود فيه النظام العشائري الذي بدأ بالانهيار في بعض الجهات عندما داهمته تيارات المدنية الحديثة مع ذلك بقيت الاكثرية الساحقـة من السكان تعيش في حالة بؤس وشقـاء بينما أخذت طبقـة الشيوخ والملاكين الجدد من متنفذي المدن والتجار تحيا حيـاة الترف وتملك القسم الاعظم من الاراضي الزراعية التي تدر عليهم أرباحاً وفيرة . ولمـا كانت أغلبية السكان على هذه الحالة ، بقيت القرية العراقية على حالتها من انحطاط الصحة العامة وسوء التغذية ورداءة المسكن وانتشار الأمية والامراض وشيوع الفاقة وقلة الدخل عند الفرد الواحد .

إن تأخر الريف العراقي يرجع بدرجـة كبيرة إلى انخفاض مستوى العيش المتأتي عن ضآلة دخل الفرد في هـذا المجتمع . ذلك أن الفرد يصرف ٧٠ ٪ من دخله من أجل كفاف العيش ولا يبقى له سوى ٣٠ ٪ ليصرفهـا على حوائجه

الاخرى من ملبس ومسكن ونظافة . ثم أن الادوات البالية القديمة التي يستدعي تشغيلها جهداً شاقاً ووقتاً طويلاً لا يمكن أن تترك له ما يكفي من الوقت للاستراحة والتمتع بالحياة . كما لا يمكن أن يسنح له الوقت والحالة هذه أن يفكر في نفسه وانتعاشه أو أن يغامر في خلق المشاريع والتشبث بمختلف التشبثات التي قد تؤدي إلى تحسين حالته .

إن مثل هذا المجتمع لا يتوفر لسكانه ما يدرؤون به عن أنفسهم عوادي الزمن . حيث أن العجزة والمرضى وخاصة النساء منهم ليس لهم ما يضمن عيشهم . ولولا طراز الحياة العائلية وتعلق الافراد بالاسرة وتكفل الاسرة الاقارب والمعارف أحياناً لسحقوا سحقاً لا رحمة فيه. أما المرأة فوضعها أشد بؤساً ، لأنها تشارك الرجل في بؤسه وتساعده في عمله الشاق بالاضافة إلى واجباتها البيتية والزوجية التي تناضل تجاهها وهي عزلاء من كل شيء . والمرأة في عشائر الجنوب خاصة تقوم بتكاليف وأعباء ثقيلة لا يقوم بها الرجل مطلقاً . فانها تشارك زوجها في الزراعة والحصاد والدياسة وتتولى تنظيم الارض وتعشيبها . تنهض مبكرة فتحلب البقر وتقدم له العلف وتنظف الزريبة ثم تخرج للاحتطاب حاملة معها طفلها إن كانت مرضعاً ، وعند عودتها لكوخها تتولى العجن والخبز وتحضير القوت لزوجها وتسهر الليالي في طحن الحبوب . وقد يشتغل بعض النسوة بجرش الشلب في المجارش العامة ليلاً لقاء أجور زهيدة يسلمنها لأزواجهن . ومع ذلك كله نجد أن الرجل إذا غضب على الزوجة طردها من بيته الخاوي ولا يكون غضبه في الغالب إلا لأمر تافه ، وقد يضربها ضرباً فاسياً .

والمرأة رغم بطولتها وتفانيها في سبيل الاسرة ، تبقى سلعة يتحكم فيها الرجل بحسب رغائبه ونزواته . مثال ذلك « زواج الصداق » : فاذا كان للرجل أخت أو بنت ، وأراد التزوج من دون أن يكون قادراً على دفع مبلغ للصداق ، فانه يتفق

مع شخص آخر عنده بنت من أرحامه ، فيقدم كل منهما قريبته للآخر ليتزوج بها ويدفع مبلغاً زهيداً لتحليل الزواج من الوجهة الشرعية . وكثيراً ما تحدث بسبب هذا الزواج مشاكل ومآسي تؤثر تأثيراً سيئاً في المجتمع ، حيث أن هذا النوع من الزواج يحتم إرجاع زوجة أحد الفريقين إلى قريبها إذا اختلف الفريق الآخر مع زوجته وطلقها . والرجل الذي يضطر إلى طلاق زوجته يأخذ قريبته التي صادق بها ويرغم زوجها على تطليقها أيضاً ، ولو كان متصافياً معها وكانت هي ذات ذرية وراغبة في البقاء مع زوجها . . وقد يضطر من طلقت قريبته أن يزوج المطلق بزوجة أخرى إن كان هو راضياً بزوجته ، وإن لم يقنع المطلق بذلك فله الحق بأن يصر على طلاق قريبته واسترجاعها . وإن صدف أن اختلفت إحدى المرأتين المصادق بها مع زوجها ورجعت إلى أهلها ، فللأخرى أن ترجع إلى أهلها أيضاً ولا تعود إلا عند عودة الاولى . ولا شك أن الاجرام متأه إلى حد كبير بمثل هذه الظروف التي تحيط مجتمع القرية . كما أن معظم الجرائم التي تقع في الارياف يكون منشؤها الاختلاف والنزاع حول الاراضي والمرعى والماء ، أو التشرد والتجاوز على العرض . والعشائريون يخضعون لقانون « دعاوى العشائر » في حسم المنازعات والجرائم من غير أن يخضعوا للقوانين المدنية المطبقة في البلاد .

وقد أدى تفشي الجهل والأمية في المجتمع القروي إلى شيوع الخرافات بحيث أخذت التعاويذ وأنواع السحر تقوم مقام الطب والادوية في كثير من الاحيان، كما أخذت العادات الغريبة تؤثر في سلوك الناس وأشغالهم تأثيراً ينعكس في الانتاج . لقد سيطرت على سكان الارياف عقلية مشوهة لا تقدر أهمية التدابير التي تتخذ من أجل الريف واصلاحه فنشأ عن ذلك توسع الشقة بينهم وبين الحكومة . وكثيراً ما يتهربون من دفع الضرائب أو تسليم أبنائهم للجندية أو

تطبيق القوانين الحديثة .

إن هجرة القروي العراقي من الريف إلى المدينة هجرة غير طبيعية حيث أن القروي وابن العشائر كان في سابق العهد يعتز بقريته وقبيلته ويفخر بعاداته وتقاليده قانعاً بزرع حقوله وبما قسمه الله . فما الذي بدل اتجاهاته ؟ الواقع أسباب كثيرة . على أن مردها « وضعه الاقتصادي» وضيق العيش الناتج عن جميع الاحوال والظروف السيئة التي أشرنا إليها . فالتطور التجاري والاقتصادي الذي حصل في العالم وأثر في الانتاج الزراعي العراقي الذي أصبح انتاجاً تجارياً بعد أن كان انتاجاً معاشياً ، ومبادرة الشيوخ والأغوات والتجار إلى امتلاك الارض بمساحات واسعة بعد انهيار النظام العشائري . . جعل دخل القسم الكبير من أبناء القرى والعشائر واطئاً لا يزيد على حصة ضئيلة من الحاصل الوحيد الذي يزرعونه بعد أن كانوا يشعرون وهم يفلحون الارض انهم يشتغلون من أجل القرية والعشيرة لا من أجل أنفسهم فقط . فأصبحوا والحالة هذه يشعرون بأنهم متشردون لا يربطهم بالأرض التي امتلكها غيرهم أي رابط . ولا يخفى أن وضعاً كهذا يؤدي إلى قلة الايدي العاملة في الريف وازدياد البطالة في المدن التي ما زال التصنيع فيها في أول دوره . وبذا تتبدد حيوية الامة وقابليتها الانتاجية في الوقت الذي تكون فيه البلاد بأمس الحاجة إلى أبنائها لمضاعفة الانتاج .

حول اصلاح الريف العراقي

ليس بحث الاصلاح محدوداً ، كما أشرت لكم حول إصلاح الريف السوري . وفيما يلي أسرد لكم بالطريقة ذاتها مقترحات المؤلف الذى عني بدراسة الريف العراقي في كتابه «القرية العراقية» فهو أدرى منا بالريف الذي يعرفه ، وبامكانكم مع ذلك التوسع في الموضوع إذا شئتم .

الاصلاح الزراعي : يتضمن هـذا الاصلاح اجراء الترتيبات اللازمة للحد من الملكية كي يساعد ذلك على توزيع الارض على أكبر عـدد ممكن من الزراع وخصوصاً تنظيم التوزيع للأراضي الاميرية بدون سوء تصرف . وقـد وضعت طرق عديدة في بلاد مختلفـة أهمها المشروع الذي يحرم شراء أرض على من يملك خمسين فداناً فأكثر . والوسائل الاخرى التي يمكن أن تتخذ لهذه الغاية هي : ١) وضع ضريبـة تصاعدية على تملك الاراضي . ٢) وضع ضريبة تصاعدية على التركات واستحصالها بصفة أرض في حالات الملكيـة الكبيرة . ٣) نزع نسبة معينة من أرض كل من يملك أكثر من المساحة المسموحة ويدفع له ثمنها على أن تباع هذه الارض لصغار الملاكين بالتقسيط . ٤) مع تقسيم ملكية الارض عندما تصل مساحة كل قطعة منها إلى حد أدنى .

وبالرغم من اعتماد العراق على الزراعة ، لا يزال بعيداً عن الوسائل الحديثة التي تؤدي إلى مضاعفة الانتاج وتقليل العناء . وعلى هذا فان الوضع يستدعي قيام الجهات المختصة بتأسيس المحطـات الزراعية وتزويدها بالوسائل الكافية كاصدار نشرات سهلة مفهومة ، والقاء محاضرات في الراديو والاجتماعات الخاصة واجراء بعض العمليات كتجارب يشاهدها الفلاحون ويقفوا على نتائجهـــا . ثم إقامة المعـارض والمسابقات لأحسن المحاصيل ، بالاضافة إلى جولات المفتشين من حين لآخر للارشاد . أما التعليم الزراعي فانه يتم عن طريق تأسيس المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، فضلاً عن التعليم الزراعي الجامعي .

التوسع في تربية الحيوانات : إن العراق بمروجه الطبيعية المنتشرة خاصـة في أنحائه الشمالية ، ثم مراعي البادية ، ووجود العشائر العربيـة والكردية ... كل هذه عوامل تساعد على تربية الحيوانات . ولهذا كان العراق ولا يزال يصدر الحيوانات ومنتوجاتها رغم الحالة البدائية التي تربى فيها . على أن هذه القابلية

يمكن مضاعفتها بالاساليب الحديثة . ومن جهة أخرى فان الاكثار من تربية الحيوانات وخاصة في الجنوب يساعد على الاستفادة من المراعي الطبيعية ومن الاراضي الكثيرة التي لا يتوفر لها الماء الكافي ، كما يستدعي انشاء المراعي الاصطناعية .

حماية المزروعات : يعاني فلاح العراق سنوياً خسائر ناتجة عن فتك الحشرات والامراض النباتية والعوارض الجوية : أهمها الجراد والدوباس وذبابة البحر المتوسط ودودة القطن ... مما يوجب تقوية الدائرة الفنية لوقاية النبات وتزويدها بالمختصين والمختبرات .

التسليف الزراعي : ان ما يلاقيه الفلاح والمزارع الصغير من الديون الناشئة عن فقره يؤدي الى جموده والحد من توسيع مشاريعه . فهو يلتجىء الى الصراف او التاجر ، وكثيراً ما يكون هؤلاء ممن يتقاضون الارباح الفاحشة ؛ فتتراكم ديون الفلاح وتزداد سنة بعد سنة . ولهذا فكرت البلاد بتأسيس المؤسسات المالية من مصارف زراعية وجمعيات تعاونية وما شابه ، غايتها مد يد المساعدة لهذه الطبقة الكادحة . فقد تأسس مصرف في العراق برأس مال محدود ، وأخذ يسلف المزارعين بفائض معقول . ويقوم المصرف الزراعي في الوقت الحاضر علاوة على اعمال التسليف ، بادارة حلج القطن ، كما يستورد الآلات الزراعية ويؤجرها المزارعين بأجور معتدلة .

تصريف المحاصيل : لا يخفى أن طرق المواصلات دليل على حيوية البلاد ولا يتم النهوض باقتصاديات القرية ورفع مستواها ما لم يؤمن تصريف محاصيلها وبيعها بأرباح معقولة . فكثيراً ما تكسد التمور ، ويتعرض التبغ للتلف . لهذا يجب تحسين وضع الاسواق ووسائل النقل ، ثم وصل مراكز الانتاج الزراعي بالاسواق مع تحديد أجور الشحن .

الآلات الزراعية : ان الطريقة الوحيدة التي يستطيع الفلاح بواسطتها ان يحصل على حد أدنى لمعيشته هي التوسع في فلاحة ارضه وزراعتها . وليس بوسعه ان يفعل هذا بواسطة الحيوانات الموجودة عنده . فهو بحاجة الى الآلات على اختلاف انواعها . ومما يسهل استعمال الآلات في العراق توفر النفط ومنتوجاته ورخص الاثمان . على انه لكي يجدي التطور في هذا الاتجاه يجب تدريب عدد كاف من المختصين وتهيئة معامل للتصليح في مختلف المراكز ، واجراء تجارب كثيرة لتعيين الطرق المثلى لاختيار الآلات الملائمة للتربة . ومن الضروري ان يكون هذا العمل تحت الاشراف الحكومي ؛ وقد اتخذت التدابير اللازمة له الآن ، وشرع بتأسيس مديريه المكائن الزراعية العامة .

الغابات : تتمتع العراق بثروة غابية حسنة ، حيث تغطي الغابات اصقاعها الشمالية على شكل هلال عريض فيها من الاشجار البلوط والزعرور والحور والصفصاف والجوز ؛ بينما العراق الجنوبي بحاجة ماسة لانشاء الغابات الاصطناعية. والغابات فضلا عما تنتجه من اخشاب وفحم تعد عاملا ضروريا من عوامل تكييف المناخ في العراق حيث تحول بعض جهاتها الى اماكن لطيفة المناخ يتمتع بها السكان في اشهر الصيف المحرقة ، كما تساعد على ازدياد كمية المطر وتماسك التربة التي تحتفظ بالمياه وتمنع انصبابها السريع على الانهار . وهي أيضاً تقوم « كمصدات للرياح » تجابه العواصف الغبارية التي تكثر في أرياف العراق . ولكن الملاحظ ان الغابات الطبيعية مهددة بخطر الانقراض ؛ وذلك بسبب القطع الذي يجري فيها بصورة فوضويه ... مما يوجب اولا تنظيم امر القطع . ثانياً وضع خطة للغرس الجديد تعويضاً لما يقطع .

تصنيع البلاد : على العراق ان ينشىء صناعة وطنية تستند إلى انتاجه من المواد الخام الزراعية . فالاحوال تساعد على تقويه بعض الصناعات كالتعليب وحفظ

المأكولات وصناعة منتجات الالياف وتربية النحل ودود القز فضلا عما تنتجه الصناعات الريفية المحليـة من البسط والسجاد والعباءات والحبـال . ولو وجهت العناية الكافية لهذه الصناعات وأدخل فيها شيء من الاساليب الحديثة لامكنهـا ان تعود على سكان القريه بالثروات .

النهوض بالمشاريع العمرانية : ولا يمكن اعمار الريف مالم تنجز المشاريع العمرانية الاساسية ، فالارياف العراقيـــة مفتقرة في الدرجة الاولى إلى تحسين مشاريع الري الموجودة حالياً وانشاء مشاريع جديدة ، ذلك ان العراق بالنسبة لأحواله الجويه ووضعه الجغرافي يعد من البلاد الجافة التي تعتمد في حياتهـا على المياه . وهو في قسم كبير منه بلاد قاحلة جرداء يستحيل العيش فيها لولا وجود الفرات ودجلة وروافدهما . وقد كانت الاستفادة التامة من حياة هـذين النهرين سبباً في ازدهار المدينة القديمة على ضفافها . فيجب إذن المبادرة إلى احياء مشاريع الري وانشاء الخزانات وحفر الجداول والآبار الارتوازيه .

اسكان العشائر الرحالة : يوجد في العراق حوالي النصف مليون من العشائر العربية والكردية الرحالة التي تربي الحيوانات وترتاد المراعي في الجبال وتحيا حياة بدوية . على أن حاجة البلاد الى الايدي العاملة بالنسبة للاراضي التي يجب استثمارها تستدعي اسكان هذه القبائل في الاراضي التي لا تزال ملكاً للدولة. ولما كان معظم هؤلاء ممن تفرغ لتربية الحيوانات فمن المناسب ان يكون النظام الزراعي الذي يتبع في مشروع إسكانهم مبنياً على تربية الحيوانات ومحاصيل العلف بالاضافة الى الحبوب التي يزرعونها لمعيشتهم . ولا يخفى ان نجاح مثل هـــذا المشروع متوقف لدرجة كبيرة على الناحية النفسية حيث يجب ان يقنع هؤلاء البدو الرحل بفائدة التوطن وما يدره عليهم من الخيرات . على ان يكون ذلك مبيناً على دراسة ميولهم واحوالهم وحالتهم الاقتصادية درساً علمياً عملياً .

كهربة الريف : بالرغم من أهمية الكهرباء في هـذا العصر الذي اصبحت المدنية فيه على الآلات لم نجد في العراق التفاتاً كافياً لهذه الناحية . ومما يجب أن يتناوله الاعتناء في هذا الشأن معرفة مقدار إحتياج العراق للكهرباء ، ومقدار ما يمكن توليده فيها . وتوجد في انحاء القسم الشمالي شلالات مائية كثيرة يمكن الاستفادة منها لتوليد القوة الكهربائية بأثمان قليلة .

اصلاح الحالة الصحية : ان الحالة الصحية الراهنة في البلاد سيئة جـــداً . فسكان القرى والارياف تفتك بهم الامراض ، ويشيع بينهم سوء التغذية في مساكن غير صحية . ونتيجة ذلك ازدياد الوفيات وقلة النشاط للعمل . فاصلاح القرية العراقية يستهدف السير في اتجاهات ثلاث : وقاية السكان من الامراض . مكافحة هـذه الامراض . رفع مستوى التغذية . ١ً) للوقاية من الامراض يجب القيام بمشاريع تؤول إلى تحسين الحالة الصحية العامـة كردم المستنقعات وإنشاء الحمامات وزرع الغابات . ٢ً) لمكافحة الامراض يجب دراستها من حيث انتشارها وأسباب وقوعها ومدى تفشيهـا ؛ ثم تعيين العدد الكافي من الاطباء والموظفين الصحيين وإنشاء المستشفيات الثابتـــة والمستشفيات السيارة ودور الرعايـة . ويستحسن وضع نظام الخدمة الطبية الاجباري على المتخرجين حديثاً حيث يقضي كل منهم مدة معينة في الريف . ولا شك أن نجاحهم في عملهم يتوقف على مقدار شعورهم بواجبهم ، ومقدار ما يتمتعون به من الراحة اللازمة . ٣ً) لرفع مستوى التغذية ينبغي اصلاح الحالة الاقتصادية والزراعية والعمرانيـة لازالة الفقر ورفع مقدار الدخل السنوي . على أن اقتناع السكان باهمية تنوع الاغذية مما يساعد على التحسين أيضاً ؛ هـذا بالاضافة إلى تنوع الانتاج الزراعي والاكثار من تربيـة الحيوان . ويستحسن قيام المدارس بتقديم وجبة واحدة من الغذاء على الاقل لطلاب القرى يومياً . ويعد هذا العمل أيضاً بمثابة دعايه للمدارس وتشويق الاولياء

على ارسال اولادهم .

مكافحة الجهل : لا يتم اصلاح القريه ما لم يكافح الجهل وتقل وطأة الامية ، حيث أن الاصلاح عامة يتوقف لدرجة كبيرة على النهوض بتفكير أهل القرى والارياف وجعلهم قادرين على ادراك متطلبات الحياة العصريه . ولذا تنشأ المدارس الكافية ، ويساق اليها من هم في سن الدراسة حيث يتلقنون منهجاً خاصاً يجنح إلى التأكيد على الناحية العملية كالقيام بالمشاريع الزراعية الصغيرة وتربية الدواجن وصناعة الالبان وغيرها ؛ وفي مدارس البنات تضاف الفنون البيتية . على أن تفتح بالاضافة إلى هذه المدارس دور المعلمين الريفية بمقياس أوسع مع توثيق صلاتها بمعهد عال خاص بالشؤون الريفية . فاصلاح القريـــة يتطلب إصلاح شتى نواحي الحياة وإن أحسن حطة عملية تتبعها البلاد هي المبادرة إلى تأسيس مديرية لاصلاح القرية وانعاشها في وزارة الشؤون الاجتماعية وتشرف هـــذه المديرية على معهد الشؤون الريفية . تبدأ هذه الهيئات عملها على مقياس محدود أولا ؛ فتطبق مشاريعها على قرية واحدة أو اثنتين تطبيقاً يجعلها قرى نموذجية ؛ ثم يعمم ما طبق فيها على القرى الاخرى تدريجياً .

البحث التاسع :

الريف المصري

أعرض عليكم في هذا البحث حالة الريف المصري قبل الانقلابات الاخيرة ، وكما تعلمون يهمني دائماً أن أصور لكم حياة الفلاح قبل تطوره بتأثير العناصر الحضرية . ويظهر أن الريف المصري يجتاز في العهود الأخيرة تطوراً هاماً بناء على اهتمام الهيئة الحاكمة ، يظهر لنا ذلك من تصريحات رجال الحكم كل يوم ، كما يظهر من تصوير الفلاح المصري على طوابع البريد بدلاً من الملك السابق فاروق .

غير أني مع هذا ، اعتقد أن التطور لن يكون سريعاً ، لأن هناك مبدأ التقيد الاجتماعي Déretminisme Sociologique الذي يحدد لكل تطور زمنه ، بل إني أميل أيضاً إلى الاعتقاد بنظرية المؤلف(١) الذي أستقي منه هذا البحث ؛ مع تعديلها بتخفيض المبالغة في الثبات ، فهو يعتقد بالثبات وأنا أعتقد ببطء التطور . ولكي تفهموا اعتقادي أصور لكم هذا التطور بتغير لون الماء في برميل كبير ، يدخل عليه الماء الصافي من الأعلى نقطة نقطة ، ويخرج منه الماء القديم من الأسفل من ثقب صغير نقطة نقطة . . وفيما يلي ألخص لكم

---

(١) الأب عيروط اليسوعي · الفلاحون ، تعريب محمد غلاب ، القاهرة ١٩٦٣.
H . Ayrout : Fellahs d'Egypte , Le Caire 1952 .

نظريـة المؤلف المذكور لأنهـا جديرة بالتأمل قبل دراسة الفلاح المصري من الناحية الريفية :

إن الفلاحين المصريين يؤلفون أكثر من ثلاثة أرباع الأهلين . وهم بوحدة طبيعتهم وبأصالتهم يكونون حقاً الشعب المصري ، ذلك الشعب الذي أنتج المدنية الأولى أو على الأقل أنتج مدنية خاصة يملأ تاريخها خمسين قرناً من الزمن ، مع صفاته الشعبية الخاصة على مر الزمن . أهم هذه الصفات « ثبات نوع الحياة » : إذ أن لغته ودينه وثقافاته وحكامه قد تغيروا ولكن نوع حياته لم تتغير ، بل احتفظ بذاته منذ امبراطوريته القديمـة . لقد امتلكه على التوالي : الفرس والاغريق والرومان والبيزنتيون والعرب والترك والفرنسيون والانكليز ، وسواء أكان الامتلاك عدة قرون أم عدة أعوام فان الشعب بقي كما هو . شعب قابل للانفعال ولكنه غير قابل للاستكناه . صبور ولكنه مقاوم ، ومع أنه شعب يعيش في ملتقى القارات وعلى مفترق الطرق الدوليـــة ، وفي بلد كان مسرحاً لأعظم أحداث التاريخ ، فقد بقي هادئاً ثابتاً كقاع البحر تحت الأمواج الهائجة . لم يتفتت أكثر من جرانيت المعابد ، ولكنه لم يتطور أكثر من تلك الصور الفنية التي تحددت مرة واحـــدة ، فتفاصيل حياته اليومية التي تستحضرها نقوش حوائط القبور الفرعونية ، أو الخرافات القبطية ، أو مؤرخو العرب ، أو « وصف مصر » أو المحققون الانجليز ، أو رحالة اليوم ... كلهـــا سلسلة من فصل واحد . ونشاهد الوحدة في آلات العمل كالمحراث والشادوف والساقيـة والجاروف والمنجل والفقة ، كما نشاهد الوحدة في معاملة الجسم كالوشم والختان ، واستعمال الكحل والحناء وإزالة الشعر ... مع ثبات العدد الكبير من العادات في الزواج والحداد والحفلات . أضف إلى ذلك روايات هيرودوت ، وديودور الصقلي ، واسترابون ، والمقريزي ، وأمثالهم ... لا ثورة ولا تطور . فكيف نشرح هذا التوازن الجسمي

والنفسي عند شعب ما ؟ نشرح ذلك « بالارض » بدون ريب ، كما نشرح ثبات الفن المصري الذين تكون بوساطة الاستيلاء على البيئـــة الطبيعية : فالخطوط الأفقية الحادة للصخور العربية والليبية قد ألهمت ذلك الشبح المنخفض المستطيل الممتلىء السميك للمعابد الفرعونية ، وذلك الافريز المتحد الصور الذي يتممها . ثم إن كومات البردى واللوتوس والقصب التي كانت تزهر على شاطىء النيل قد منحت صوراً فنية تشاهد على هذه الأعمدة وتيجانها التي ندعوها بصور البردى وصور اللوتوس والدوريانية البدائيـة . فمنذ زمن بعيد قـد ثبتت في وادي النيل بين « العقل والطبيعة » تجاوب متين . وقد أبرز ملاك مصر المختلفون بكل أعباء سيادتهم هذا التجاوب. يجد الفلاح نفسه موضوعاً بين الأرض وأربابها كأنه بين المطرقة والسندان ، ولكنه بنوع حياته أقرب إليهـا منـه إليهم ، وضرباتهم بالمطرقة قد تزيد التصاقه « بالأرض » . وهـــذا الاتحاد واقعي إلى حد أن سادة الفلاح باستيلائهم عليه يستولون على الارض وبامتلاكهم الارض هم يمتلكونـه . وبما أن السبب الأصيل لهذا الثبات وهذه الوحدة هو «ثبات تربة مصر ووحدتها» فاننـــا نستطيع استعارة تعبير (سولي ـ پرودوم) الذي يتحدث عن : « الزواج القاسي السابق على التاريخ بين جنس وحقل قد صنعا نفسيهما فيما بينهما» . إن رفقة الجنس والحقل قـد أنتجت تجاوبات دائمة صيرت الاتحاد متيناً . فمن جهـــة « الانسان » أي البيئة الاجتماعية الفلاحية بما فيها من تزاحم قليل أو كثير في السـكان مع تقاليدهم وعاداتهم ، ومن جهـة أخرى « الطبيعة » أي البيئة الطبيعية المنافية وهي المبدأ بما فيها من ماء النيل ورواسبه ونباته وجيرته من الرمال .

لنتحرس مع ذلك من الجبرية المطلقة . فالفلاح ليس ثمرة الريف المصري أكثر من أن يكون هـــذا الريف ثمرته . والانسان حر حين تكون الطبيعة

الزراعية إحدى الممكنات : قد تكون في زمن ما منوطة بارادة الفلاح وفي زمن آخر بارادة سيده . فيما مضى زرع الفلاح الكروم ولكن العنب قد يعطي النبيذ لذلك قللت التحريمات القرآنية هذه الكروم . وبالأمس كانت شجيرات التبغ تعطي سطوحاً واسعة ولكن الحكومة حظرت زرعه خلافاً لزراعة الذرة والقطن التي تحتل هذه السطوح الآن .

وبتعبير آخر ليست الشروط الايكولوجية هي التي حددت للمرة النهائية طبيعة الانتاج الزراعي ، لذلك يعارض المؤلف (فيفر) نظرية المؤلفين (رازيل) و (برون) حول تأثير البيئة الطبيعية. ونحن إذ نقبل هذا الاعتراض في الاوساط الحضرية والمدن الصناعية الكبرى ، لا نستطيع إلا أن نعترف بقوة النظرية في الجماعات الريفية ولا سيما في الحالة الخاصة التي ندرسها الآن « حالة مصر » . سنرى في الواقع أن ثمت تماثلاً بين وادي النيل ووحدته وخصوبته ، وبين الجماعة الريفية ووحدتها وخصوبتها . إن رواسب ماء النيل تغلغلت في جسم الفلاح ومسكنه وعمله وأسرته ونفسه . ونقلت اليه محامدها ومساوئها . وبسبب أن الارض تجسدت في الفلاح ، كان هذا الاخير ثابتاً الى هذا الحد وكان أيضاً مادياً راكداً .

فالاصلاح إذن سوف يأتي من انتزاعه في سبيل تطويره : ١) انتزاعه من هذا الغلاف الطيني الذي يخنقه ، ورفعه دون اقتلاع جذوره . ٢) تخليصه من معائب الارض دون محامدها أي تربيته التربية الحديثة. وهذه التربية هي عمل الجماعة العليا التي تستثمر الفلاح، جماعة الصفوة التي بوسائلها وثرواتها تستطيع مكافأته، أو جماعة السلطة الحاكمة في الوقت الحاضر .

مصر من الناحية الطبيعية :

يمكن التحدث عن تصوير مصر بلداً صناعياً . ومنذ الآن توجد طبقة من صغار الصناع ، طبقة عاملة وطنية يمكن دراستها . غير أن انعدام مناجم الحديد والفحم يمنع القطر المصري على الأقل الآن من نمو الصناعة فيه وستبقى بلداً زراعياً قبل كل شيء . إن مصر بأرضها المسطحة ، وتربتها الرطبة الرخوة ، ونهرها الفياض ، ومناخها الحار الجاف تحقق الشروط الايكولوجية للزراعات الواسعة . رمال وكتل من الجرانيت والجص غير صالحة لأي بذر لولا النيل ، ولولاه لكان وجه مصر يشبه وجه جارتها الصحراء العربية الفقيرة التي يسكنها البدو والرعاة .

ليس النيل من مولد مصري ، ولكنه يهب مصر نضوجه والتفتح الذي ينهيه . هو يدخل أرضها غنياً بجريان (٥٠٠٠) كم ، ومحملاً بالرواسب التي يجلبها معه إبان هذا السفر العظيم خلال أشد الاراضي تبايناً . هو يتجدد في كل عام وينظم بحياته حياة مصر .

وطريقة الري بالحياض الضاربة في القدم والتي لا تزال إلى اليوم تشمل مليوناً من الأفدنة تنحصر في إحضار الماء في زمن الفيضان عن طريق قنوات صغيرة الى سطوح واسعة من الارض محوطة بجسور عالية فتبتلع الارض الماء إلى حد الشبع ، والباقي يسيل في سير بطيء بعد أن يضع طبقة من الرواسب الدقيقة . وعلى أثر انسحاب الماء مباشرة (نوفمبر) يبدأ العمل في الزراعات التي تأخذ في النمو الى الحصاد دون احتياج الى ري آخر . وبعد هذا تظل الارض باثرة إلى الفيضان التالي ، ومع ذلك فزراع الارض الواقعة في الحياض لكي يستفيدوا من زراعة صيفية بعد غلة الشتاء يلتجئون إلى الماء النابع من الارض

بواسطة الماكينات التي انتشرت بكفاية في تلك الاصقاع .

أما طريقة الري الذي يدعى بالدائم والذي أدخل في سنة ١٨٤٠ وصار ممكناً بفضل الاشغال الفنية كسد خزان أسوان ، فهي تسيطر على كل الدلتا وعلى جزء عظيم من الوجه القبلي . ففي هذه الجهات لا يفيض النيل بل يبقى محجوزاً في خزانات وموزعاً بوساطة السدود ويتفرع إلى عدد كبير من القنوات الي يغذيها في جميع الفصول. وبفضل التشققات التي ترسمها أشعة الشمس في الصيف تجف الارض ويتجدد هواؤها .

إن وادي النيل المحصور بين الصحراوين اللتين تقوم وراءهما الحدود السياسية ، هو ذو طبيعة زراعية في جوهرها . وحياته يعبر عنها بنغمة واحدة هي : الاخضر ذو الزراعات المستمرة التي تمتد في ريف عظيم واحد يدثر القرى والمدن . فقبل حصاد الذرة مثلاً لا يرى المرء على ارتفاع قامة الرجل لا القنوات ولا قضبان السكة الحديدية التي تظهرها الاعمدة التلغرافية ولا المنازل المنخفضة المتجمعة ... على نحو ما في مروج هولاندا أو روسيا الرطبة . يرى فقط ، وتحت سماء لا تمطر ، حقولاً واسعة بلونها الاخضر الدائم . غير أنه حين يبتعد عن وادي النيل نحو السويس ، أو نحو دير وادي النطرون القبطي ، فان الصحراء تجتاحه من كل جهة ، وإذ ذاك يعتقد أنه قد غير البلد ، وتخطر في ذهنه قضية تماثل خريطة الماء مع خريطة البشر . أما في الغرب فيلتقي بالواحات البدوية : الخارجة والداخلة ، والفرافرة وسيوة ، وأخيراً في الشرق يجد ، نحو شواطىء البحر الاحمر ، استغلال البترول والفوسفات ، وأسراً من الفلاحين «الصعائدة» قد استقرت للأشغال .

إن ازدحام التعمير في وادي النيل تشرحه ظاهرة واحدة هي التقاء معظم الشروط الايكولوجية التي تساعد على نمو الزراعة ونمو النسل : ١) المناخ الحار

٢) الري الدائم . ٣) طبيعة الوادي المسطح مع إمكان تقسيمه إلى قطع صغيرة تساعد على الاستغلال الصغير ، سواء إيجاراً أو ملكاً ، مع تكاثر أفراد الاسرة « الاولاد » في سبيل الاستغلال . ٤) تكدس الزراعات المقوتة التي تغذي شعباً كثير العدد في مكانه : كالذرة والقمح والعدس والفول . . . مع زراعة القطن التي تجلب المال الكافي لحاجيات التوسع والتكاثف .

الصفات البيولوجية والانثروبولوجية :

جسم الفلاح : إلى أية أرومة ينتسب الفلاح المصري المعاصر ؟ مثل هذا السؤال يجاب عليه بنظريات : فهناك نظرية (فولنيه) التي تعتبر المصريين من أصل أسود وهناك نظرية (فيفان دينون) الذي يعزو إليهم أصلاً قوقازياً ، وهناك نظريات أخرى ترى الأصل سليتاً أو صينياً أو حبشياً ... أما (شانتر) فبعد إجراء مقاييس علمية على أجسام بشرية تبلغ عدة آلاف من المصريه والقديمة ، قد استنتج أن المصريين هم افريقيون جوهراً (أي من أرومة ليبية) مع افتراض تسرب آسيوي . . . وأخيراً النظريه السائدة تقول في الوقت الحاضر : لا بد أن يكون آسيويون ، عرباً أكانوا أم بابليين ، قد احتلوا وادي النيل قبل التاريخ فانصهروا (رغم سيادتهم) في السكان المستقرين سابقاً الذينهم خليط من بني البلاد ومن الحبشيين . وهذه النظرية تسمح بادخال المصريين في مفهوم « إنسان البحر الابيض المتوسط » السامي الحامي مع مشابهات حبشية عند حدوده مع الاصول السوداء . على أننا إذا رجعنا إلى الصور الجانبية المرسومة في الجدران والهياكل نتأكد من وجود ثلاث أرومات : ١) الساميون Dolichocéphales الذين تفوق أطوال رؤوسهم أعراضها بنحو الربع ، وهم

ذوو قامات متوسطة . ٢) أبناء شواطئ المتوسط Brachycéphales الذين أعراض رؤوسهم تعادل أطوالها ، وهم ذوو أنوف مستقيمة قصيرة . ٣) اللوبيون الذين يماثلون الأرومة الثانية لكن أنوفهم مقوسة . ومن امتزاج هذه الأرومات الثلاث مع قليل من العناصر الاجنبية تكون الجنس المصري بتأثير وحدة الحياة الزراعية .

على كل حال يمكن إرجاع الفلاحين المعاصرين إلى الأصل القديم الفرعوني لأن العبودية والاحتقار اللذين كان الشعب الاصلي يرسف فيها منذ زوال عصر الفراعنة قد حفظا جنسه . فالفاتحون منذ الفرس والرومان ... حتى الافرنسيين والانجليز كلهم نهجوا سياسة واحدة هي السيادة على مصر للاستفادة من ثرواتها دون أن يشاركوا الشعب المنتج أو يختلطوا مكانه . ولم يكن المستعمرون كثيري العدد إلى حد يكفي لتغيير الجنس ، فبقي نوع حياتهم مختلفاً . وقد فرض العرب بقوتهم كفاتحين ، لغتهم ودينهم وطائفة من عاداتهم إزاء النساء وصلاتهم ، غير أن الاهلين الأكثر عدداً مائة مرة ولا سيما في القرى ، ونساءهم الأكثر خصوبة وثبات نوع حياتهم ، كل ذلك قد طبع العناصر العربية بطابع النموذج المصري . وعندما استقر العرب على الارض السوداء اعتنقوا تقاليد الحراثين القروية ... وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال لم تعد الطعمة تمتاز عن الشجرة ، إلا في حال عدم الاختلاط أي في حال العرب الذين ظلوا رحلاً ينقلون القطن على الجمال وهم « البدو » الذين بقوا يختلفون عن الفلاحين بتقاسيم وجوههم الأكثر دقة وأمزجتهم الأشد عصبية . وهناك اختلاط آخر في الجنوب بين السود والفلاحين غير أن النموذج المصري هو الذي ساد أيضاً .

الفلاح ذو بنية سميكة ، لكنها ليست بدينة . جمجمته ووجهه عريضان ، لكن جبهته ضيقة . عيناه سوداوان ووجنتاه بارزتان إلى حد ما . أنفه سميك

وشفتاه ضخمتان لكنهما غير مقلوبتين . فكه ثقيل وتقاسيمه غليظة لكنها ليست فظة . كتفاه منحنيتان على الصدر لكنهما ليستا منخفضتين . مواضع الربط من جسمه قوية . لون بشرته اسمر ينعطف نحو السواد كلما تقدمنا نحو النوبة .

شعره أسود قليل النمو ، ويجعله قصيراً إلا حين يصدم الموت ذكراً في منزله ، ولكنه يحتفظ عن طيب خاطر بشاربيه كاحدى علائم الرجولة ، فاذا صار شيخاً موقراً أرسل لحيته . وعندما كان طفلاً كان أهله يحلقون رأسه تماماً ولا يدعون منه إلا الخصلة الطقوسية . أما شعر النساء فلعدم العناية به يظل ضئيلاً ، وهن يطلن بحبال صهباء أو سوداء عذائرهن الهزيلة التي هي دائماً مخبوءة تحت النقاب أو محتواة في منديل . وإزالة الشعر هي غامة منذ القديم لدي الجنسين وذلك بالموسى أو بمعجون السكر مع الشبة . ويجملون البشرة بتقاليد قديمة كالتشريطات واللزقات والطلاءات ... كلها ترمي إلى التجميل أو الوقاية والعلاج .

تثقب شحمتا الأذنين في الفتاة الصغيرة ويثقب أحياناً أحد حواجز أنفها وإلى أن تنال هذه الثقوب أقراطها تحتفظ بخيوط . أما الغلمان مسلمون وأقباط ، فانهم خاضعون معاً لعملية الختان التقليدية التي يجريها حلاق القرية ، قبل أن يتجاوزوا السن العاشرة ، وللبنات تجري عملية البتر . وإجمالاً لايشرط الفلاحون وجوههم كالنوبيين (البرابرة) ولكنهم يلونونها ويوشمونها . والوشم يؤلف العلامة المميزة للشعب . فالرجال والنساء موسومون بها منذ المراهقة . في وسط الجبهة أو الذقن أو على الصدغين أو الصدر أو الظهر ... وهي نقط أو صور هندسية ، ورسوم ساذجة كسيف أو شجرة أو أسم أو تاريخ . يصنعها اختصاصي أو بدوي ، رجل للرجال وامرأة للنساء وذلك في الهواء الطلق في إحدى زوايا الطريق وفي يوم السوق . يرسم حسب النموذج المختار الخط فوق الجلد بآلة

مدية ذات ابر عديدة محبوكة أو بنوع من الاختام معد لطبع الوشم ثم يلون الرسم الدامي بسواد الدخان ممزوجاً بالزيت او الكحول فيحصل بهذا على لون أخضر ثابت . أما الحناء فتصبغ بها الايامى شعورهن لاستعادة الشباب ظاهراً ، والشابات لتنظيف رؤوسهن وقتل القمل ومنع سقوط الشعر ، والأطفال لطلي الجمجمة المحلوقة والأيدي والأقدام ، ولكن أيدي النساء واقدامهن لاتلون إلا في الحفلات الكبرى مرة أو مرتين في العام . وترجع عادة الحناء إلى التقاليد المصرية القديمة التي قوى العرب استعمالها ، لكونها لصقة صحية تحفظ الأقدام والايدي . أما الكحل فيبرز الحواجب والاهداب بسواده ويوسع العيون ظاهراً فضلا عن كونه علاجاً . ومن السهل ان نلاحظ أن كل هذه التجميلات الاصطناعية ، تؤلف في الوقت ذاته علاجاً للوقاية أو الشفاء ، مع كونها ذات علاج سحري : فالحناء يكرس ، والوشم يرمز ، والحناء تعيد الذكرى والكحل يقصي العين الحاسدة .

الصحة والمرض : لايستحم الفلاح للتلذذ أو النظافة ، بل ينغمس في الماء أثناء عمله أو لسبب ديني (التطهرات الاسلامية) . وهو معرض للهواء والشمس والارض ولا تفصله ملابسه البسيطة عن هذه العوامل الطبيعية التي يتلقى منها قوة الحياة الطبيعية . نومه لايستلزم الفراش الوثير ، وأنواع الجروح والزكام والروائح المقيئة لاتضايقه ورغبته في الاكل لاتعرف التقزز خلافاً لسمعه الدقيق الذي يحس بأقل الضجيج .

غير أن هذه الحياة الطبيعية قد تنقلب عليه أحياناً وتنقل إليه أمراضاً عفنة تشوهه وتضنيه وهو غير حذر إجمالاً . فالسل والجذام يكادان يكونان وراثيين . والبلهارسيا والانكلستوما والملاريا تحدث إصابات كثيرة وكلها تأتي من عدم النظافة وفي الاتصال بين الفلاح والارض . وأول مايلفت النظر أمراض

العيون الناتجة عن سطوع الشمس والغبار السميك والذباب والرياح الرملية بدون أمطار . فلا يكاد الطفل يفتح عينيه للحياة حتى تلتهب وتقيح إن لم تنطفىء منذ الطفولة الاولى .

تنتقل البلهارسيا بواسطة البول ، والانكلستوما بواسطة البراز والارض. أما الملاريا فبواسطة الحقول (حقول الارز والبرك) وهي تهاجم ٦٥ ٪ من الفلاحين وفي بعض قرى الشرق ٩٠ ٪ منهم . والذي يصير هذه الامراض مرعبة اكثر من خطورتها هو انتشارها ونموها . يضاف الى ذلك البول الدموي وهو ليس خطراً في ذاته ولكنه يتعقد بسبب الاهمال ويجلب الحصى في المثانة والقروح وقد يصعد التقيح إلى الكلى والكبد والعين ، ويبقى سنين طويلة يتبول الفلاح اثناءها دماً ويعاني حياة ضعيفة. ثم تأتي مشكلة الماء الصالح للشرب .

المشرب والمأكل : فالفلاح قد يشرب ماء البئر وماء النيل ولكنه في أغلب الأحايين يشرب من قناة الري حيث تبول الماشية ويغسل الفلاحون الاواني والملابس . في كل مساء تستحضر الفلاحة من ماء القناة ما يملىء الجرة الكبيرة « الزير المسند إلى الحائط » فيصفو الماء فيه قليلا ويبرد لوجود مسام الفخار . أما القطرات الصافية تماماً والتي تتساقط من الاسفل بالترشيح فتذهب ضياعاً أو يشربها الدجاج عوضاً أن يجمعها الفلاح في قلة قابلة للامتلاء .

أتت القهوة إلى مصر مع صوفية اليمن في نهاية القرن الخامس عشر ، ولكن الفلاح يشربها أقل من سكان القاهرة بكثير ، لأنه يشرب الشاي بكثرة هو وافراد اسرته . وشرب الشاي بدعة سرت من طرابلس منذ الحرب العظمى فاستأصلت في بيت الفلاح المصري . وبعض الفلاحين يحملونه معهم « بكارجهم » إلى الحقول ، وأشدهم فقراً ينفق على الاقل ثلاثين قرشاً في الشهر ثمن الشاي والسكر ، وحينما لايكون لديهم النقود لشرائه يتمددون على الارض ولا

يستطيعون عمل شيء . أما كيفية شربه فيغلونه حتى يسود فيصبح شراباً غنياً بالتانين والقلويات فيحدث مع طول الزمن اضطراباً في الجهاز العصبي والمعدة وأثراً سيئاً في الخلق . ومع ذلك يبقى الشاي شراباً مفضلاً ما دام الفلاح يسلى وينسى . وقد حاولت الحكومة رفع الجمرك ، لكن الشر لم يقل لأن الفلاح بحكم العادة يستغني عن الأكل هو وأسرته ولا يتخلى عن الشاي . بل إن رفع الجمرك زاد الشر سوءاً ، لأن بعض التجار صاروا يزيفون صنع الشاي من نشارة الخشب وقشر الفول والملخية مع بقايا الشاي المستعمل في المقاهي والبواخر ويبيعونه للفلاح التعس حينما لا يستطيعون جلبه بالتهريب . ويعتقد الأب عيروط مؤلف الكتاب (١) الذي ألخص لكم منه هذا البحث ، أنه يوجد اتصال بين نمو الرغبة في التسمم وبين انتشار مشروع الري الذي هيأ الجو للبلهارسيا والانكلستوما . نعم لقد ضاعف المشروع ثروة مصر ولكنه ضعف صحة الفلاح وقلت كفايته للعمل فلجأ إلى المنبه الذي تحت يده . وبما أن الرجال هم أكثر إصابة من النساء بسبب حياتهم في الحمأ والماء ، فهم أكثر استهلاكاً للشاي منهن .

أما التبغ الذي انتشر في مصر منذ القرن السابع عشر فلم تعد زراعته مستطاعة بعد المنع الذي صدر عام ١٨٩٠ . فقد أريد تجنب خطر الحشيش مع إرضاء تركيا وصار بالامكان استيراده خاماً (من تركيا واليابان ...) وتحضيره في مصر . وهو يكلف الفلاح ثمناً باهظاً لا يشجعه على تناوله بمقدار ما يتناوله أهل المدن الذين اختصوا بشربه مع القهوة بكميات كثيرة .

يأكل الفلاح ثلاث مرات في اليوم : عند شروق الشمس قبل الذهاب إلى

---

(١) أنظر الصفحة ١١٦ من الكتاب المذكور سابقاً ، والصفحة ١٠٨ من الطبعة الفرنسية الجديدة لعام ١٩٥٢ . في هذه الطبعة يشير المؤلف الى طغيان الكوكالا في المدة الاخيرة بحيث قلت انتشار الشاي والقهوة نسبياً لكنها جاءت خطراً على ميزانية الفلاح الهزيلة .

العمل (فطور) وعند الضحى في الحقل (غداء) وعند الشفق في المنزل (عشاء) . يأكل مع أفراد أسرته وهم جاثون « متربعون » وغالباً ما في الهواء الطلق ، وفي صحون من الفخار مشتركة وإبريق الماء الوحيد الذي يمر من فم إلى فم . ولما كان الفلاحون لا يربون الحيوانات إلا قليلاً ، وكان اللحم غالياً فانهم قليلو أكل اللحم ويأكلونه بكثرة من الضأن واليقر أثناء الاعياد ، والفقراء منهم يترقبون أحد الاثرياء الذي يذبح ثوراً أو جاموسة بمناسبات النذر والحداد . وطبيعي أن الذين يعيشون على شواطئ النيل والقنوات والبحيرات يصطادون بالجابية أسماكاً صغيرة يقلونها بالزيت ، يضاف إلى ذلك البصل واللفت والخيار والفلفل والعدس والرز مع الخضر المطبوخة كالباميا والملخية اللتين يأكلها الفلاح بشراهة ، وخصوصاً « الفول المدمس » الطعام الوطني مع الخبز الذي يصنعه الفلاح من الذرة التي يزرعها . وقد تحين الفرصة لآكل الحلوى فيأكل تمراً أو يقضم بكل أسنانه قطعة من البطيخ أو يمص عوداً من القصب أو يقرض « كوزاً » من الذرة الشامية .

تشغل زراعة الذرة بعد زراعة القطن أكبر مساحة إذ تبلغ نحو مليونين ونصفاً من الافدنة . ولفظة الذرة هي الاسم العربي لهذا النوع من الحبوب وتدعوه وزارة الزراعة بالذرة الشامية أي الآتية من سورية لتمييزها عن الذرة الرفيعة أو العويجة التي هي الغراس القديم . وقد احتلت الذرة الشامية وادي النيل لأنها تلتئم مع الفلاح ومع التربة حتى اشتهرت بأنها أفضل نوع هي وذرة موزمبيق . يبذرها الفلاح في يولية نثراً ويخصص لها كثيراً من السماد ويسقيها سبع مرات . وبعد ١٣ — ١٥ أسبوعاً يقتلع باليد الاحطاب الطويلة المحملة بالسنابل هو ونساؤه وأولاده الذين يفصلون رؤوس الذرة أولاً ثم يقيمون من الاحطاب المجردة شبه سياج حول تل الثمار ويقشرون داخل هذه الدائرة السنابل

التي ينقلونها إلى الدار على حمير قصيرة وبعدها الاحطاب .

ويستعيد القمح اليوم أهميته القديمة كما كانت في تقاليد مصر الزراعية بعد أن أفقده إياها القطن ، لكن الفلاح لا يزال يتبع في زراعته الطرائق القديمة التي ذكرنا أمثالها في البحوث السابقة . ويأتي بعد القمح من حيث الأهمية الأرز والفول والبصل وقصب السكر والشعير والعدس والتمر . أما البرسيم فهو غذاء الماشية الشتوي ، ويزرع في كل مكان بنسبة ٢٠ ٪ من مجموع المساحة لأنه يغذي الارض كما يغذي الحيوانات . ولما كان أحد البقول التي تحجز آزوت الهواء في التربة وكان كلأ جيداً ، فانه ينبت بسرعة وبحالة اقتصادية .

هذه التربة التي يعجنها الفلاح بكل أعضائه يسلم اليها نفسه بدون احتياط وبهوى حينما تكون ملكه ، ولكنها لا تكاد تكون ملكه أبداً ، فهنا تملك الارض الرجل وليس هو الذي يملكها وهنا أيضاً مفتاح سر كسله لأنه لا توجد من بين الحالات التي يعمل فيها أية حالة تحرره ، ولنلاحظه في كل واحدة منها : ١) في حالة السخرة : نعم إن السخرة ألغيت عام ١٨٩٣ ولكنها بقيت عملياً في حالات المنفعة العامة مثلاً . عندما يكون فيضان النيل ككارثة يعمل مئات من الفلاحين ليلاً نهاراً تحت ضغط الموظفين والمراقبين لرفع الضفاف أو الجسور أو إعداد المصارف أو السهر على الخزانات . ٢) في حالة المياومة : حين يستأجر « الريس » الفلاحين لحفر إحدى القنوات أو تحسين أحد الطرق ، يحملون الفؤوس وينفذون العمل تحت رقابة ضيقة على طريقة المساجين وفي الغالب يكون أحدهم بعيداً عن قريته ولا ينال أكثر من ثلاثة قروش يومياً . ٣) في حالة الشراكة : إذا كانت الحالة السابقة اليومية مرتبطة بالاستغلال الكبير ، فان حالة الشراكة مرتبطة بالاستغلال الصغير . يشترك المالك مع الفلاح ليستغل بواسطته قطعة ذات (٥ — ١٠) أفدنة ، وهو يدفع الضرائب وتكاليف الري

ويقدم المواد الزراعية والماشية والبذور والاسمدة ، بينما الفلاح — وهو رب الاسرة — يقدم شغله أي اليد العاملة الضرورية لكل زراعات السنة من الحرث إلى الحصاد ، والغاية خارجة ، وهو لهذا يتسلم الخمس أو الربع من مجموعة إنتاج القطعة ، أو هو يحتمل نصف جميع التكاليف ، وإذ ذاك يأخذ نصف الغلة ، والعقد — وهو دائماً شفهي — يحمل عدة تغييرات . ٤) في حالة الاستئجار : وهنا الفلاح مقاول أكثر منه في الحالات الاخرى لأنه يستأجر حقلاً بشرط كمال التصرف من ٦ - ٢٢ جيباً حسب الجهات . وهو يلتزم بكل النفقات ، ولكنه يحتفظ بكل الغلة ، والمالك ليس عليه إلا دفع الضرائب ، وعقد الايجار في هذه الحالة واسع المدى يشمل زمن الترتيب الضروري للزراعة أي سنتين أو ثلاثاً . ٥) في حالة التملك : أي إذا كان الفلاح مالكاً . إن أكثر من مليونين من الفلاحين يملك كل واحد منهم قطعة من الارض ولكنها بالنسبة إليهم صغيرة بحيث لا تكفي لشغل الاسرة ولا لقوتها ؛ مع ذلك فالمالك الصغير بين السواد الريفي يمثل الطبقة الممتازة ، والمثل الأعلى لكل فلاح هو أن يصل إلى هـذا المستوى ويتزوج ويكون له أولاد ويملك جاموسة .

على أن الحالات السابقة مهما اختلفت وتعددت فانه يبقى معها تشابه وصفات مشتركة : ١) التشابه في الفقر بسبب أن الفلاح لا يعرف التدبير ولا الادخار على اعتباره جاهلاً ومنعزلاً وضعيفاً . فالذي يجني ثمار عمله هو الأكثر منه علماً وثروة وقوة : أي المصرف والمرابي والمالك . لذلك ينطبق عليه المثل الريفي القائل « إنه كالابرة التي تكسو الناس بينما هي تبقى عارية » . ٢) التشابه في التبعية أي أن الفلاح لا يستطيع أن يغرس ما يريد ولا متى يريد . فهو إذ كان مياوماً يعمل تحت أمر المراقبين ، وإذا كان شريكاً أو مستأجراً فان زراعته ينظمها رسم المالك ، وإذا كان هو نفسه مالكاً فانه يتبع في التواريخ وأنواع النبات أوامر وزارة الزراعة وليس لديه أية حرية ولا أي

ابتكار لا في الطريقة ولا في الزمن ولا في الاختيار . ٣) التشابه في تحقق أقل قدر ممكن ، أي أن الفلاح مهما كان استغلاله سيئاً ، فانه على الأقل مثأكد من قوته ، إذ لا يموت أحد في القرى جوعاً ، وفي أسوأ حالات العمل تظل وسائل الارض باقية . ٤) التشابه في التعاون الأسري : أي أن إنتاج الاسرة منوط بتعاون أفرادها في العمل كأنهم كائن واحد يؤدي وظيفة واحدة ، وهذا الكائن الحيوي مؤلف بقيادة الرجل من المرأة والاولاد والجاموسة والحمار .

الصفات الاجتماعية والنفسية[١] :

تتألف الخلية الريفية المتوسطة ، أي الاسرة العادية من الاعضاء التالية : ١) الفلاح وهو رب الاسرة يقدم أيام عمله . ٢) زوجته وهي اليد العاملة المساعدة للبذر والجني ، تربي الدجاج وتصنع الزبد والجبن وتبيع هذه المنتجات . ٣) أولاده الذين يقتادون الماشية إلى الحقول وموضع الاستحمام ويلتقطون الاروث ... وهم إبان ٥ — ٦ أسابيع يشتغلون مقابل أجر للجني أو مكافحة دودة القطن أو الحلج في المصانع . ٤) جاموسته التي تجر المحراث وتدرس القمح وتنتج الحليب والاروث كوقود أو سماد . ٥) حمره الذي ينقل السماد والغلة والأفراد.

هذه الخلية الريفية يمكن أن تحقق الحصول على القوت اليومي مع توفير بعض الجنيهات للنفقات فوق العادة كالختان أو الزواج أو الجنازة . وإذا تحسن الحظ فان الفلاح بجمعه قرشاً قرشاً في قدر يدفنه في الارض يستطيع في النهاية تحقيق حلمه وهو شراء جاموسة أو بضعة قراريط من الارض .

تسكن هذه الخلية المتوسطة في منزل طيني وهو الذي يوجد بنسبة ٩٢ ٪ من البيوت ويمثل الوحدة الريفية وثباتها بدون طراز وبدون عصر . الحي قديم

---

(١) أعاني في تلخيص الفقرات التالية حتى آخر البحث الطالبتان في كلية التربية الآنستان اميرة أزهري ، ملك صواف ، وذلك عن الكتاب المذكور سابقاً .

والقرية أقدم ولكن المنزل يرجع تاريخه إلى عشرين سنة ، ذلك لان مواد البناء وطريقته تفرضان على البناء حياة قصيرة . والفيضان والمطر في مصر السفلى ، والحرائق قد جرّت اصلاحات متتالية سوف لا تدع عما قريب شيئاً قديماً . والذي ينبت بدل القديم إنما هو منزل من الآجر في مصر السفلى، أو من الحجر في مصر العليا وفي بعض الاحوال منزل كالعش يبنيه أنصاف الرحّل من الخرق والصفيح والطين ، أو كوخ من القصب وحطب الذرة يبقى بقاء أعمال الشتاء الكبرى .

يتعلق مسكن الفلاح كعمله بالارض وبنوع الحياة وبالنظام الاجتماعي . فالارض التي تطعمه هي نفسها التي تؤويه . المسكن « أرضي » والمادة هنا هي التي تعطي الصورة . من الصلصال وقش الشعير أو الفول وأرواث البقر وماء النيل يتكون الملاط المستعمل في كل مكان والذي يبسط من الجانبين على حاجز من القصب أو السعف . وقد يصب في قالب من خشب لصنع « اللبن » الذي منه تقام الحوائط ، ومن المزيج نفسه تطلى داخلاً وخارجاً. وعندما يكون الفلاح أكبر سعة يبني منزله على أساس من آجر أو على قواعد من حجر الجص حتى لا تأكل الرطوبة أسفل الحوائط . ولكي لا تتعرض متانتها للخطر ، تحتوي على قليل من الفتحات وتبقى بفضل ذلك مؤدية وظيفتها كواقية ضد إفراط النور والحرارة والبرد . ومن الباب تتكون الاتصالات الوحيدة بالخارج . إن الضرورة وعادة وضع الاخشاب والقش فوق السطح تحدثان غالباً الحرائق التي هي بسبب اقتراب المنازل تمتد إلى الحي ثم إلى القرية . وشرارة تنبعث من التنور أو « الوابور » مع حرارة الصيف تكفي لوقوع كارثة ... إن كثرة حرائق القرى إحدى بلايا مصر ، وفي كل عام تسجل إدارة الأمن العام خسائر مرعبة .

يمكن حصر المسكن في حجرة وحيدة ذات سقف منخفض ولكن

أكثرية المنازل تحوي حجرتين أو ثلاث : ١) قاعة « مندرة » هي أكثر أجزاء البيت نوراً بسبب الباب ، وهي تستعمل الاستقبال ولنوم الضيف وتحوي «مصطبة» لهذه الغاية . ٢) حجرة النوم والطهي وهي تطل على القاعة وفي إحدى زواياها التنور المبني بالآجر ذو سقف مبسوط ينام فوقه شخصان في الشتاء . ٣) ردهة صغيرة « زريبة » في الداخل وبدون أي مدخل آخر غير الباب العادي ، وهي نصف مغطاة بحطب الذرة تحبس فيها الجاموسة والحمار .

غير أن التفريق ليس صريحاً لأن القاعة قد تستعمل كحجرة للنوم ، في الصيف مثلا ، أو كحجرة للطهي في الشتاء ... والدجاج يقطن في كل موضع ، والحمام يسكن في ثقوب محفورة في الحوائط .. والكلب صديق الفلاح ينبح في المكان المناسب ليلاً نهاراً . أما أرضية المنزل فهي من تراب مضغوط . وفي الزوايا بدون نظام ، الاثاث والحصر والاغطية من القطن والمائدة المستديرة المنخفضة والصندوق الخشبي الذي يكدس فيه كل شيء : هو هدية الزواج مصبوغ بألوان تذكر صاحبه بيوم الفرح العائلي . . . هذا مع العلم أن الاسرة تضم عدا الأب والأم وأربعة أو خمسة أولاد ، الجد والجدة وأحد الأولاد المتزوجين أو أكثر .

عندما يريد الفلاح أن يتزوج ، إذا كان كبيراً ، فهو يعالج المسألة مباشرة مع والد المختارة ويدفع له المهر . وإذا كان صغيراً ، والرشد في الـ ١٨ ، فان والدته تشرع في التنقيب بين ذوي القربى والجيران لتعثر له على فتاة من الـ ١٤ — ١٦ سنة ... وفي يوم الزفاف أي حينما تترك العروس منزل والدها إلى منزل زوجها ، فان الجهاز المشتري بثمن المهر ، يحمل على جمل ويمر خلال القرية يتقدمه الفتيات ويتبعه المغنيات ... وذلك بعد الظهر قبل رحيل العروس حيث تزدحم جماهير النساء والاطفال لرؤية الجهاز ... وفي المساء يتألف الموكب فتركب العروس

الجمل ، ويطلق الرجال البنادق في الهواء (وهو تأثير بدوي) بينما تتعاقب زغاريد النساء وجوقاتهن ويكون الزوج هو الآخر بن جانبه قد استعد فاستحم في منزل أفضل أصدقائه ؛ وقد نقلت إليه ملابس الحفلة واجتمع الناس في الخارج لينتظروا خروجه . وأخيراً وبعد أن يستعد يحيطه رفاقه بشموع ويتألف منهم صف يحمل النور ، وهو يمسك منديلاً أبيض يضعه على وجهه كما لو كان يتحجب ، وهم يترنمون بالأغاني ودوي الرصاص ، وتلقي عليهم النساء قبضات من الملح . وحين يصل الموكب إلى منزل والد الزوج ينتزعه أصدقاؤه من الجمهور ويجذبونه إلى الداخل حيث تكون العروس موجودة .

إن مزاج الفلاح شهواني حاد وأشد منه مزاج الفلاحة التي تتمتع بصحة أحسن لابتعادها عن أمراض البلهارسيا نسبياً ولأنها أصغر سناً ؛ ولكن نار الهوى لا تدوم طويلاً لأنها تفقد فتنتها في الثلاثين. مع ذلك تبقى شديدة الارتباط بزوجها بسبب الاولاد الذين أنجبتهم . فكل منها يجعلهم فوق كل شيء : هي لكي تنال اعتباراً اجتماعياً مع العلم إن العقم وضاعة قد يسبب الطلاق أو تعدد الزوجات. وهو لكي يفوز بخلفاء يسمحون له بالراحة وباصدار الاوامر . وهكذا يكون النسل كثيراً وبقدر ما يكبر الاطفال تنال والدتهم من الاهمية . على أن الذي يربط الرجل بالمرأة أيضاً هو مهارتها وسلطتها اللتان تفوقانه غالباً « إن الرجل نهر والمرأة جسر » (مثل فلاحي) .

تحتفظ الفلاحة بملكية الاثاث الذي أحضرته يوم زواجها وبثمن ما تبيعه . هي تدخر وتعير زوجها ، وهذا يعطيها شيئاً من السلطة . وإذا اضطهدها فانها تنسحب إلى منزل والدها ثم تضع لعودتها شروطاً كفسطان أو قرط ... إن حاجتها أقل من حاجته إليها . « يروى في هذه المناسبة أن امرأة كانت تولول أثناء خطر الفيضان . فقيل لها لا تحزني فقد أخذ منك زوجك وسيرد إليك . فكانت

تقول ليس زوجي هو الذي أبكيه ، وإنما هي جاموستي التي لا أجدها . ابحثوا لي عن جاموستي » .

تستمتع الفلاحة بالحرية والسلطة ما دام لديها من الحكمة ما يجعلها لا تخرج على التقاليد . هي تذهب وتجيء وتتحدث مع رفيقاتها كما تريد ، ولكن الويل لها إذا فوجئت في رفقة رجل أو منفردة في مكان لم تتعوده . وإذا هوت في الاثم فان زوجها يتهمها أمام والديها ، وإذ ذاك يتعهد أبوها أو أخوها أو ابن عمها بقتلها.

يمكن أن تدير المرأة المنزل إدارة واقعية ، فهذا يتجاوز عنه . ولكن الويل لها عندما تقصر في احترام زوجها كأن تمشي أمامه حين يذهبان إلى السوق ، أو أن تتحادث معه بصوت عال بينما هو يتحدث أو يلعب مع رفاقه . هو لا يدعوها البتة باسمها بل « يا مرة » أو يا بنت أو يا أم فلان « اسم ابنها الاكبر » . وهو يترأسها بتصنع احتقارها وبعدم ابداء أي حنان نحوها . وبقدر ما يتقدم في السن يتطلب الاحترام ويكتفي به .

عندما يولد الطفل تعلق خرزة زرقاء في عنقه لتجنب الحسد ، ولنفس السبب يخفى الغلام الذي يتباهى بجماله تحت ملابس فتاة إلى الفطام ، وأمه ترضعه إبان عامين على الأقل إرضاعاً كثيراً بدون تبصر (أنظر الشكل ١١) قد يحدث التهابات في المعدة والامعاء . وحين تخرج المرأة من الدار تحمل الطفل على كتفها كأنه يركب حصاناً ، وهذا لا يمنعها أيضاً أن تحمل فوق رأسها أشياء أخرى كالجرة أو الحطب . وحين تعمل في الحقل تترك وليدها على الارض يحمل الطمي إلى فمه ويصيح وينام ويتعود . وإذا بكى طويلاً ، تأتي أي أم من الطريق تعطيه ثديها .

يظل الطفل في المنزل حتى الخامسة . يؤالف الحيوانات أولاً ثم لا يلبث أن يقودها . يقود الجاموسة إلى القناة أو حول الساقية « الناعورة » ويركب الحمار

إلى الحقل ويقذف بالحجارة الطيور السارقة ويجمع القطن بل يبذره . لكنه يلعب خلال ذلك بينما يكد الرجال في الحقول . وأول ما يلاحظه الداخل على القرية هو الاولاد الذين يعبثون عراة في المستنقع ويتعلمون السباحة وبطونهم منتفخة لأنهم يأكلون من كل شيء . إن آباءهم يحبونهم إلى درجة الجنون بحيث يحدث كثير من المنازعات من فرط الحساسية بهذا الحب : إذا أساء أحد معاملة الابن أو ضربه فان الأب يثور وقد يخرج ابنه من المدرسة ويثأر له بانتقام شديد. وكذلك الاطفال يحبون آباءهم وأمهاتهم ويبدو هذا الحب ناشئاً عن تقاليد اجتماعية ودينية ومن الخوف والسمعة أكثر من نشوئه من العاطفة .

تتلاشى الخلية العائلية في جماعة الاقارب والأصهار ، وقبل تلاشيها تكون منصهرة تحت سلطة عميدها . وبهذه الرابطة كانت تشترك في الاعراس والجنائز وتنتقم لشرف أعضائها . غير أن هذه الرابطة لا تدوم في أكثر من ثلاثة أجيال لأن الاسرة الريفية هي أسرة بدون أجداد وبدون اسم عائلي وبدون خصائص ، خلافاً للأسرة الصينية التي تحتفظ بعبادة الاجداد وشرف الاسم . إن الاسرة التي تقطن منزلاً غير متماسك قد لا تكون أكثر تماسكاً منه . إنها جماعة تعمل في الارض ، والاطفال يولدون للعمل في الارض والحياة الخاصة تتابع في إطار من التقاليد التي تربطها الارض .

ليس ثوب الفلاح بأكثر حظاً من مسكنه في التنوع أو التوشية ؛ خلافاً لما نلاحظه في أرياف سورية . فغطاء الرأس « الطاقية » يتحدد إلى أبسط مظاهره يغطي قمة الرأس لكنه لا يحميه من الشمس . غطاء مصنوع من اللباد يميز الفلاح المسكين الذي يسمونه « أبو لبدة » وهو اسم البطل الشعبي لقصص عدة . وعندما يكون الفلاح أكثر سعة أو أكثر تديناً يحيط غطاءه بقماش أبيض (أثر عربي) وتكون اللبدة الجيدة عميقة تصل إلى الأذنين . أما الثوب الازرق القطني

« الجلبية » فهو بدون رقبة وبدون حزام ، تقفل إلى أسفل الصدر . وعند الشغل يقلب الفلاح جلبابه ويثنيه إلى ركبته ويرفعه على صورة قميص قصير (أنظر الشكل ١٢) أو ينزعه ويطويه ويضعه في مأمن إلى أن يستعمله كوسادة ساعة الراحة . وإذ ذاك يبدو في لباس أبيض وسروال واسع يغطي ساقيه مربوط فوق الخاصرة بحبل صغير ، وصدره فوق القميص الذي يهفهف طرفاه على منتصف الفخذين فوق السروال . ولكن عندما يشتد الحر ينتزع الفلاح صدرته بل قميصه ويشتغل عاري النصف الأعلى . وطبيعي أن تكون قدماه حافيتين غير أنه يملك نعلين سميكين من جلد أصفر يلبسها في الاعياد ؛ وهما من الصناعة المحلية. والطفل يبدو عارياً كذلك تحت جلبابه القصير غير أن البنت تلبس أنسجة قطنية ذات نقوش ملونة وتتميز فيها الخاصرة . وهي دائماً محجوزة الشعر في منديل من شاش معقود من زواياه . أما النساء فحين يخرجن يغطين رؤوسهن ، وعندما يلتقين برجل يحجبن أسفل الوجه بنقاب طويل أسود . ثيابهن مقفلة عند العنق والرسغ ولا تضيق عند الخاصرة .

تلك هي مظاهر الاسرة الريفية التي ينبغي أن نعقبها بدراسة نفسية رغم وعورة الطريق . وقد يمهد لهذه الدراسة ما أشرنا اليه من الوحدة التي يمتاز بها الريف المصري والتي تسمح لنا بدراسة الفرد أو الافراد كنماذج للجماعة . فلنبدأ أولاً باستماع الآراء السطحية التي نسمعها من أسياد الفلاح . يقول بعضهم عنه إنه كسول يفضل الاستعفاء على التعب، يقسم الايمان ويتظاهر باخلاصه ولكنه مخادع جبان ... ويقول آخرون إنه متفائل مسالم مخلص للأرض سعيد بحظه حافظ للجميل... أما الملاحظة العلمية فتقول إن عمومية ذكاء الفلاح أكثر من خصوصيته، ولكن جموده أكثر من حركته . ١) يحافظ الفلاح ويعيد ولكنه لا يبتكر . والتحسنات في الزراعة إنما هي مفروضة عليه فرضاً ولعل كثرة القبول والتلقي

جعلت ذكاءه هزيلا وشخصيته سلبية . لم يعد مهتاجاً إلى البحث عن جديد والتعرض لأخطاره « اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش » . ٢) هذا الضعف في الشخصية والابتكار يشرح بدوره فقر روح الجمال عند الفلاح. هو في ملبسه وحقله موضوع فن الآخرين ولكنه هو نفسه غير مدرك لجماله وجمال محيطه . وكان بالامكان تربية هذه الناحية فيه لأن حبه للارض والحقول وميله إلى القصص والالوان وملكته في الهزج والفكاهات ، كل ذلك موجود فيه . ٣) قابليته للاعادة والتكرار أكثر من قابلية الفهم . إنه ماهر في عمليات حسابية تصحح أحياناً نتائج الاختصاصيين ، ماهر في نسخ النموذج وتقليده واستعادة الذكرى من كلمة أو زيادة أو حادثة ... غير أنه بطيء الفهم سطحي الادراك . ومع ذلك حين يكون طفلاً يكون فهمه نشيطاً في المدرسة أو اللعب ، ولكنه بعد الخامسة عشرة يبتدئ في التثاقل . بل نضوجه قبل الاوان (وهو إحدى نتائج المناخ) يجعله يتفوق على الاطفال الغربيين . فما عسى أن يشرح البلادة في سن الرشد !

ينسب بعضهم ذلك إلى عدم كفاية الغذاء ، ولكن النمو البدني لا يقف . إذن لا بد من سبب آخر يراه آخرون في المناخ ؛ لأن الغراس الذي ينبت بسرعة زائدة على الحد لا يلبث أن يقف عن النمو ثم يهوي على نفسه . ولكن بعض الفلاحين صاروا أطباء ومهندسين أو على الأقل تجاراً وموظفين ... إذن لا بد من سبب ثالث وهو البيئة الاجتماعية التي توقف ذكاء الفلاح الشاب من اندماجه في الجماعة الجاهلة ومن نوع الحياة الذي يحنيه على الأرض ويجعله يكرر إشارات بعينها . إن الذكاء الذي يربو بمكتسبات جديدة لا يجد مجالاً في هذا العالم القديم المحافظ ، عالم القرية المصرية . قد يبدو أن الفلاح يعوزه المنطق لكن الواقع يدل أن مفاهيمه لا تخلو من معادلات دارجة على الأقل . . تسأله

مثلاً : « على أية مسافة نحن من قرية كذا ؟ » فيجيبك « على بعد قرش واحد في الاتوبوس » . إن الفلاح بدائي كالطفل تخضع عقليته للمحسوسات ولا يبحث عن العلل ونظامها العقلي إنه رجل الحاضر المتعاقب ، وهذا هو السر في أنه يبدو غير منطقي . وعدم عنايته بالمستقبل ناشئ عن هذا العيب العقلي الذي يبقيه فقدان التعليم والتربية . هو يحرم نفسه مثلاً طوال السنة حتى من الضروري ولكن عندما يحل العيد ينفق كل شيء في يومين أو ثلاثة . وإذا امتلكت يده بضعة جنيهات مربوحة أو مقترضة فهو لا يشتري الآلات والسماد لتوسيع الانتاج في حقله وإنما يستدين ديناً آخر ليشتري قطعة أرض مجاورة له فيظهر بمظهر المالك الأقل صغراً . وعند موعد الدفع ... سنرى « تفرج » . وكذلك ربة المنزل لا تملأ مصباحها إلا مع بدء الليل ، والحراث لا يشتري البذور إلا في ليلة البذر ولا يدفع دينه إلا بحال الجبر ولا يدعو الطبيب إلا بحال اليأس .

إن الفلاح يثق إلى حد التصديق بالاشخاص والاشياء المقدسة التي تستطيع أن تنيله الخير المشتهى كالنسل والصحة (١) والانتقام ... غير أنه إلى جانب ذلك كثير الحذر من زملائه الفلاحين وأقربائه . على أن هذا الحذر له ما يبرره من نظام المظالم والوشايات ويبرر موقف الفلاح الفردي في حياته الشخصية. حينما يدخر شيئاً ، يفعل ذلك في أشد الاحوال خفاء ، وإذا زاول مهمة قيمة يحتاط كل الاحتياط من أن يتناولها بالحديث ، لأن الشقاء يتبع السعادة حالاً . ولكن حينما لا تكون مسائل المنافع والارض والنساء — وهي المسائل التي تجلب

---

(١) يختلط السحر بالطب في الاستعمال التقليدي لمنتجات الارض لأجل حفظ الصحة أو اعادتها . وقليل من التجارب وكثير من الخرافات يوضحان تلك المجموعة المدهشة من الوصفات والتعويذات الموجودة لدى الفلاحين . انهم قد كونوها مما تحت أيديهم فتقبع خوص النخل أو ورق الذرة لاضطراب الامعاء ، وعصير البصل وفحم حطب القطن للأعين ، وصمغ السنط للعظام المكسورة ، وأربطة القنب للأورام والروماتيسم ، الخ . والمرجع الموثوق في هذه العلاجات انما هو الحلاق والقابلة اللذان يمارسان طبابة القرية كما أشرنا (ص ٣٩) .

التفرقة — هي موضع الاختلاف يعيش حياته مع أمثاله جنباً إلى جنب . إن الفلاح محب للجماعة في عمله وفي متعه وحداده ، وقد تتحول هذه الجماعية إلى تماسك شديد عندما يكون تحت خطر عاجل تنبغي مواجهته ، وفي ذلك فرصة للتباهي والظهور . والفلاح مرح ما دام لا يرهق نفسه بالماضي والمستقبل . وعندما يأتي أمر يعكر الساعة ولا يكون شديد الضغط فانه يعتمد على قوله غداً «بكرة» وما دام لا يؤمل فيما هو أحسن فلماذا النشاط ؟ إن تثاقله يعود إلى « كيفه »، وهو صبر من نوع فريد تعلمه من طبيعة الارض بدون أخطار المناخ . قد يذهب إلى القطار قبل وصوله بعدة ساعات ولكنه يذهب إلى الموعد بعد حلوله بعدة ساعات . أما الضبط والتحديد والاسراع ... فلماذا ؟ هو صبور ومسالم لكثرة خضوعه للناس والاشياء ولكنه لا يخضع لأمثاله وقد يسود كأسياده في مسائل النساء : ١) لا يخضع لأمثاله من حيث تعديهم على حقوقه ؛ إذ يكفي اختلاف على قرش أو دجاجة لحدوث نزاع بل تكفي إساءة أحد رفاق ابنه أو وشاية إحدى جارات زوجته ... عندئذ يشاهد الفلاح المفرط في تحمل العسف من أسياده مفرطاً في الحساسية تجاه الفلاحين ، وغالباً ما يكون الثأر في الخفاء كأن يجري في الليل وباحتياطات لا نهاية لها . ٢) يسود كأسياده ويتساوى معهم في مسائل النساء التي هي مع مسائل الارض تبسط عليه أكبر السلطان . وحينئذ لا يكون هناك ثري وفقير ولا للمال والسلطة أي مفعول . يعرفون ذلك الملاكون جيداً فلا يستطيعون التصرف في القرويات لذاتهم . ويروى أكثر من مرة أن أحد « البكوات » قتل على باب داره لأنه أفسد إحدى الفلاحات .

يدل قتل الثأر عند الفلاحين على الحدة أكثر من دلالته على الشر . فهو ينم عن أن دماءهم حارة وأن الحياة البشرية لا حساب لها أثناء حدتهم . غير أن هذا الهياج لا يكاد يدوم لأن الحالة العادية التي تسترعي انتباهنا هي « الاذعان » الذي

تنبئ عنه الامثال الريفية الكثيرة : « طولة البال تهد الجبال » « طولة البال ما تخسرش » « يا شاري الخبر بفلوس بكره يبقى بلاش » . وقد يصل الاذعان إلى حد الذلة والوضاعة بتأثير الضغط أكثر من تأثير الفاقة والفقر . . . لقد عومل الفلاح كطفل أو بهيمة ولا يعرف من الطبقة العالية التي تسوده إلا جانبها الخشن: الضربات الغرامات الشتائم ... التي صيرته أخيراً غير حساس بها . ينتج مما سبق أن الفلاح قابل للتربية . فاذا كانت عنده فكرة العدالة فاسدة وتعوزه الصراحة والثقة فان التربية الاجتماعية لم تعلمه هذه المحامد . وإن كان انكبابه على العمل بدون ميل وإخلاص وبدون تصميم وابتكار فهذه الثغرات خلقها الجهل والطغيان اللذان بدورهما أفسدا فضائل الفلاح نفسها كفضيلة الصبر والثبات المستقاة من طبيعة الارض ... والفلاح رجل أخلاقي لأنه يؤمن بالله وهو وإن كان مادياً فليست المادية مذهبه . هو متقشف بتأثير الارض ويلجأ إلى العناية الالهية « إن شاء الله » ولا ينزع إلى الجريمة إلا في حالة استثنائية . إن الرقابة المتبادلة والروح المحافظة وحب الحياة كل ذلك يجعل الجنايات الاخلاقية في مصر أقل منها في البلاد المماثلة كما يجعل الاعتداءات على العرض بين الفلاحين بأقل نسبة صغرى في مجموعة المخالفات القانونية .

حول اصلاح الريف المصري :

يرجع عهد اليقظة في مصر إلى نحو نصف قرن : ١) فمن الوجهة السياسية تحررت من تركيا ثم من انجلترا . ومنذ ١٩٢٣ صار لها سفراء وقناصل في الخارج وحياة نيابية في الداخل مع المعارضة والاحزاب والبرامج . غير أن الحياة السياسية لا تكاد تحرك إلا عشر الاهلين والباقي الفلاحون مواطنون غير مدركين وغير منظمين . ٢) من الوجهة الاقصادية تقدمت مصر ولم يظهر العجز

في ميزانيتها بل تمتعت بامتلاك الاحتياطي وبالنمو المطرد في انتاجات الجمرك وأموال الشركات والسكة الحديدية وزراعة القطن وامتدادات الري والصناعات المحلية . غير أن هذا التقدم لم يرافقه تحسن الفلاح . بقي مستواه كما كان بل إن ثباته مع الرضى والقناعة كان سبباً لتلك الهناءة الرأسمالية التي بقي معها استثمار القطن وقصب السكر محصوراً بأصحاب الاموال . ٣) من الوجهة الفكرية تجددت مصر و كثرت منذ عهد فؤاد الاول المؤسسات العلمية والفنية مع إصلاحات الازهر ولكن السواد الاعظم بقي جاهلاً . لقد بقي الفلاح متديناً ولكنه لم يسطع بالثقافة الدينية التي بقيت محصورة في علماء الازهر كما بقيت الثقافة الجامعية محصورة في صفوة الشباب الحضريين . ولم تؤد وظائفها في تبسيط العلوم للشعب لا الجامعات العلمانية ولا المعاهد الدينية وكذلك الصحافة رغم تقدمها وتوسعها .

إن بؤس الفلاح يأتي من جهله مع وجوده في عالم متطور . وكادت تزيد هذه النهضة في إظهار عزلته وتبعيته لولا حدوث بعض التطور في الازمنة المتأخرة . ١) الغاء السخرة نسبياً ووضع حد لاستبداد الباشاوات . ويرجع هذا التحديد في بدئه إلى اللورد كرومر الذي كان يفكر في الفلاحين . فألغي « الكرباج » وتحدد تسليم الضرائب بنسبة ووقت معقولين وصار الفلاح يعرف ما لا يجب دفعه ، مثلاً في حال عدم الانتاج بسبب الجفاف أو الفيضان .. ٢) احتفاظ الفلاح بمنزله الصغير وبعض أملاكه كحد أدنى . ويرجع هذا الحفظ في بدئه إلى اللورد كتشنر خلف اللورد كرومر . وذلك باصداره عام ١٩١٢ قانوناً يقضي بأن يكون منزل المزارع الصغير وآلات شغله وحيواناته من حيوانات الحمل والركوب وخمسة أفدنة غير قابلة للحجز عليها . ٣) وجود عدالة وقضاء يلجأ إليهما الفلاح حين اللزوم . وهو وإن كان لا يعرف استخدام السلطة التشريعية لكنه الآن في طريق التعلم والاسترشاد ٤) إنشاء بنك التسليف الزراعي الذي تطور عام

١٩٣١ بمعاونة مصارف القاهرة وصار يساعد صغار الملاك بفائدة ٧ ٪ وجمعيات التعاون بفائدة ٥ ٪ . وبينما كان عدد الجمعيات التعاونية (١٤٧) عام ١٩٢٧ ، إذا به يرتفع إلى (٧٠٣) عام ١٩٣٥ . إن فوائد هذه الجمعيات واضحة فهي تلغي الوسطاء المفسدين وتنظم الانتاج والاثمان وتحسن الكيفية والكمية ، وتشري وتبيع بأفضل الشروط وتعنى بالخدمة الاجتماعية بما يفيض من أرباحها كاصلاح القرية في شروطها الصحية والتربوية . ٥) تأسيس محطات جديدة للماء من وقت إلى آخر ، وقد مهرت « مديرية الفيوم » البعيدة عن النيل بمؤسسات نموذجية ولكن الفلاحين ليسوا معجلين للاستفادة من هذه النعمة . ففي النخيلة مثلاً وهي قرية ضخمة دخل عليها الماء بعناية مجلس قروي نشيط ... غير أن النساء بقين يفضلن ماء النهر الجاني على أن يدفعن مليماً واحداً ثمن الصفيحة . ٦) إنشاء القرى النموذجية . ففي عهد محمد علي نشأ « بخيط الميزان » نحو عشرة بلاد ولكنها سرعان ما تأثرت بالقديم الذي كان أقوى من الحديث تأثيراً . وفي عام ١٩١٤ افتتح الخديو عباس الثاني ثلاث قرى مستقيمة الشوارع ذات مساكن تتألف من حجرتين وردهة ... غير أن الفلاحين حولوا هذه المنازل حسب حاجاتهم . ومع ذلك فان اليأس لم يحصل لأن القائمين بالأمر عاودوه بعد عشرين سنة وحدثت انشاءات مماثلة في عهد الملك فؤاد الاول وظهرت منازل كثيرة مبنية بالآجر ذات سقوف من الاسمنت المسلح ... وفي عام ١٩٣٦ قدمت الجمعية الملكية الزراعية صورة واقعية أخرى : عشرين منزلاً كل أربعة منها متصلة معاً وقائمة على شوارع بعرض ستة أمتار ... هي مبنية من اللبن ذات سقوف خشبية لكنها أقل تكليفاً من النموذج السابق . غير أن عدداً محدوداً في أوساط واسعة « كنقطة في بحر » لا يكفي . فالافضل كما قالت المعارضة : إنفاق المال في مشروعات أعم نفعاً كتزويد القرى بالماء الصالح مجاناً ... هو خير من التفريق بين القرى .

وعن ذلك نتج مشروع الخمس سنوات لاعادة بناء أربعة آلاف قرية في مصر ، ولولا أعباء معاهدة ١٩٣٦ الثقيلة لكان المشروع سائراً في طريقه . ٧) بروز مؤسسات أهلية منذ ١٩١٨ في سبعين قرية وهي « مجالس القرى » المعدة لأن تصير مجالس بلدية ذات مستقبل واضح مع انتشار الديموقراطية . في الوقت الحاضر يظهر نشاطها برش الماء في الشوارع الاساسية وتنويرها بمصابيح مع إنشاء حديقة صغيرة ... وكان الجميع يتمنون أن تكون أكثر تمثيلاً للقرى ، غير أن الروح الجماعية لم تنضج بعد ، ويبدو أن ميزانيتها في صالح الموظفين لولا بعض الخدمات البارزة : مستشفيات وصيدليات مجانية منها الثابت ومنها المتنقل لمعالجة الانكلستوما والبلهارسيا . ثم مؤسسات الطفولة مع الممرضات المتنقلات بحسب الحاجة من توليد وسواه .

ليس في مقدور القرية النموذجية أن تجعل من الفلاح رجلاً سليم الصحة بريئاً من العاهات ما دام يحتفظ بعقليته وسط التحسينات المستمرة . فهو بهذه العقلية ينبذ مثلاً الماء الصالح للشرب كما يفسد (بطريقته في الحياة) المنزل المنير الطلق الهواء . إنه لن يعرف الاستفادة من المؤسسات والقوانين المنشأة لمصلحته؛ فينبغي أن نبدأ بتعليمه قبل كل شيء . على أن هناك نظرية ترى في تعليمه سبباً لبؤسه : لقد وقف أحد النواب عام ١٩٣٣ يؤيد أن تعليم السواد الاعظم شيء غير مرغوب فيه ، وهو كانتحار للبلاد ... لا شك في هذا إذا كان التعليم يجري بدون تربية ويقتصر على المناهج الرسمية للتعليم الالزامي ؛ لذلك رأت اللجنة في ميزانية ١٩٤١ « أن يعيد القائمون به تنظيمه من أساسه معتبرين ضرورة إعداد الشباب لحياة القرى ، لكي يرفعوا مستوى الانتاج الزراعي » . أما كره الارض والهجرة إلى المدن فانها يأتيان من البؤس نفسه لا من التعليم . لأن الفلاح حين يرتحل يؤمل أن يجد في المدينة ما يربحه ليعود على الفور إلى بلده . وفي إحصاء

عام ١٩٣٧ يظهر ثبات التوازن رغم ارتفاع نسبة المواليد والانخفاض النسبي في الوفيات . وقد يظهر النفور من عمل الارض الشاق في بعض المهاجرين لكنهم أقلية : منهم الفلاحون الذين أقاموا طويلاً في المدينة ومنهم فلاحو القرى المتطورة نحو العلم الذين يتباهون بالمظاهر دون الجواهر . على أن القرى المحيطة بالقاهرة تبرهن على وجود مستعمرات للفلاحين حقيقية يمكثون فيها مجتمعين ومحتفظين بأكبر قدر ممكن من عاداتهم القروية. وفي أغلب الاحايين يهاجر الرجال وحدهم تاركين النساء والاطفال أملاً في العودة بعد جمع المال . وهم يعرفون جيداً أن العامل القاهرة لا يحيا حياة أقل قساوة من حياة الفلاحين في الحقل، هذا فضلاً عن كونه معرضاً للتعطل الخطر الذي لا يتعرض له الفلاح . وحين يذهبون إلى المدينة يتبعثرون في أكواخهم في الاحياء الفقيرة ويؤلفون سواداً طفيلياً عليه مسحة البؤس إلا من ربحت تجارته وحسن حظه ، والباقون إما يدخلون السجون كمجرمين أو يعودون إلى قراهم بخفي حنين بعدأن لم يظفروا بمهنة الحمالين أو الكناسين.

ولكي أختم بحثي هذا جدير بي أن أعرض عليكم أمثلة عن الاصلاح الريفي من نوع جديد لم أعرض منه في البحوث السابقة . فقد عرضت مساعي الحكومات فقط والجمعيات ، مع العلم أن مساعي الافراد لا تقل أهمية عنها . وفيما يلي نماذج منها ملتقطة من الكتاب ذاته : ١) محاولة ناجحة أجراها رجل إغريقي يملك قرية خاصة « عزبة » من عزب البحيرة مساحتها ١٦٠٠ فدان . لم يكتف المالك بأن يبني لقروييه منازل جميلة بالآجر والاسمنت المسلح، بل كان يستقدم كل اسبوع من المدينة طبيبين ، أحدهما للصحة العامة والآخر للاسنان . وأنشأ مدرسة نموذجية ترافقها مسعفة اجتماعية هي أولى خريجات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالاسكندرية . وهذه الشابة المصرية لا تقيم في « فيلا » المالك أو في منزل الناظر، بل على مقربة من الفلاحين وفي المدرسة في غرفة صغيرة صيرتها جميلة. في الساعة ٨

توزع الادوية مجاناً . في الساعة ٩ تقوم بالزيارة الصحية للمدرسة . بعد ذلك تذهب إلى المنازل متعقبة في رقة ولطف سوء النظافة أو عدم الترتيب وقد أعدت لكل أسرة بطاقة تسجل فيها التقدم ... وفي كل مناسبة تجمع الفلاحات الشابات وتلقي عليهن دروساً في الخياطة وتربية الطفل . وفي المساء تجمع الرجال لتقص عليهم قصصاً وتعلمهم كيف يسرون عن أنفسهم . وبعد مرور سنة أصبح نساء القرية يستحممن كل أسبوع بعد أن كن لا يستحممن إلا مرة كل عام . . .

٢) محاولة أخرى وإن كانت أشد قدماً ، لكنها نجحت بتفوق . أجراها رجل ألزاسي كان ناظراً في « أبعدية » في مركز السنبلاوين . وهو من أصل قروي قوي عاش في تلك الأبعدية مع زوجته فاستثمر فيها ٤٠٠ فدان بالزراعة المباشرة وكانت كالجنة في النظام والصحة . أما الماء الصالح فهو محقق بواسطة مضخة مثبتة عند مدخل العزبة حيث يوجد المسجد ذلك المسجد الجميل الذي بناه المالك المسيحي وعين له إماماً على نفقته ليجمع رجال العزبة والعزب المحيطة بها . يقطن فلاحو العزبة في ٣٦ منزلاً ولكل أسرة قطعة من الارض المجاورة تكدس فيها الخشب والسماد دون أن تستخدم سطح المنزل لهذا الغرض ... يتقاضى كل عامل يومياً ٣ ــ ٣٫٥ قرشاً ويرتدي الجميع كل عام ملابس جديدة على حساب المالك فضلاً عما يوزع عليهم من اللحوم والفواكه في مناسبات عديدة ، وعندما يكون الفلاح مستديناً يقدم إليه الناظر ما يلزمه بدون أن يخدعه ثم يستوفي حقه من أيام عمله بالتدريج . وعندما يمرض يرسله إلى الطبيب أو يعالجه بعض الشيء هو نفسه لأنه تمرن على هذه المعالجة من تكرارها والاعتياد عليها . تساعده في ذلك زوجته التي كانت تغسل أعينهم وتعطيهم الملابس وتعلمهم أحسن العادات . إنها كانت دائماً حاضرة بينهم ، وقد ظلت على هذه الحال ٢٤ سنة إلى جانب زوجها . والفلاحون الذين يحفظون الجميل ، عندما علموا مرضها في القاهرة تجمع ٣٠ رجلا

منهم في سيارتين وارتحلوا إلى المستشفى كأنهم في مظاهرة ؛ وكم كان ألمهم شديداً وحدادهم عاماً حين رأوا الناظر العزيز مع أولاده يعودون من المقبرة بألبسة سوداء . لقد تركت هذه الأم لابنتها مثلاً تسير على منواله ... وديعة باسمة متحدثة بالعربية وكم كان يحبها الفلاحون ويحبون حديثها . والجدير بالذكر أن الناظر لم يفتقر بسبب هذه العدالة الاجتماعية بل بقيت ولا تزال الضيعة إحدى ضيعات مصر الأكثر إنتاجاً ، ومنتجاتها تنال الجوائز في المعارض الزراعية . ٣) محاولة أخرى أيضاً نجحت بتعاون خمس فتيات مصريات في « قلوصنة » بالوجه القبلي. لقد أنشأن مدرسة صغيرة خلال ثلاث سنوات اعتباراً من صيف ١٩٣٣ لأن مدرسة الحكومة كانت بعيدة عن القرية ! وقد استعرن من إحدى السيدات مكاناً وسط البلد مؤلفاً من حجرتين واستقبلن نحو ٦٠ طفلاً أكثرهم بناتاً بين الـ ٦ – ١٧ سنة . وكان الجميع يواظبون على التعلم والاسترشاد بتقدم محسوس وبينما كان كل تنظيم في البدء صعباً حتى تنظيم اللعب نفسه إذا بالاطفال قد انتهوا بأن فهموه وطبقوا عليه القواعد بكل مرونة ...

هذا هو عمل الصفوة المختارة التي يمكن أن يتسع من الاجزاء إلى الجماعات أو من الجماعات إلى الافراد. والافراد على اختلاف أنواعهم مدعوون لهذا الواجب الانساني ، المهندس ، الطبيب ، المدرس ، الممثل ، الصحافي ، الروائي ... كل بحسب اختصاصه مثلاً الصحافي بمقالاته المتسلسلة والروائي برواياته التي نذكر منها رواية «عاصفة على الريف» السينمائية التي أثارت مشكلة الفلاح مع رؤسائه بصراحة وشجاعة كل ذلك بإشراف حكومات صالحة. والخلاصة لا بد أن نقول كما قال الأب عيروط في معرض ذكره التطور في مصر «إنه يبدأ بانشغال مصر المتطورة بمصر غير المتطورة» وبتعبير آخر: يبدأ التطور بأن تعنى مصر المتعلمة بتعليم مصر اللامتعلمة .

شكل (١١) الفلاحة التي ترضع وليدها بسخاء ولكن بغير تبصر ولا نظام إلى يسارها قربة من الجلد لفرز الزبدة من الحليب المأخوذ من الماشية

شكل (١٢) الفلاح المصري أثناء العمل ومعه فأسه كاستطالة من أطراف جسمه ويبدو من طابعه الخارجي (لباس الرأس ، الشعر المجعد ، الخ ...) مختلفاً عن الفلاح الآسيوي ومتشابهاً مع الفلاح المغربي بحيث يمكن تقسيم ميدان الفلاح العربي إلى قسمين : ١) ميدان الفلاح المشرقي « آسيا العربية » . ٢) ميدان المغربي « أفريقيا الشمالية » . ويفيدنا هـذا التقسيم خصوصاً لبيان الفروق الاقتصادية وتناقص نسبة الرفاهية في المسكن واللباس في الجهات المغربية . أما الطابع الداخلي أي نفسية الفلاح فهو مشترك يوحد الميدانين إجمالاً

شكل (١٣) الاسعاف الاجتماعي

المسعفة الاجتماعية تروي القصص الصحية على قرويات صغيرات هن نساء المستقبل

أخطاء مطبعية

ص	س	خطأ	صواب
٤٣	٤	ورقي إدارات	ورقي وسائل الحياة والراحة
		» »	(يحذف السطر الرابع ونصف الخامس)
٥٥	٣	وبسبب	ويسبب
٦٨	٢٠	نتدوج	نتدرج
٨٢	١٠	نهي	فهي
٩١	٥	كتاب	كتاب(١)
١٠٤	١٢	يضاف تحت السطر ١١ مابلي: يا حصاد الحر مر	جرني عالفي جر
١٠٩	٢	كا	كما
١١٥	٤	تأييسه	تأييسه
١٣١	١٠	أقصر	أقصى

فهرس موقت للجزء الاول

		ص
البحث الاول	أين يقع علم الاجتماع الريفي من علم الاجتماع	٩
« الثاني	علم الاجتماع الريفي ، طرائقه ومفاهيمه	١٦
« الثالث	خصائص الحياة الريفية إجمالاً	٣٠
« الرابع	العوامل الايكولوجية في تكون القرى والمدن	٤٧
« الخامس	الريف السوري (القسم الاول)	٦٥
« السادس	« « (« الثاني)	٩١
« السابع	الصفات المشتركة لأرياف الشرق الأدنى	١٢٣
« الثامن	الريف العراقي	١٦٢
« التاسع	« المصري	١٨٢

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني حاوياً على نماذج من الأرياف
في الشرقين الأوسط والأقصى والغربين الأوربي والأمريكي

Jamal MOUHASSEB
Docteur en philosophie (Genève)

SOCIOLOGIE RURALE

Cours professé à l'Université Syrienne (Damas)

1954 — 1955

TOME I

Librairie Papyrus — Damas, 1955

Du même auteur للمؤلف

en arabe باللغة العربية

١ ــ الاخلاق والتربية المدنية (الطبعة الثانية) دمشق ١٩٤٥

٢ ــ الانشاء الفلسفي : مواضيع علم النفس (الطبعة الثانية) دمشق ١٩٤٧

٣ ــ الفلسفة : المنطق والاخلاق وما وراء الطبيعة (الطبعة الثانية) دمشق ١٩٤٨

٤ ــ محاضرات علم الاجتماع الربوي (الجزء الاول) دمشق ١٩٥٥

٥ ــ سكولوجية التربية القومية (طبعة ثانية موسعة) تعد للطبع

en français باللغة الفرنسية

1 — La pépagogie d'Ibn Khaldun (Mémoire présenté à l'Université Saint Joseph, Beyruth 1946).

2 — L'esthétique : philosophie évaluatrice et science positive (Mémoire présenté à l'Université de Genève, 1952).

3 — Essai sur la classification des sciences (Thèse présentée à l'Universite de Genève, 1953).

T

S

Back

PB-36245
5-11T
CC

B

Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 02841 3873
HN783.5 .M8

دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة

تقدم من

سلسلة عيون التراث العربي

١

مخطوط نادر

حجة الوداع

لابن حزم الأندلسي

وثيقة تاريخية دقيقة لرحلة الرسول المعظم . وهو مخطوط نادر كان ضائعاً في ظلام المجهول وقد جمعت جذاذاته وضم بعضها إلى بعض من استنبول مدريد وليبيا . وقد تتبع فيه ابن حزم خطوات الرسول المعظم (صلى الله عليه وسلم) في هذه الحجة خطوة خطوة منذ خرج من المدينة حتى دخل مكة ، ورافقه في خطواته إلى عرفات فمنى . ثم عاد معه إلى المدينة لم يترك شاردة إلا قيدها . ثم عاد فأيّدها بأحاديث مروية بإسناد صحيح دقيق. والكتاب هو الأول من نوعه يتناول هذا الحادث التاريخي الكبير منذ عهد الرسول الأعظم إلى عصرنا هذا، بمثل هذا التدقيق

طبعة محققة تحقيقاً علمياً صحيحاً

عدد النسخ المطبوعة محدودة

تطلب مطبوعاتنا ومنشوراتنا من جميع المكتبات الكبرى

في جميع أنحاء العالم العربي